أرنولد توينبي

تاريخ البشرية

الجزء الثاني

نقله إلى العربية

الدكتور نقولا زياده

الأهلية للنشر والتوزيع

الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت ١٩٨٨

بيروت، الحمراء، بناية الدورادو، ص. ب ١١٣٥٤٣٣، هاتف ٣٥٤١٥٦ ـ ٣٥٤١٥٧

أرنولد توينبي

تاريخ البشرية

الجزء الثاني

نقله إلى العربية

الدكتور نقولا زيادة

الأهلية للنشر والتوزيع

الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت ١٩٨٨

بيروت، الحمراء، بناية الدورادو، ص. ب ١١٣٥٤٣٣، هاتف ٣٥٤١٥٦ ـ ٣٥٤١٥٧

تاريخ البشرية

المحتويات

٣٩ – المدنيتان الميزو–اميركية والاندية حول ٤٠٠ ق.م. – ٣٠٠م

ان التقدم الذي انتهى بالحضارة في ميزو – اميركا وفي العالم الاندي الى الوصول الى مستوى المدنية تحدثنا عنه في الفصل الحادي والعشرين. وقد كان مبدعو المدنية في ميزو – اميركا هم الأُولْمك ؛ وفي العالم الاندي كانوا مخترعي الاسلوب الشافيني في الفن وناشريه. وقد أظهرت الفحوص الاشعاعية الكربونية. في مكان واحد على الاقل، هو سان لورترو في برزخ تيهوانتبك في ميزو–اميركا. ان ظهور أول نموذج لمدنية أُولمْكية معروفة كان حول سنة ١٢٥٠ ق.م. ؛ اما في لافنتا وتريز زابوتس. اللذين يقعان اقرب الى ساحل المحيط الاطلسي. فقد كانت المدنية الأولمكية مزدهرة بين حول ٨٠٠ و٤٠٠ ق.م. ؛ كما وانها كانت متعاصرة مع «الافق» الشافيني في العالم الاندي. واثناء العصر الذي تلا ذلك مباشرة أي حول ٤٠٠ ق.م. و٣٠٠م. تقدمت المدنية باستمرار بحيث وصلت القمة في المنطقتين في الوقت ذاته. اذا كنا على استعداد لتقبل أي من الحسابين اللذين يعيّنان التوقيت (التأريخ) الاندي. إلا انه ثمة حساب ثالث يوقّت لبلوغ المدنية الاندية القمة قبل ذلك بنحو ستمئة سنة. أي حول ٣٠٠ ق.م..

إن التوقيت (التأريخ) للمدنية الميزو– اميركية ثابت تماما. إذ ان هناك نظاما مستمرا للتأريخ في ميزو–اميركا. لعلّ اختراعه يعود الى الأ لمك. وقد كَمُل تماما على ايدي المايا في العصر «الكلاسيكي» للتاريخ الميزو–اميركي (حول ٣٠٠ – ٩٠٠م). وهذا النظام الذي يعرفه رجال الآثار المحدثون باسم «الحساب الطويل» قوبل بتأريخ مؤكد. باعتبار سني ما قبل الميلاد وما بعده. وضبط. عن طريق الفحوص الاشعاعية الكربونية. لأعمار نماذج متعددة من الخشب التي انتزعت من افاريز ابواب هياكل المايا. وهي المرتبطة بتواريخ من «الحساب الطويل» منقوشة على الآثار المايَاوية.

ليس من المعروف عن الشعوب الاندية انه كان لها نظام للتأريخ خاص بها.

والاساس الوحيد للتأريخ الاندي. بالاضافة الى الفحوص الاشعاعية الكربونية. هو دراسة طبقات ما تراكم من الآثار (مثل الابنية وقطع الفخار) في مواضع المدنية الاندية.

وقد فسر علماء الآثار هذه الطبقات في مفهوم تأريخي. وذلك باعتبار تخن المخلفات، وعدد الشرحات المتتالية التي حفظت في المخلفات الطبقية. ودرجة الفروق بين الشرحات في التوالي الزمني. إلا انه تبين ان التواريخ بين حول ٤٠٠ ق.م. و١٤٣٨ م، تختلف اختلافا كبيراً بين التوقيتين. وذلك لما اخذت نماذج من محتويات الطبقات واخضعت لفحوص اشعاعية كربونية. ثم استخدمت النتائج المتحصل عليها من هذه الفحوص للتأكد من التأريخ (التوقيت) الفرضي المبني على توالي الطبقات. فعلى سبيل المثال يقع العصر المسمى «الكلاسيكي» أو عصر الأزدهار في التأريخ الاندي، وهو العصر الذي بلغت فيه المدنية الاندية القمة. على اساس الفحوص الاشعاعية الكربونية. بين حول ٣٠٠ ق.م. و٥٠٠ م. اما على اساس حساب الطبقات فانه يقع بين حول ٤٠٠–١٠٠٠ م.

هذا التفاوت محير. وليس من سبيل. ونحن على هذه الدرجة الحالية من المعرفة، لاصدار حكم اكيد في اي من التأريخين المتناقضين هو الصحيح. فالحساب الغرضي للطبقات واتخاذ ذلك اساسا للتوقيت هو امر ذاتي. وقد تكون النتيجة خاطئة. وفي الجهة الاخرى فان النماذج التي اتخذ فحصها الاشعاعي الكربوني اساسا للتأريخ الاندي وتوقيته ليست متعددة بما فيه الكفاية. والفحوص الاشعاعية الكربونية المبني عليها توقيتات موزعة. فد لا تكون اقل تضليلا من التوقيت الفرضي. فالتوقيت الاشعاعي الكربوني لا يمكن الاعتماد عليه كليا إلا إذا عرفنا زمن الشيء المفحوص. فلنضرب لذلك مثلا، إذا عثر على جائزة خشبية في بناية، وكانت هذه الخشبة مأخوذة من بناية اقدم عهدا. فاذا كان الامر كذلك فان فحصها لا يعطي تأريخ البناية التي عثر عليها فيها. وللافادة من التوقيت الاشعاعي الكربوني بشكل مضمون يتوجب تعدد الفحوص حيث تكون النتائج سليمة. وعدد الفحوص الاشعاعية الكربونية الموجودة لدينا الى تاريخه هو، بالنسبة لتوضيح التأريخ الأندي، عدد ضئيل جدا. ويترتب على ذلك ان خير ما يمكن ان نعمله الآن. بالنسبة الى الثمانية عشر قرنا ونصف القرن المنتهية حوالي سنة ١٤٣٨ م. هو ان نقبل مؤقتا بالتوقيت المبني على الاشعاع الكربوني. على ان نكون متحفظين عقليا بانه عندما يزداد عدد هذه الفحوص. فمن المحتمل ان تكون النتيجة اقرب الى الحساب المبني على توالي الطبقات منها

الى الدلائل المضطربة المبنية على فحوص اشعاعية كربونية قليلة. هي التي تمت الى الآن.

جاء قيام المدنيتين الاندية والميزو-اميركية مستقلا في الواحدة عنه في الأخرى، ومع ان كلا من المدنيتين اثرت في الأخرى تأثيرا بينا (اخذ العالم الاندي عن ميزو-اميركا الذرة الصفراء. واخذت ميزو-اميركة التعدين عن العالم الاندي) فليس ثمة سبب معقول يدعو لأن تكون المراحل التالية للمدنيتين متناظرة. او. حتى لو كانت المراحل متناظرة. ان تكون هذه متعاصرة. وعلى كل حال. فان المرحلة الأولمكية من التاريخ الميزو-اميركي والمرحلة الشافينية من التاريخ الاندي تكادان. في الحقيقة. ان تكونا نظيرتين كل منهما للاخرى. وتكادان تكونان متعاصرتين. وكذلك الامر فيما يتعلق بالمرحلة الاخيرة من تاريخ الاميركتين السابق لكولومبوس. نجد ان توسع دولة الازاتكة في ميزو-اميركة بدأ تقريبا في الوقت ذاته الذي بدأ توسع دولة الانكا في العالم الاندي. وتاريخا الابتداء هما ١٤٢٨ و١٤٣٨م على التوالي. والتأريخ الاندي المبني على توالي الطبقات. لا على الفحوص الاشعاعية الكربونية. يضع المرحلة «المزدهرة» من التاريخ الأندي معاصرة زمنا للمرحلة «الكلاسيكية» النظيرة في التاريخ الميزو-اميركي. وبالطبع فليس ثمة اي سبب معقول يحملنا على القول بان المراحل المتناظرة للمدنيتين يجب ان تكون متعاصرة الواحدة مع الاخرى. وقد قبلنا الآن القول بان التاريخ الصحيح للمرحلة «المزدهرة» للحضارة الأندية هو المدة الواقعة بين حول ٣٠٠ ق.م. و٥٠٠م. لا من حول ٤٠٠-١٠٠٠م.

ان المدنية الأولمكية ظهرت أول ما ظهرت في برزخ تِيهْوَانْتِبك وفي الأرض المجاورة على ساحل المحيط الاطلسي. إلا انها انتشرت من هناك في اتجاه شمالي غربي الى هضبة المكسيك. وفي اتجاه جنوبي شرقي في سواحل المحيط الهادي. ثمة دلالة اثرية على ان انتشار الأولمك تم بقوة السلاح. وان التدمير المتتالي للاماكن الأولمكية في سان لورنزو وفي لافنتا يدل على ان الاولمك لجأوا الى السخرة للشعوب المقهورة لنقل المواد الثقيلة لاعمال الفن الضخمة التي اقاموها. ومع ذلك فاذا كان الاولمك كانوا مكروهين. فقد كانوا يُقَلَّدون ايضا. ان تريز زابوتس. وهي اقصى موضع للاولمك في الشمال الغربي على الساحل الاطلسي. استمرت حتى حوالى بدء التاريخ المسيحي. وهي موضع اقدم تأريخ معروف الى الآن. في «الحساب الطويل». والتاريخ يعادل سنة ٣١ ق.م. والى الشرق من برزخ تيهوانتبك. في تشيابا دي كورزو. ثمة تأريخ يعادل ٣٦ ق.م.؛ وفي إل باؤل. في مرتفعات (اي الجنوب) غواتيمالا. ثمة تأريخ يعادل ٣٦م. ومعنى هذا ان أهم

اختراع لـلاولمك انتشر في ميزو- اميركة الى ما وراء حدود الاراضي التي كان من المحتمل ان الاولمك احتلوها.

بين حول سنة ١٠٠ ق.م. و١٥٠م بدأت اعمال معمارية ضخمة في الجهتين المنخفضتين لمنطقة المايا. والجهة المتوسطة للمايا. بيتين. مغطاة الآن بغابات كثيفة مدارية الامطار؛ والجهة الشمالية. يوكتـان. هي منطقة جافة عارية نسبيا. وتاريخ اقدم نصب موثوق بتاريخه. في تيكال . المركز الرئيسي للطقوس الدينية في الجهة الماياوية الوسطى هو ٢٩٢م. وهكذا فان المدنية الميزو- اميركية وصلت الجهات الماياوية الوسطى والشمالية بعد وصولها الجهة الجنوبية (مرتفعات غواتيمالا). ولكنها ما كادت ان تستقر في الجهة الماياوية الوسطى حتى تطورت فيها بعض الصفات المميزة. واحدها العقد السلّي الذي يعلوه السـقـف المشطي الشكل؛ واخرى هي الجمع بين المذبح والنصب. والشارات الميزو- اميركية الوحيدة التي حلت رموزها الى يومنا هذا. هي الشارات التي تعين التأريخ (سواء تلك التي تعطينا التواريخ على اساس «الحساب الطويل» او تلك التي تعطينا اياها في دورات زمنية متتالية طول الواحدة منها اثنتان وخمسون دورة). والمخمّن هو ان الشارات التي لم تحل رموزها بعد هي كتابة. وانها. فيما اذا كانت كذلك فانها تكون شبيهة بالسومرية من حيث جمعها بين الصور الفكرية والفونيم. والهيروغليفات الميزو- اميركية و«الحساب الطويل». ليسا اختراعين ماياويين. ولكن لما اخذ بهما المايا في جهة بيتين. طوروهما وزادوهما تأنقا.

هذا التطور الجدير بالعناية للمدنية الميزو- اميركية الذي تم في المنخفضات الماياوية. كان يماثله تطور معاصر يقوم على هضبة المكسيك. تيوتيهواكان. الواقعة في واد جانبي يطل على حوض البحيرات. لم تكن مجرد مركز طقسي، ولو ان هرمي الشمس والقمر هناك. هما اضخم الآثار الميزو- اميركية باستثناء جبل شولولا الذي هو من صنع البشر. ان تيو تيهواكان هذه. كانت مدينة حقا. كما كانت سان لورنزو قبل ذلك بنحو الف سنة. وقد خططت تيو تيهواكان على شكل مستطيل متقاطع؛ وكانت كثيفة السكان. وكانت مواردها تأتي جزئيا من استغلال مكثف لمنطقة ريفية قريبة. والجزء الآخر كان يأتي من صنع ادوات لبيعها الى شعوب الاراضي المنخفضة على الساحل الاطلسي.

إن المرحلة «الكلاسيكية» للمدنية الميزو- اميركية بدأت. في كل من تيو تيهواكان وفي المنخفضات. حول سنة ٣٠٠م. والمرحلة «المزدهرة» للمدنية الاندية تقع ايضا في

حدود الفصل الحاضر، إذ اننا قبلنا مؤقتا التأريخ الذي اعطي له–من حول ٣٠٠ق.م. الى ٥٠٠م–والذي تشير اليه الفحوص الاشعاعية الكربونية القليلة التي تمت الى يومنا هذا.

إن انتشار الاسلوب الشافيني لم يصل حدود العالم الاندي. فانه لم يصل لا الى القطاع الجنوبي الشرقي للساحل ولا الى المرتفعات الجنوبية الشرقية. وحتى في الاماكن التي بلغتها فان انتشارها عَقِبهَ درجة عالية من الاختلافات المحلية. وقد كان هذا نافعا من الناحية الحضارية. فالمدنية الاندية بلغت الذروة في هذه المرحلة اللاحقة بالشافينية. وكانت انجازاتها التقنية البارزة في الفخار والقماش. والجهتان المبرزتان في هذه المرحلة كانتا في المنخفضات الساحلية. وهما وادي موخي في الشمال الغربي وشبه جزيرة براكاس ووادي نَزْكا في الجنوب الشرقي. والفخار الموخي يمكن مقابلته بالفخار الاتيكي الذي يعود الى المرحلة «الكلاسيكية» من التاريخ الهليني. والاقمشة الصوفية التي صنعت في شبه جزيرة براكاس ووادي نزكا اجمل من أي نظير حديث. والاقمشة القطنية المصنوعة في تلك المنطقة بالكاد تفوقت عليها بنغلاداش ولانكشاير الحديثتان. وكانت صناعة المعادن معروفة في العالم الاندي في المرحلة الشافينية. واستمر العمل بها في المرحلتين «الاختبارية» «والمزدهرة» إلا ان العمل كان لا يزال محصوراً في الذهب. والمنتوجات كانت حليا. لا ادوات ولا اسلحة. وكان الذهب يعالج بالضرب. لا بالصهر. ولم تكن الفضة ولا النحاس قد عرفا بعد. وعلى كل فقد كانت المدنية الاندية متقدمة على المدنية الميزو–اميركية. ولم يُخترع التعدين اختراعا مستقلا قط في ميزو–اميركة. ولم يُعرف هناك قبل العصر اللاحق (للعصر) الكلاسيكي. وحتى في ذلك الوقت كان ناتجا عن باعث–انتشاري من الاكوادور والبيرو.

٤٠ - الجناح الغربي لاويكومين العالم القديم ٢٢٠ - ٣٩٥م

عالجنا باقتضاب، في الفصل السابع والثلاثين، الامبراطوريات الاربع التي نشرت لواءها فوق أويكومين العالم القديم باجمعه بين سنتي ٤٨ و٢٢٠م. وخصصنا الفصل الثامن والثلاثين بالمنافسة التي قامت، فيما بين حول ٣٣٤ق.م. و٢٢٠م، بين الاديان المحلية للاستيلاء على القلوب والعقول في المنطقة الواسعة التي دخلتها المشاريع التبشيرية الدينية، والتي كان دخولها بسبب التكتل السياسي للمنطقة فيما لم يزد عن اربع دول عملاقة. وقد كانت النتيجة ظهور ثلاث ديانات جديدة: الهندوكية والبوذية الماهانية (وهي المغايرة للبوذية التِرافَادِينيَّة) والمسيحية على ما فسرها القديس بولس. وهذه الديانات الثلاث كانت تشبه الواحدة منها الاخرى في انها تعبدية. فالهندوكيون كانوا يؤمنون بالاهين شيفا وفشنو؛ والبوذيون الماهايانيون كانوا مؤمنين بالبوديساتفات الذين لم يكونوا آلهة رسميا، بل مرشحين لان يكونوا بوذات. وكان المسيحيون يؤمنون بالله وبيسوع (وهو، بالنسبة الى المسيحيين الهي الطبيعة) وبأم يسوع، التي كانت قد اصبحت آلهة تقريبا لما اطلق عليها اسم والدة الآله (ثيوتوكوس). كانت سبل العبادة تختلف؛ لكن الروح كانت واحدة.

إن نشوء هذه الديانات التعبدية وتأليه البوديساتفات ويسوع ومريم، كانت اعراضا تدل على الحاجة الى العون المستمد من كائن بشري علوي (سوبرمان). وقد كان ثمة شعور بهذه الحاجة سببه ان الناس قد وَعَوا حالهم وهو أنهم لم يكونوا سادة للوضع الذي كانوا يجدون انفسهم فيه. لقد عُرِفَت من قبل أزمان وأمكنة كان الناس وحكامهم يشعرون فيها انهم يمكنهم ان يضعوا ثقتهم في الآلهة المتجسدة الحية - مثلا في الفراعنة الذين حكموا في زمن الاسر الأربع الأولى، وفي الاسكندر وقلة من الأجيال الاولى من خلفائه، وفي يوليوس قيصر وفي اغسطوس وخلفاء اغسطوس الى سنة ٢٧٤م. وفي تلك السنة قام إله متجسّد حي، وهو الامبراطور اورليانوس، بتغيير وضعه ذاته، الأمر الذي كان يعني أنه

هو ورعاياه اعترفوا بان إلها من هذا النوع لم يعد كفؤاً للقيام بالعبء. في هذه السنة، التي كانت السنة الاربعين من زمن ازمة الامبراطورية الرومانية، استعاض عن نفسه بـ «الشمس التي لا تغلب» على انها آله الامبراطورية وقضى ما تبقى من ايامه في الحكم على انه الممثل الاعلى على الإرض للآله، لا على أنه إله بذاته.

في المرحلة التالية لتاريخ أويكومين العالم القديم، اي منذ حول ٢٢٠–٣٩٥م. اصاب الامبراطوريات الاربع تقلبات مختلفة. اشرنا من قبل (في الفصل السابع والثلاثين) الى ان الامبراطورية الفرثية الارسازية في ايران والعراق قُهِرَت سنة ٢٢٤م وتغلّبت عليها الاسرة الساسانية الفارسية، وان الامبراطورية الكوشانية تغلبت عليها الامبراطورية الساسانية وضمتها الى املاكها (ولو ان بقية من الامبراطورية الكوشانية عادت الى الظهور من الامبراطورية الساسانية وعاشت بعدها). اما الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية فقد تجزأت كل منهما وعمت كلا منهما الفوضى بعض الوقت–الامبراطورية الصينية لمدة ٣٧٠ سنة (٢٢٠–٥٨٩م). والامبراطورية الرومانية لخمسين سنة (٢٣٥–٢٨٤م). وهكذا في العقود الوسطى من القرن الثالث كانت الامبراطورية الايرانية افضل حالا من الجميع. لقد تغلبت على تبديل الاسرة الحاكمة، ثم انها توسعت شرقاً، وامبراطور الساساني الثاني، شاهبور الأول، تغلب ثلاث مرات على الرومان، وفي المرة الثالثة (سنة ٢٦٠ م) اسر جيشاً رومانيا برمته، بما في ذلك الامبراطور فَليريان. إلا ان شاهبور غُلِبَ في حملة مضادة قام بها، نيابة عن الامبراطورية الرومانية، على أُذَيْنَة أمير تدمر، وهي الدولة التجارية شبه المستقلة القائمة في واحة تقع في الصحراء بين سورية وبلاد الرافدين.

كان زمن ازدهار تدمر اقتصاديا بين سنتي ١١٧ و٢٢٤م، اي بعد ما عجز تراجان عن ضم العراق الى الامبراطورية الرومانية، وقبل ان ينتزع الساسانيون العراق وايران من الدولة الارسازية. وبعد انتصار أُذَيْنة على شاهبور حاول، هو أولا ثم زوجته زنوبيا بعد وفاته، جعل تدمر دولة خليفة للامبراطورية الرومانية في المشرق. ولم تكن زنوبيا الاولى ولا الاخيرة بين ملكات الواحات العربية من صاحبات المطامح، لكن تدمر تغلب عليها اورليان سنة ٢٧٤م ودمرها. وكان ثمة مملكة أخرى متوسطة المساحة كانت اكثر نجاحا وهي ارمينية. فقد انقذت ارمينية نفسها من ان تضمّها الامبراطورية اليها وذلك بمساعدة تدمر أولا، وبمساعدة من رومة فيما بعد. وقد حافظت على استقلالها بين سنتي ٢٩٨ و٣٨٧م، وكان على رأسها فرع من الاسرة الارزاسية وهي التي كانت قد

قامت على الحكم، تحت النفوذ الروماني، منذ سنة ٦٦ م.

كانت اعادة الوحدة للامبراطورية الرومانية وتأهيلها من جديد عملا قام به سلسلة من الاباطرة- الجنود الذين جاءوا من منطقة اهلها محاربون، لكنها كانت متأخرة حضارياً، هي الولايات الألّيرية الواقعة بين الشاطىء الشمالي الشرقي للبحر الأدرياتيكي والضفة الجنوبية لنهر الدانوب. كان أورليان (حكم ٢٧٠-٢٧٥م) أحد هؤلاء. واعظمهم جميعا كان ديوقلتيان الذي حكم احدى وعشرين سنة (٢٨٤-٣٠٥م) وقسطنطين الأول الذي حكم احدى وثلاثين سنة (٣٠٦-٣٣٧م). وفي المدة الواقعة بين ٢٣٥ و٢٨٤م كانت مدد الحكم للاباطرة قصيرة، كما ان اكثر الاباطرة لقوا حتفهم قتلا. اما ديوقلتيان وقسطنطين فقد توفيا في الفراش. وقد اعادا، فيما بينهما، الحياة الى الامبراطورية الرومانية، وذلك عن طريق تبديل طبيعتها. وقد أتمّ قسطنطين ما بدأه ديوقلتيان، ثم انه قام بما عجز عنه ديوقلتيان من محاولة فرض ديانة واحدة على الامبراطورية، وذلك لما قلب سياسة ديوقلتيان وزميله الاصغر غاليريوس نحو الكنيسة المسيحية.

بين سنتي ٢٨٤ و٣٣٧م جند ديوقلتيان وقسطنطين جيشا ميدانيا متنقلا للدفاع عن الامبراطورية في العمق (وكان هذا الجيش يخدم ايضا قسطنطين في حروبه الاهلية ضد منافسيه). وقد اعادا للنقد اعتباره (النقد الذهبي الذي كان الجنود يقبضون رواتبهم منه، لا قطع النقد النحاسية الصغيرة التي يستعملها الفقراء). وقد أعادا مسح الأراضي وأعادا تقدير الضرائب على أساس المنتوج الزراعيّ. وجنّدا عدداً من المهن للقيام بخدمة إجبارية للمصلحة العامة. وأوجدا بيروقراطية منظمة من الموظّفين لملء الفراغ الأداريّ الذي نشأ عن تفتّت الحكومة المحليّة البلدية في المدن- الدول، وهي الخلايا التي كان يتكون منها الجسم السياسي الروماني. كما أنّهما نقلا موضع عاصمة الامبراطورية.

إن رومة، المدينة الدولة التي كانت قد بنت الامبراطورية، كانت تصلح عاصمة لشبه الجزيرة الأيطالية او لأمبراطورية تقوم حول البحر المتوسط اساسها القوة البحرية. لكنهالا تصلح، بحكم موقعها، للدفاع عن حدود تقوم على مجاري الفرات والدانوب والراين؛ كما انها كانت بعيدة عن المشرق، الذي كان مركز الثقل الاقتصادي للامبراطورية. وقد نقل ديوقلتيان العاصمة الى نيقوميديا (ازميت) على مقربة من الزاوية

الشمالية الغربية لآسية الصغرى. ونقلها قسطنطين بعده مسافة قصيرة غربا الى بزنطة، وهو موضع على رأس شبه جزيرة يسهل تحصينها، وله ميناء ممتاز على الطرف الجنوبي للشاطىء الاوروبي لمضيق البوسفور. وفي بزنطة (القسطنطينية وهي استانبول اليوم) يتقاطع الطريق المائي بين البحر المتوسط وطرف بحر آزوف، والطريق البري الذي يمتدّ من سِنغَديوم (بلغراد)، الواقعة عند ملتقى نهري سافا والدانوب، ودُلوخ (موطن جوبيتر دوليخينوس) الواقعة الى الغرب من المنعطف الغربي لنهر الفرات.

هبطت الأمبراطورية الرومانية الى الحضيض في العقود الوسطى من القرن الثالث للميلاد في حكم غالينوس ابن فاليريان (٢٦٠–٢٦٨م). والامبراطورية الساسانية الفارسية بلغت الذروة الموقتة في حكم شابور الاول (٢٤٢–٢٧٣م). وقد كان اعظم رجلين في الجناح الغربي لاويكومين العالم القديم في هذا العصر المضطرب افلوطين، الفيلسوف المصري أب الافلاطونية المستحدثة (٢٠٥ – ٢٧٠) وهو تابع لغالينوس، وماني (حول ٢١٦ – ٢٧٦ او ٢٧٧) وتابع شابور الاول، وهو ايراني، عراقي المولد، ومؤسس لديانة تبشيرية جديدة (التي عرفت فيما بعد باسم المانوية).

كان كل من هذين الحكيمين قد غامر بالانضمام، كمواطن عادي، الى الجيش رغبة منه في الحصول على الحكمة من بلاد غريبة. واذا كان كلاهما قد وجدا الفرصة السانحة في الحرب الرومانية– الفارسية، فمعنى هذا ان الحرب كانت تلك التي دارت رحاها في ٢٤٣ – ٢٤٤م. وهذا يعني ايضا انهما تواجدا، دون ان يعرف الواحد منهما الآخر، على الجهتين المتقابلتين من الارض التي تفصل بين الفريقين المتحاربين. وقد اجهد كل منهما نفسه بالبحث عن المشكلة الدائمة التي اتعبت زرواستر وافلاطون من قبل: ما هي العلاقة بين هذا العالم البعيد عن الكمال الذي تجد البشرية نفسها تحيا فيه وبين الحقيقة الأبديّة التي تبدو في لمظاهر وخلفها وفيما وراءها؟ وهل الحقيقة الأبدية خيّرة، وان كانت كذلك، فما هو أصل الشّر الذي هو واقع مأسوي في التجربة البشريّة وفي العمل البشريّ كذلك؟

لقد كانت المسيحية جزءا من خلفية كل من الرجلين. كان افلوطين هلّينستيّا، ولكن معلمه، امونيوس، كان مسيحيا من قبل. وكان والد ماني قد اعتنق مذهبا يسمي اتباعُه انفسهم «المعمدانيين»، وذلك لما كان في العراق. إلا ان الاسرة كانت قد هاجرت الى العراق من همَدان في مادي (الايرانية) حيث كانت النحلةُ المجوسيّةُ من الزرواسترية

هي الديانةُ الاقليميّة الرئيسة. وكان ماني نفسه يدّعي بانه خليفة زرواسترا وبوذا ويسوع. كان افلوطين من اتباع فلسفة افلاطون إلا انه رفض مذهب اللاأدريين (الفنوسيّة) لكن تلميذه امبليخوس، وهو مؤسس الافلاطونية المستحدثة خصم المسيحية. انغمس في هذا المذهب على نحو ما كان عليه ماني، الذي كان يجمع بين اللاادرية (الفوسيّة) وازدواجية. كانت تختلف عن الازدواجية الزرواسترية في انها كانت ازدواجية مطلقة. فالمعتقد الزرواستري يرى أنّ الحرب الحاليّة بين النور والظلام (بين الخير والشرّ) هي موقتة. وستنتهي بانتصار إله الخير أهورا مُزدا نهائيا على خصمه الشرير أنْغراماينوش. اما بحسب رأي ماني فان النور، الذي اختلط جزئيا بالظلام، سيتخلص كليا من الظلام. إلا ان الاصلين المتضادين، النور والظلام، كلاهما ابديان، وهما النور والظلام بالمعنى اللفظي لكلمة طبيعي. اما بالنسبة لافلوطين، وكذلك الامر بالنسبة لزرواسترا، فان النور والظلام صورتان عقليتان، تمثّلان، على التوالي، الخير والشر. وعند افلوطين أنَّ الشرّ، بالمقارنة بالخير، لم يكن قوة روحيّة إيجابية؛ انه كان شيئا سلبيا: هو غياب الخير، لا «ضد الخير».

وأهم حدثين ضخمين تمّا في اويكومين العالم القديم بين حول ٢٢٠ و٣٩٥م. كانا على المستوى الديني، لا السياسي. كان احد الحدثين تغلب كارتير على ماني، وكارتير كان كاهنا داعية زرواستريا عنيفا، وهو الذي نجح في جعل الزرواستريّة المجوسيّة الديانة الرسمية للأمبراطورية الساسانيّة الفارسيّة. وكان الحدث الآخر البعيد الأثر هو انتصار المسيحية على جميع الديانات السابقة لها زمنيا (باستثناء عبادة النجوم) أولا في ارمينية حول ٢٨٥-٢٩٠م ثم في الامبراطورية الرومانية بين ٣١٢ و٣٩٥م.

وتاريخ الاسرة الساسانية يشبه تاريخ الاشمونيين. فقبل ان يصبحوا امراء، كانوا كهنة. كان الساسانيون كهنة وراثيين لهيكل يخص الآلهة أناهيتا في اصطخر، وهي مدينة في فارس. واصطخر هذه كانت قد حلّت، كمركز طقسيّ دينيّ، محل برسيبوليس التي كانت تشغل المكانة نفسها في زمن الامبراطورية الفارسيّة الاولى. وأناهيتا، إلهة الماء الايرانية من قبل ان توجد الزرواسترية، كانت قد جُمِعَت الى اهورا مَزْدا في النحلة المجوسيّة للزرواستريّة. ومن ثم فقد كان على الساسانيين ان يلتزموا جانب الزرواسترية اكثر من اي حكام ايرانيين سابقين، باستثناء حامي زواسترا بالذات وهو هستاسبس (وهذا ليس ابا دارا الاول، بل كان ملكا بالاسم ذاته، كان يعيش قبل ذلك بنحو جيلين.

وكانت مملكته على الراجح في منطقة ما وراء النهر أي في حوض سيحون-جيحون).

كان الحكام الأخمينيّون، اباطرة الامبراطورية الفارسية الاولى، قد اعلنوا ولاءهم التام لأهورا مزدا، الذي كان، بالنسبة الى زرواسترا الأله الحقيقي الوحيد، إلا ان هؤلاء الحكام امتنعوا عن الاعتراف بانهم الديانة التي انشأها زرواسترا. وكان الارزاسيون مجوسا زرواستريين معتقدا؛ إلاّ أنّهم، مثل الأخمينيّين ومثل خلفاء الأخمينيّين من الأغارقة المقدونيين، كانوا متسامحين مع جميع الديانات التي كان لها أتباع بين رعاياهم. فقد وقف شابور الاول مذابح-للنار لتنتفع بها نفوس الأشخاص البارزين في حاشيته، إلاّ أنّه لم يحاول أن يفرض ديانة أسرته التقليدية على غير الزرواستريّين. وعلى العكس من ذلك، فان شابور سمح لماني ان يبشر بديانته الجديدة في سلطنة شابور.

كان ماني في الهند- لعل ذلك كان سنة ٢٤١م، وهي السنة التي انتزع فيها شابور، حوض السند من الكوشانيين. لقد اشرنا من قبل الى ان ماني رافق، فيما بعد، جيشا فارسيا كان يهاجم الامبراطورية الرومانية. وهذه الحملات اتاحت لماني الفرصة لان يتعرف مباشرة على كل من البوذية والمسيحية. وقد أعلن عن نفسه أنّه هو خليفة زرواسترا وبوذا ويسوع، «خاتم الانبياء»، الذي تلقى وَحْياً تاما ونهائيا، وانه «رسول إلهِ الحقّ في بابل»، وأنه هو نفسه كان تجسّدا للروح القدس؛ وأنه كان ينوي لا جذب سكان الأمبراطوريّة الساسانيّة الفارسيّة فحسب الى دينه، بل الجنس البشريّ كلّه. وقد اكتسب ماني إيذن اتباعه بشخصه، وكان عبقريا في قدرته التنظيمية، واثبت معتقده انه كان جذابا. كانت أرض بابل (العراق) قلب اويكومين العالم القديم، وكانت اللغة المحلية، السريانية، وهي الصيغة الجديدة للأرامية، منتشرةً في الهلالَ الخصيب. ومن ثمّ فقد كان العراق نقطة انطلاق رئيسة للعمل؛ ومن هناك ارسل ماني الدعاة لا الى الحدود الشمالية الشرقية والشمالية الغربية للامبراطورية الساسانية فحسب، بل الى مصر ايضا. وقد كان انتشار المانويّة أسرع من انتشار المسيحية في أثناء القرنين السابقين.

وعلى كل فان تصميم ماني في انشاء ديانة عالمية ترتكز الى العراق كان يتناقض مع رغبة كارتير، التي كانت ترمي الى جعل الزرواستريّة ديانة الامبراطوريّة الساسانيّة الرسمية، أو على الأقلّ الجزء الايرانيّ منها، والقضاء هناك على أيّة عبادة لأيّة ديانة أخرى. وقد بلغ كارتير، الكاهن الزرواستري، القمة في الرتبة في أيام شابور الاول (٢٧٧-٢٩٣م) الخليفة الثالث لبهرام الثاني. وعُيِّنَ كارتير يومها كاهن الهيكل الديني

التقليدي للساسانيين، لاناهيتا، في اصطخر، كما جُعِلَ كاهنا لمذبح-النار هناك. وكانت كلمة كارتير مسموعة لدى بهرام الأول (حكم ٢٧٤-٢٧٧ م.) الخليفة الثاني لشابور الأول. وبناء على إثارة من كارتير، القى بهرام الأول القبض على ماني وألقى به في السجن؛ وتوفي ماني شهيداً. وقد كان نجاح المانوية في مصر مدعاة لصدور مرسوم ضد المانوية على يد الامبراطور الرومانيّ ديوقلتيان سنة ٢٩٧ م، وذلك قبل إعلان ديوقلتيان الحرب على المسيحية بست سنوات. وقد اعتبر ديوقلتيان أتباع المانويةّ بانهم «طابور خامس» فارسي، متجاهلا الواقع وهو ان الحكومة الفارسية كانت قد قضت على ماني بالموت، وأنها، في سنة ٢٩٧ م، كان قد مر عليها عشرون سنة وهي تضطهد المانويين من رعاياها. وقد كان للاضّطهاد الأثر ذاته بالنسبة للمانوية وللمسيحية. انه بدلا من تثبيط الهمة عند اي منهما، ادى الى إثارة الهمة فيهما.

لقد حاول اربعة من اباطرة الرومان-ديسيوس في سنة ٢٥٠ م وفاليريان في ٢٥٧-٢٦٠ م وديوقلتيان وغاليريوس في ٣٠٣-٣١١ م - ان يقضوا على المسيحية. وقد كانت المحاولة اعترافا ضمنيا بأن البديل الوحيد لذلك هو ان تقع الأمبراطوريّة في قبضة الكنيسة المسيحية. وقد كان غاليريوس بالذات، وليس ديوقلتيان، المحرك لذلك في الاضطهاد الكبير في ٣٠٣-٣١١ م. كان ديوقلتيان مترددا؛ ومع ذلك فقد انتقص حتى هو نفسه من قوةالكنيسة المسيحية. وقد كان كلا هذين الامبراطورين من الجنود الألّيريين؛ وفي الّيريا، وبين الجنود الذين كانوا من أصل إلّيري، لم تكن المسيحية قد تعدت الأفق ارتفاعا. فقد كانت آلهة الجنود الألّيريين الشمس التي لا تغلب (جاءت من اورليان) وجوبتر دوليخينوس ومثرا والمجّمع (البانثيون) الرومانيّ الأصليّ.

وقد كان خصوم المسيحيين في المشرق أقدر على تفهم قوة الكنيسة المسيحية، حيث كان المسيحيون أكثر عددا منهم في أي رقعة أخرى (ولو انهم، حتى هناك، كانوا لا يزالون أقليّة). وقد حاول امبليخوس، تلميذ أفلوطين، ان ينظم «كنيسة-مضادّة» اساسها صيغة اغنوسية (لاادرية) من الافلاطونية المستحدثة، بحيث تضم جميع الآلهة والالهات غير المسيحية، من حوض البحر المتوسط، تحت زعامة «الشمس التي لا تغلب» وذلك ضد المجمّع المسيحي. هذا النظير المتوسطي (بحرا) للكنيسة الطاوية في الصين كان برعاية امبراطورين هما مكسيموس دايا (حكم ٣١٠-٣١٣ م) وابن اخي قسطنطين يوليان (حكم ٣٦١-٣٦٣ م) وهذا كان مسيحيا وارتد. إلا أنّ الحركة كان مقدراً لها الفشل.

فالكنيسة المسيحية كانت قد سبقت «الكنيسة – المضادة» الافلاطونية (المستحدثة) في انها تمثلت الآلهة المتوسطية (بحرا). كان يسوع قد أصبح من قبل ارفيوس وسرابيس و«الشمس التي لا تُقْهَر»؛ وكانت مريم قد أصبحت إيزيس «والدة الآله». اما بالنسبة إلى الفلسفة الأفلاطونيّة المستحدثة، فان استخدام امبليخوس الفاشلة لجدليتها، كان يمكن أنْ يَمجّها أفلوطين أكثر من مَجّه لدمجها التدريجي في لاهوت الكنيسة المسيحية.

في سنة ٣١١م، اذ كان غاليريوس على فراش الموت الغي، ولو بتردد، المراسيم التي صدرت عنه وعن ديوقلتيان ضد المسيحية، ومنح جميع سكان الأمبراطوريّة الرومانيّة، المسيحيين وغير المسيحيين على السواء، حريّة العبادة، وفي سنة ٣١٢م اعتنق قسطنطين الاول المسيحية. وقد جاء اعتناقه لها مفاجأة ومستغربا – ولعله كان كذلك حتى لقسطنطين نفسه؛ ذلك بانه في سنة ٣٠٦م ورث قسطنطين عن ابيه الامبراطور قسطنطينوس الأول لا حكم اقليمي بريطانية والغال فحسب، بل بالاضافة اعتقادا راسخا «بالشمس التي لا تقهر». وفي سنة ٣١٢م كان قسطنطين يهاجم ايطالية، التي كانت يومها، مع شمال غرب افريقية، تحت سلطة مكسينتيوس صهر قسطنطين. وقبيل المعركة التي وقعت في ضواحي رومة الشمالية الغربية، والتي غُلِبَ فيها مَكْسِينتيوس وقتل، حلم قسطنطين انه رأى الحرفين الاولين من اسم خريستوس باليونانية (يعني K H) واربع كلمات براقة باللاتينية معناها: «بهذه العلامة تنتصر». وقد امر يسوع قسطنطين كما حلم هذا، ان يضع الحرفين على قبعته وان يرسمها على تروس جنده. وقد صنع قسطنطين ما طلب منه ان يقوم به في الحلم، وبعد ذلك كسب المعركة الفاصلة في الحرب الاولى من حروب اهلية ثلاث، وقد كان هو الرابح في كلّ واحدة منها.

واعتناق قسطنطين للمسيحية كان واضحا وصادقا، لكن الرجل لم يتخلّ عن إعتقاده باله اورليان وقسطنطينوس الاول اي «الشمس التي لا تقهر»، ولو انه، مع الوقت، اعتبر «الشمس» هو المسيح – وهو الامر الذي كانت الكنيسة المسيحية قد قبلت به ضمنا. ولم يتخل قسطنطين عن منصب الكاهن الاعلى، وهي كهانة غير مسيحية كان قسطنطين يتولاها حكما لانه رئيس الدولة الرومانية. ومن الناحية الفنية الدقيقة كان تولي الكهانة العليا يتعارض مع كون المرء مسيحيا، لكن أتباع قسطنطين في السلطات الكهنوتية المسيحيّة لم يُثيروا هذه القضية، وقسطنطين نفسه لم يصبح رسميّا عضوا في الكنيسة

المسيحية إلاّ حين عُـمِّد وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧ م. يضاف الى ذلك أن قسطنطين كان يجهل اسس المعتقد المسيحيّ - وهذا لم يكن فقط عند اعتناقه المسيحية سنة ٣١٢ م، بل استمر الأمر فيا تبقى من حياته. ومداخلات قسطنطين في المسائل الكهنوتية المسيحية اظهرت قطعا انه لم يكن يحسن السباحة في هذه المياه، هذا مع العلم أنه في الشؤون المدنيّة كان سياسيّا محنكا.

لقد اتهم قسطنطين احيانا بانه كان شكاكا وساخرا ومدعيا، وان الباعث على اعتناقه المسيحية كان اساسه النظرة السياسيّة العمليّة. ومثل هذا التفسير لاعتناقه المسيحية هو مخالف للواقع؛ اذ لم يكن ثمة مشككون دينيّون في عالم البحر المتوسط بعد ما تَـفَـتَّتَ مجتمعُه في سنة ٢٣٥ م. ولم يكن ثمة شخص في الامبراطورية الرومانية يعتقد بانه يستطيع البقاء دون عون إلهي في ذلك العصر الرهيب.. وقد كان قسطنطين مخلصا دينيا كما كان عميق الايمان، وفي ذلك يمثّل عصره ومكانَه تمثيلا نموذجيّا. ومثل ذلك كان أفلوطين وماني وامبليخوس وديوقلتيان وغاليريوس ومسكيمينوس دايا ويوليان - جميعهم كانوا مخلصين دينيّا وعميقي الايمان، كل بطريقته الخاصة. وتديّن قسطنطين لم يكن أقلّ أصالة من تديّن أفلوطين، إلا أن الأول كان يختلف عن الثاني في انه كان عنيفا. فإله المسيحيين كسبَ قسطنطين وملك ولاءه لأنه أظهرَ قوة الأمبراطور. وهذا الاله بالذات انزل المصائب بالأباطرة الذين اضطهدوا الكنيسة المسيحيّة. والقَـدَرُ الذي اصاب كلا من غاليريوس ومكسيمينوس دايا وليسينيوس يحكي القضية واضحة. وهذا الاله نفسه هو الذي منح قسطنطين نصرا حربيا في حروب اهلية ثلاث. في مدة اثنتي عشرة سنة (٣١٢-٣٢٤ م) حمل إلهُ المسيحيين قسطنطينَ من نهر التيبر (قرب رومه) الى مضيق البوسفور وجعله الحاكمَ الوحيدَ للأمبراطوريّة الرومانية بأجمعها، مع أن قسطنطين كان قد بدأ في يورك (انكلترا) سنة ٣٠٦م فقط كحاكم للولايات البعيدة والمتأخّرة الواقعة ما وراء جبال الالب والبرانيس.

أقر قسطنطين بالفضل العظيم الذي أغدقه عليه إله المسيحيّين اذ كافأه على ولائه بأن صاغ قدره على هذا النحو، لكن هذا المظهر الذي بيّن قوة الله العظيمة ملأ نفس قسطنطين رعبا، كما ملأها عرفانا بالمنّة. وقد خشي ان يحل به ما حلّ بغاليريوس ومكسيمينوس دايا وليسينيوس اذا لم يتمم واجباته نحو حارسه الالهي - وعلى سبيل المثال اذا فشل في رتق الفتق في الانشقاقات الدينية القائمة في الجسم الكهنوتي المسيحي يومها.

وقد كان الباعث على اضطهاد المسيحيين على أيدي بعض الأباطرة هو الخوف المماثل عند هؤلاء الأباطرة من ان ينالَهم سخطُ الآلهةِ غير المسيحيّة.

لقد كان الباعث لقسطنطين على اعتناق المسيحية أقل قيمة من الباعث لأشوكا على اعتناق البوذيّة. كان الباعث عند اشوكا هو التكفير عن ذنب اقترفه، وهو شن حرب اعتداء، ولم يعد الى حمل السلاح بعدها. والباعث لقسطنطين كان الاعتراف بالمنّة على الانتصارات في الحروب الاهلية الثلاث.

اتبع قسطنطين مرسوم غاليريوس بالتسامح مع المسيحيين بان ضغط على مسكيميوس دايا ليتوقف عن اضطهاد المسيحية في المشرق، ثم باقناع ليسينيوس بالانضمام الى قسطنطين في التأكيد على التسامح مع المسيحيّة في مناطق حكمها. إن قسطنطين لم يضطهد قط رعاياه غير المسيحيّين، إلا انه منح الكنيسة المسيحيّة امتيازات ذات قيمة خاصة، وابن اخيه يوليان (الذي كان مسيحيا ثم ارتد) كان يظهر مثل هذا المَنْح نحو الكنيسة-المضادة (المؤسسة على الأفلاطونية المستحدثة). إن التسامح المتردد الذي أظهره الاباطرة الرومان (بعد ٣١١م) نحو الديانات التي تختلف عن ديانتهم، يبدو ضعيفا اذا قورن بالتسامح الكريم الذي ابداه اشوكا نحو رعاياه من غير البوذيّين وجيرانهم، وكذلك اذا قورن بالمعاملة السويّة التي عامل بها كانيشكا الهندوكيين البراهمنيين والبوذيين، على اختلاف مذاهبهم.

والتسامح المتقلب الذي بُدِىء في سنة ٣١١م، لم يطل عهده. فقد رفض الامبراطور غراتيان (حكم ٣٦٧-٣٨٣م) ان يتولى منصب الكاهن الأعلى، وبدأ بتصفية الديانات غير المسيحيّة في الأمبراطوريّة الرومانية، وذلك باغلاق هياكلها والاستيلاء على وارداتها. وقد تمت التصفية تقريبا على يد ثيودوسيوس الأول (حكم في الشرق ٣٧٩-٣٩٥، وفي الغرب ٣٩٢-٣٩٥م).

وفي الوقت نفسه استمرت الامبراطوريتان الرومانية والفارسيّة على التعايش جنبا الى جنب. فالحرب الطويلة التي قامت بين ٣٣٧ و٣٦٠م، لم تنته الى نتيجة حاسمة. وحملة يوليان على الامبراطورية الفارسية سنة ٣٦٢م انتهت بمقتله وبكارثة حلت بالرومان سنة ٣٦٣م. وقد تمكن جوفيان، خليفة يوليان، من تخليص جيشه من مصيبة، وذلك بتسليمه نصيبين، وهو حصن روماني مهم في الجزيرة الفراتية (بين النهرين)، واعادة خمس ولايات ارمنية كانت الامبراطورية الرومانية قد ضمّتها اليها سنة ٢٩٨م. وقد

وضعت هذه التنازلات مملكة أرمينية تحت رحمة الفرس. وفي سنة ٣٧٨م لقي جيش روماني كسرة عظيمة، على ايدي الفيزيقوط في ادرينابولي، تشبه الانكسارات التاريخية في ألّيا وكانيّ وكارّي (حران). وكان على الرومان ان يوجّهوا ما تبقى لهم من قوة حربية للقتال في معركة خاسرة لانقاذ املاكهم في اوروبة، وكانوا يبتاعون السلام في الجبهة الاسيوية عن طريق تنازلات للامبراطورية الفارسية. فقد قسِّمت مملكة ارمينية (سنة ٣٨٧) بين الامبراطوريتين بالتراضي، وكان الخط الفاصل بين القسمين يجعل اربعة اخماس المملكة في الحصة الفارسيّة. وقد كان هذا بعض الثمن الذي دفعته الامبراطوريّة الرومانيّة في مقابل استمرارها في المشرق.

إن التقلبات التي تعرّضت لها العلاقات بين الامبراطوريتين تنعكس على ما اصاب الجماعة المسيحية في الامبراطورية الفارسيّة، وهي جماعة كانت نامية. إن الديانة الزرواسترية لم يعتنقها أحد في الامبراطوريّة الرومانيّة، ولم يقبل عليها أحد طوعا في ارمينية. فعلى عكس الديانتين المسيحية والمانوية لم تحاول الزرواسترية تحويل البشرية اليها. وقد ظل هدفها على ما كان عليه ايام كارتير، اي ان لا تكون الزرواسترية الديانة «الرسمية» للامبراطورية الفارسية بل الديانة الوحيدة للولايات الايرانيّة. ولكن حتى بالنسبة الى رعايا الأمبراطوريّة الأيرانيين كانت الزرواسترية المجوسيّة أقلَّ جذبا من أي من المانوية او المسيحيّة؛ ومن ثم فقد كان انتشار المسيحية في الأمبراطوريّة الفارسيّة يدعو كلا من الحكومة الساسانية الامبراطورية والسلطات الزرواسترية الكهنوتية الى الاستياء الشديد، وقد استمر هذا خلال المدة التي كانت فيها مواقف كل من الامبراطوريتين عدائية نحوالأخرى. اذ أن انتشار المسيحية لم يكن إساءة للديانة الزرواسترية ذات الخط الفكري الواحد؛ بل ان انتشار المسيحية باستمرار، بعدما اصبحت الكنيسة المسيحية (سنة ٣١٢م وما بعدها) الديانة «الرسمية» للامبراطوريّة الرومانية، جعل المسيحيين من رعايا الأمبراطوريّة موضع شبهة واتّهموا بأنهم «طابور خامس» على نحو ما أتُّهم به اتباع المانويّة في مصر أيام ديوقلتيان بانهم «طابور خامس» في الأمبراطوريّة الرومانية، وحتى هذا الموقف كان أقل صوابا من ذاك. ففي الامبراطوريّة الساسانية كان المسيحيّون، ولو أنهم كانوا يزدادون عدداً، في تشرد، اما في نصيبين وفي الولايات الأرمنيّة الحدوديّة الخمس التي تنازل عنها جوفيان إلى شابور الاول (٣٦٣م) فقد كان السكان باجمعهم مسيحيين.

ولهذا السبب أخذ شابور الثاني (حكم ٣٠٩-٣٧٩م) باضطهاد رعاياه المسيحيّين

في ٣٤٠/٣٣٩ واستمر في اضطهادهم حتى وفاته. لكن خليفته الثاني، شابور الثالث (حكم ٣٨٣–٣٨٨م) تصادق و الأمبراطور الرومانيّ ثيودوسيوس الأوّل، وهذا الوفاق في العلاقات بين الدولتين، أدّى، لا إلى تقسيم مملكة ارمينية بالتراضي فحسب، ولكن الى التسامح مع المسيحيين في الأمبراطوريّة الفارسيّة، نتيجة المفاوضات الرومانية–الفارسية. وقد أُوْقِفَ اضطهاد المسيحيين في الأمبراطوريّة الفارسيّة؛ ووُحِّدَت إدارة الكنيسة المسيحيّة الفارسيّة؛ وبعدما عُقِدَ المجمع الكنسي الفارسي في سلوقية–على– الدجلة (سنة ٤١٠)، ثَبَّتَ الامبراطور يَزْدَجِرْد الاول (حكم ٣٩٩–٤٢٠م) المرسوم القاضي بالتسامح مع المسيحيين والذي كان قد اصدره قبلا.

٤١-المدنية الهندية من حوالى ٢٢٤ الى ٤٩٠م

كان القضاء على امبراطورية كوشان في سنة ٢٤١م في عهد الامبراطور الساساني الفارسي اردشير الأول (حكم ٢٢٤-٢٤٢م) قد سبقه انقسام مملكة ساتافاهانا (اندرا) في الدكن. وقد ترتب على حدوث هذين الانهيارين السياسيّين ان وجد في شبه القارة الهندية فراغ سياسي استمر ما يزيد عن القرن. منذ ان ضُمَّت الدكن الى امبراطورية مغدا في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت الدكن قد مر عليها نحو من ستمئة سنة وهي وحدة سياسية، وذلك باتحادها مع شمال الهند أولا، ثم كوحدة سياسية مستقلة بعد ما أنحلّت امبراطورية مغدا بعد وفاة أشوكا سنة ٢٣٢ ق. م. وكانت اكثر المناطق استقرارا، في أثناء هذا الفراغ السياسي الواسع الانتشار، الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة. فالممالك الصغيرة التي كانت هناك، والتي امتنع أشوكا من احتلالها، كانت لا تزال قائمة. ومثل ذلك يقال عن واحدة على الاقل من ولايتي ساكا، الواقعتين في غرب الهند، واللتيّن قامتا، في القرن الأول للميلاد، تحت سلطان اباطرة كوشان. والولاية الجنوبية من ولايتي ساكا هاتين، كانت قد استولت على ماهَرَشترا، ولعلها أخْضِعَت في الحروب التي قامت بينها وبين الساتاهافانيّين، التي كانت قد اعتدت على املاكهم. والولاية الأبعد إلى الشمال، التي كانت قد استولت على مَلْوا، حول الأزين، استمر وجودها بعد امبراطورية كوشان. ومن ثَمَّ فقد اصبحت دولة مستقلة في الواقع.

وقد كان ثمة استمرار اعمق جذورا على مستويات النشاط غير السياسي. فالاسلوب القندهاري في الفنون المنظورة استمر بحيث اثر في التطور الفني التعبيري المنظور للبوذية الماهايانية في شمال غرب الهند، وماتورة، الواقعة في الحوض الاعلى لنهر جُمْنا، والتي كانت قبل ذلك بمدّة قصيرة جزءا من أملاك كوشان، استمرت في احتضانها لمدرسة فنية حيث كان الفن الهندي الاصلي قد تأثر بالفن اليوناني دون ان يقع تحت نفوذه. وقد شهدت القرون الميلادية الثلاثة الأولى، على المستويين اللغويّ والأدبيّ، اختفاء اللهجات (البراكرتيات) الحية، التي كانت قد انبثقت عن السنسكريتية الاولى، كي تفسح المجال

للسنسكريتية الجديدة التي أصبحت اللغة المستعملة في النقوش. والقرون الثلاثة ذاتها شهدت ظهور ادب باللغة التاميلية، في الهند الجنوبية.

فالنقوش التي خلفها أشوكا كانت جميعها بالبركْريت، باستثناء تلك التي نقشت في البلاد التي كانت جزءا من الدولة الاخمينية (الفارسية الاولى) والتي كان سلوقس الأول (من حوالى ٣٥٦-٢٨١ ق.م.) قد تخلّى عنها الى شاندراغوبتا. وليس ثمة من ريب في ان الادارة في امبراطورية مَوْريا كانت تستعمل فيها اللغة الحية. ولغة بالي التي استعملت في نقوش البوذيين الترافادين، كانت احدى البركْريتات التي ظهرت في العصر المَوْريَاني. واللغة السنسكريتيّة الأولى، التي كانت لغة التعامل للسكان الهنود الأوروبيّين الأصليّين الذين هاجموا شبه القارة الهندية، كانت قد انحسر استعمالها كلغة تخاطب، باستثناء استعمالها في طقوس البراهمين الدينية؛ كما انه لم تعد لغة مقروءة، إلا بالنسبة الى الفيدات والاوبانيشدات التي كانت، من قبل ان تدون، تنقل رواية من جيل إلى جيل، والساسانية الجديدة كانت لغة مصطنعة، شأنها في ذلك شأن الاتيكية الجديدة (الاغريقية)، التي تم الاصطلاح عليها في التاريخ ذاته. وقد اخذ باللغة السنسكريتية الجديدة لتدوين الكتب الدينية للسايفية والفايشينة والبوذية الماهايانية، كما انها اصبحت كذلك لغة الملحمتين الهنديتين الرامايانا والمَهَبْهاراتا[1]، على النحو الذي استقرتا عليه. ويُعْتَقَد انه قد تمّ لها هذا الشكل بين حوالى سنتي ٢٠٠ ق.م. و٢٠٠ م، مع ان المقولة الاصلية للمَهَبْهاراتا تدل على ان هذه القصيدة قد بدأت تتخذ هذا الشكل. على أي حال، في زمن لا يتأخر عن القرون الاولى من الالف الاخير السابق للميلاد. والحيوية التي رافقت إحياء السنسكريتية يبدو واضحا في أثره في الادب التاميلي الناشيء. واللغات الحية، في الدكن، كانت، ولا تزال، اللغات الدرافيدية. ومع ذلك فان جميع نقوش أشوكا في الدكن هي بالبرَكْريتات، أي اللهجات المستمدة من السنسكريتية الاولى. إلا ان اللغة الهندية الاوروبية التي تركت بصمتها في الادب التاميلي لم تكن واحدة من البَركرتيات؛ لقد كانت السنسكريتية الجديدة.

وقد استمرت المدنية الهندية، في القرنين الثالث والرابع للميلاد، في توسيع مجال انتشارها متخطية حدود شبه القارة. ان انتشارها عبر البحار في اتجاه جنوبي شرقي، الى

---

(١) نقل هذه شعرا الى العربية المرحوم وديع البستاني وطبعت في بيروت.

جنوبي شرق اسية، كان قد بدأ في القرن الاول للميلاد. وقد ازداد زخم انتشارها في ذلك الاتجاه في القرن الرابع للميلاد. فاصبح جنوب شرق اسية القاري جزءا من المجال الحيوي للمدنية الهندية، باستثناء قسم من شمال فيتنام، الذي كانت المدنية الصينية قد ضمته اليها. وكانت التجارة والدين، لا الفتح، سبيل انتشار المدنية الهندية، ولم يكن موقف شعوب جنوب شرق اسية من المدنية الهندية موقف قبول مسالم. فقد خلقوا منها لونا جنوب- شرق اسيوي متميزا، ولو انه لم يكن لا-هنديا. وكان يعاصر ذلك انتشار البوذية في الصين من شمال غرب الهند برا، عبر حوض سيحون وجيحون وحوض تاريم. وهنا تغلبت الصيغة الماهايانيّة على الصيغة السَرْفَسْتيفاديّة من البوذيّة الترافاديّة، وكانت السنسكريتية الجديدة هي اللغة التي استعملت في النقوش الماهايانيّة، التي تُرْجِمت الى اللغة الصينية. واسلوب قندهار الفني اليوناني-الهندي، الذي كان الفن المنظور للماهايانية، احدث أثرا ثوريا في الفن الصيني المنظور، ومن ثمَّ في الفنين الكوري والياباني.

إن الجغرافية الطبيعية لشبه القارة الهندية فرض على الامبراطوريات الهندية ان تعتمد المناطق التي تكوّن الآن ولايتي بيهار وأتّار برادش في حوض الجمنا- الغانج، فهناك كانت نواة امبراطورية مَغْدا منذ زمن انشائها في القرن الخامس قبل الميلاد الى تقسّمها في القرن الثاني قبل الميلاد. ومن القرن الثاني قبل الميلاد حتى القضاء على امبراطورية كوشان، في القرن الثالث للميلاد، كان حوض السند، لا حوض الجمنا- الغانج. مركز الثقل السياسي لشمال الهند. وقد عادت الخريطة السياسية لشمال الهند فجأة الى الوضع الطبيعي. فقد عاد الوضع الى ما كان عليه في القرن الخامس قبل الميلاد ثانية، فتوحّدت جنوب بيهار وشمالها سياسيا- وهذه المرة لم يكن ذلك نتيجة فتح، بل بطريق المصاهرات الملكية- وللمرة الثانية كان لبيهار الموحدة من القوة ما مكّن لها من التوسع من موضع استراتيجي مؤات لذلك.

كان مؤسس اسرة غُبْتا يحمل اسم سلفه المَوْري (من القرن الرابع قبل الميلاد) تشانْدرا غُبْتا. وتشانْدرا غُبْتا الذي يعود الى القرن الرابع الميلادي اتخذ ما يعادل سنة ٣٢٠م بدءا للفترة التاريخية لاسرة غُبْتا، ولكن المؤسس الحقيقي لامبراطورية غُبْتا كان ابنه سامُدْرا غُبْتا (حكم من حوالى ٣٣٠ الى ٣٨٠م). لقد قام سامُدْرا غُبْتا بالاغارة على الدكن بطريقة مثيرة. لكن انجازه الثابت كان في توسيع املاك اسرة غُبْتا في حوض الجُمْنا- الغانج. وكانت الخطوة الحاسمة في بناء امبراطورية غُبْتا تلك التي قام بها

شانْدراغُبْتا الثاني (حكم ٣٨٠– ٤١٨م). ففي حوالى سنة ٣٩٥م احتل ولاية سكا التي كانت الأُزَيْن عاصمتها. ثم اندفع غربا الى الساحل، ومن ثم فتح لامبراطورية غُبْتا نافذة على بحر العرب.

ولم تتوسع امبراطورية غُبْتا، لا جنوبا ولا شمالا في غرب، الى الحد الذي بلغته امبراطورية مَوْريا. ففي الجنوب توقّفت امبراطورية غُبْتا عند سلسلة جبال فِنْديا او نهر ناربَدا؛ وفي الجهة الغربية كانت حدود البلاد التي وقعت تحت حكمها مباشرة نهر شـمبال والمجرى الاعلى لنهر جمنا. ولم يقع تحت سيطرتها سوى الجزء الجنوبي الشرقي من البنجاب. وليس ثمة اي شيء يشير الى وقوع اي اصطدام بين امبراطورية غُبْتا والساسانيين. ولعلّ بقية من امبراطورية كوشان عادت اليها الحياة لتصبح دولة وقاية بين الامبراطوريتين.

كان افراد اسرة غُبْتا انفسهم هندوكيين براهميين. لكنهم كانوا يتسامحون مع الديانات جمعاء على نحو ما كان عليه اباطرة مـوريا وكوشان. وقد بلغت المدنية الهندية، اثناء حكم غُبْتا في القرنين الرابع والخامس للميلاد. القمة في النحت والادب العلماني (باللغة السنسكريتية الجديدة) (وبخاصة في الدراما). وفي علم الفلك. وقد وصل الى امبراطورية غُبْتا بعض النور الذي كان العالم اليوناني– الروماني يشعه في عصر افوله. وكان ذلك عبر النافذة الغربية لامبراطورية غُبْتا (على بحر العرب) لكنه لم يعد ان يكون شعاعا، فالالق الذي عرفته المدنية الهندية في عصر غُبْتا كان أصليّا وأصيلا.

مُزِّقَت امبراطورية غُبْتا. وقضي على «العصر الذهبي» للمدنية الهندية على أيدي الرعاة الهون الرحل. الذين تدفقوا على الهند من السهوب الأوراسيّة. وقد انزل الهون الضربة الأولى بالهند سنة ٤٥٥م. وقد تلتها ضربات أخرى. ومع أنّ الهون صُـدُّوا. فانهم لم يُـخْرَجوا من البلاد.

٤٢-خروج الهون من السهوب الأوراسيّة في القرنين الرابع والخامس للميلاد

إن البدو الرعاة الذين يطلق عليهم الصينيون اسم «هزُونغ-نو» والذين يسميهم ضحاياهم الآخرون المستقرون أبعد الى الغرب منهم «الهون»، هم أوّلُ شعب، من سكان الطرف الشرقي من السهوب الاوراسية، مدوّنة أخبارُه. كانوا مستقرين هناك في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو الزمن الذي وصلت فيه دولة تشاو (وهي الابعد شمالا من الدول الصينية الثلاث التي كانت تتنافس فيا بينها -تشين وتشاو وين) الى الطرف الجنوبي للسهوب. ففي سنة ٣٠٧ق.م. جمع حاكم تشاو قوة من الفرسان على الاسلوب البدوي. وفي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الدول الصينية الحدودية الثلاث تقوم ببناء الاسوار على طول حدودها السهوبية، درءا للخطر البدوي.

إن اسلوب الحياة هو مدرسة يتدرب العاملون فيهـا لا على الغزو والنهب فحسب، بل على التنظيم والحكم. فلولا التخطيط والنظام لما تمكن الانسان وحيواناته الاليفة من العيش في السهوب. وإذن فلم يكن مما يدعو الى العجب انه لما نجح تشين شيه هوانغ-تي من توحيد الصين سياسيا في سنة ٢٢١ ق.م..، وتثبيت الأسوار الحدودية في خط دفاع واحد متصل، ان يرد الهزونغ-نو (وهم بدو السهوب الرعاة) على ذلك باقامة امبراطورية مقابلة لها في الجهة الاخرى من السور. وقد اتاحت الفوضى العنيفة التي عبرت بالصين في فترة قصيرة (٢٠٩- ٢٠٣ق.م.)، للهزونغ-نو الفرصة لمهاجمة الصين؛ وفي سنة ١٧٤ ق.م. توسعوا غربا ايضا؛ وبذلك احدثوا موجة من الهجرات بين جيرانهم البدو الغربيين هي التي انتهت بانتقال يوه-تشين الى حوض سيحون-جيحون وانتقال السكا الى الهند. في سنة ١٢٨ ق.م. قاد الامبراطور الصيني هان وو-تي حملة انتقامية ضد الهزونغ - نو كان الهدف منها القضاء على الهزونغ - نو او على الاقل اخضاعهم نهائيا. إلا ان حرب المئة سنة الصينية-الهونية (١٢٨-٣٦ق.م.) لم تكن حاسمة. وفي سنة ٥٢ ق.م. اعترف الجزء الاقرب من الهزونغ-نو بسلطان امبراطور الصين عليه. إلا أن هذا

النجاح الصيني كان سطحيا وموقتا ، وفي الوقت ذاته تخلصت بقية الهزونغ–نو من السيطرة الصينية نهائيا ، بالسير الى اماكن ابعد غربا ، بحيث اصبحوا أبعد من ان تصلهم الجيوش الصينية التي كانت تقيم حول سور الصين الكبير.

والى هذا الوقت لم يكن الهزونغ–نو قد اثروا في اي من الشعوب المستقرة بالاضافة الى الصينيين ، لكن في القرنين الرابع والخامس للميلاد لم يقتصروا على الهجوم على الصين للمرة الثانية ، بل انهم هاجموا حوض سيحون–جيحون والهند وايران واوروبة كذلك . وكان هذا هو التفجر الخامس لبدو السهوب الاوراسية ، لكن تفجر الهون هذا اختلف عن جميع ما سبقه لأنه انتشر الى جميع الجهات.

في سنة ٣٠٤م هاجم الهزونغ–نو الصين ؛ فنهبوا لويانغ في سنة ٣١١م. وتشنغ–تشاو العاصمة الاولى لاسرة الهان المنقرضة سنة ٣١٢م ، وقضوا (٣١٦م) على اسرة تشن الغربية ، التي كانت قد نجحت في اعادة الوحدة السياسية الى الصين. وهذه الحملة الثانية الناجحة لقبائل الهزونغ–نو ضد الصين افسحت المجال لحشود من المهاجمين البرابرة ، بعضهم من الهزونغ–نو بالذات والبعض الآخر من التبتيين أو التونغوس او المغول . وقد تقسمت دول بربرية كل شمال الصين . كانت دولا خليفة لامبراطور تشن الغربية الهشة .

وفي الطرف المقابل من السهوب اغار حشد من الهون (حول سنة ٣٧٥م) على البدو ، المعروفين باسم الان سارماتيان ، الذين كانوا يقيمون بين نهري الفولغا والدون ، والذين كانوا يتكلمون اللغة الايرانية ، وقضى على الامبراطورية التي كان القوط الشرقيون (المتكلمون بلغة تيوتونيو والقادمون من اسكندنافيا اصلا) قد انشأوها حول نهر الدنيبر. وشرّدوا القوط الغربيين ، الذين حاولوا العثور على ملجأ في إطار الاراضي الرومانية الواقعة الى الجنوب من مجرى الدانوب الأدنى . وتفجر هؤلاء الهون الغربيين كان السبب الرئيس للنزاع بين القوط الغربيين والرومان ، والذي تلقى فيه الرومان ضربة قاضية في ادرنة (ادريا نوبولي) في سنة ٣٧٨م وقد استمر الهون انفسهم في السير غربا . ومعهم الآلان والقوط الشرقيون الذين كانوا قد اخضعوهم ، مشرِّدين امامهم برابرة آخرين من الناطقين باللغة التيوتونية .

وضرب الهون خيامهم في ألفولد الهنغارية–وهي رقعة من السهوب الاوراسية في قلب شبه الجزيرة الاوروبية . كانت الامبراطورية الرومانية قد انقسمت سنة ٣٩٥م . وكان

جزؤها الشرقي اكثر حيوية من الجزء الغربي. لذلك ركز سيد الحرب الهوني، أتيلا، هجومه على الامبراطورية الرومانية الغربية، التي كانت أقل نفعا لكنها اقرب منالا من هدفيه الرومانيين. في سنة ٤٥١ هاجم أتيـلا بلاد الغال حيث هزمه (في اورليان) الجيش الروماني الغربي بعون من القوط الغربيين. ذلك بان هؤلاء كانوا يأملون في ان تأذن لهم حكومة الامبراطورية الغربية في الاستقرار في جنوب غرب بلاد الغال، ومن ثم فقد كانوا معنيين بالحيلولة دون الهون والاستيلاء على ما املوا فيه من غنيمة بلاد رومانية للقوط الغربيين. في سنة ٤٥٢م اغار اتيلا على شمال ايطالية، لكنه انسحب دون ان يهاجم رومه. وفي سنة ٤٥٣م توفي؛ عندها ثار اتباعه المترددون من الجرمان والسارماتيين. وتراجعت موجة الهون شرقا من ألفولد الهنغارية الى المنعطف الغربي للسهوب الاوراسية الواقع الى الشمال من البحر الاسود.

واصبحت الامبراطورية الرومانية الغربية الآن الثمرة المرجوة. لا للهون. ولكن للقبائل البربرية الناطقة باللغة التيوتونية وهي اما التي نجت من استعباد الهون لها. او انها كانت قد استعبدت لكنها ثارت عليهم بعد وفاة اتيلا. في سنة ٤٠٦م اجتازت جماعات من السواف والفنداك والآلان والبرغنديين نهر الراين ودخلت اراضي الامبراطورية الرومانية الغربية. في سنة ٤١٠م اعترفت الامبراطورية الرومانية الغربية بعجزها عن الدفاع عن بريطانية. وعجزت كذلك عن تأمين الدفاع عن رومة بالذات، اذ هاجمها مشرّدون من القوط الغربيين (هربوا امام الهون) فاحتلوها ونهبوها في السنة ذاتها. وهكذا فقد يسر الهون الغربيون. لبرابرة آخرين. ان يجمعوا ثروة على حساب الامبراطورية الرومانية الغربية. اما حصة الهون التي حصلوا عليها في نهاية الامر من اراضي الامبراطورية الرومانية فقد كانت بسيطة. ففي سنة ٦٨١م تمكنت قبيلة بلغارية. هي من اعقاب الهون الذين كانوا بقيادة اتيلا. من الحصول على مقر دائم لها على حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية بين مجرى الدانوب الأدنى ومنحدرات سلسلة جبال هاموس (البلقان).

إن قبائل الهون التي انتصرت على ابرويز. الامبراطور الساساني الفارسي. سنة ٤٨٤م وقتلته. كانت قد ظهرت على المسرح التاريخي باعتبارها حليفة للفرس في حملة سنة ٣٥٩م التي انتهت بان احتل الفرس الحصن الروماني آمد (ديار بكر). وفي سنة ٤٨٤م كانت هذه القبيلة من الهون. وهي الافتاليت (الهَـطْل) قد احتلت الجزء الاعلى من حوض سيحون–جيحون. كانت الصغد وبكتريا جزءا من امبراطورية كوشان. ويبدو

انهما كانا قد ضما الى الامبراطورية الساسانية لما احتل الفرس امبراطورية كوشان (٢٤١ م) في حكم الامبراطور الساساني الاول اردشير الاول. ولسنا ندري فيما اذا كانت هاتان الولايتان قد تخلصتا من الحكم الفارسي قبل ان يحتلها الافتاليت (الهَطْل). أو ان هؤلاء انتزعوهما من الامبراطورية الفارسية قبل المواجهة التي انتهت بالنكبة التي تلقتها فارس سنة ٤٨٤ م.

بعد هذه النكبة ترتب على الامبراطورية الفارسية ان تستمر في دفع جزية للافتاليت (الهَطلْ) حتى حكم كسرى (الاول) انو شروان (٥٣١-٥٧٩ م). وفي ايام كسرى الاول انتقمت الامبراطورية الفارسية لنفسها (حول سنة ٥٥٨ او ٥٦٣-٥٦٧). فقد عثر كسرى على حلفاء من الترك. القبيلة البدوية التي كانت قد سيطرت على السهوب فيما وراء الهون. فعمل الفرس والاتراك يدا واحدة. فقضوا على امبراطورية الافتاليت (الهطل) واقتسموها فيما بينهم. وكان نهر سيحون الحد الفاصل بين قسميها. وهكذا فقد نال الامبراطورية الفارسية جزء من بكتريا. هو الواقع جنوبي نهر سيحون (طورخارستان وهي اليوم اوزبكستان الافغانية). إلا ان جزءا من امبراطورية الافتاليت (الهطل) نجا واستمر قائما في زبولستان (اراخوزيا). الواقعة جنوبي سلسلة جبال هندوكوش.

كان الافتاليت (الهطل) مؤخرة قبيلة الهون التي كانت قد خرجت من السهوب عبر جزء من الحدود الجنوبية للسهوب. وهو الواقع بين هضبة البامير وبحر قزوين. وقد مر بنا ان هذه المقدمة من الهون كانت قد هاجمت غبتا سنة ٥٤٤ م الهون. ومع انهم ردوا اخيرا على اعقابهم سنة ٥٢٨ م. كانوا قد مزقوا امبراطورية غبتا واثاروا الكثير من الفوضى والتدمير في المدنية الهندية التي كانت يومها تنعم «بعصرها الذهبي» بزعامة امبراطورية غبتا.

كان الضغط الذي مارسه الهون على الشعوب التي هزموها محنة وضعت هذه الشعوب امام اختبار مهم. وقد استجابت الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الساسانية لهذا التحدي بنجاح كبير. ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تستطع الدفاع عن نفسها ضد هجمات اتيلا. ومع ان الامبراطورية الفارسية قد تلقت ضربة كبيرة على ايدي الافتاليت (الهطل) فان ايا من هاتين الامبراطوريتين لم يقض عليها؛ فقد ظلت قائمتين وذلك على اساس دفع الجزية. وبقاء الامبراطورية الفارسية يدعو الى العجب. ذلك لأن ثورة مزدك، التي قامت في عقب النكبة الحربية التي وقعت (على الامبراطورية الفارسية) سنة ٤٨٤ م، كشفت عن العلة الاجتماعية التي كانت الامبراطورية الفارسية تشكو منها في القرن الخامس للميلاد. وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية تشكو من العلة

ذاتها في القرن نفسه ، لكنها ، اي الامبراطورية الرومانية في الغرب انهارت وذابت على عكس الامبراطورية الفارسية .

وبسبب انحلال الامبراطورية الرومانية الغربية ظلت الامبراطورية الرومانية الشرقية سالمة. وفي واقع الامر فقد رفع عن كاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية مسؤولية كبرى. ذلك بان المدنية اليونانية–الرومانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، والبلاد الواقعة خلفه في افريقية واوروبة، لم تستعد نشاطها بعد الفوضى التي عمتها في القرن الثالث للميلاد. والقسم الذي كان يتمتع بمجتمع سليم من العالم اليوناني–الروماني في دوره الاخير كان هو المشرق.

ولم تؤد هجمات الهون على الهند والصين الى نكبة شبيهة بما عرفته الامبراطورية الرومانية الغربية. ولكنها كانت ابعد اثرا مما اصاب الامبراطوريتين الرومانية الشرقية والفارسية. لم تكن هجمات الهون على الهند والصين زوابع لم تلبث ان انقشعت ؛ فقد استقر الهون بشكل مستمر في شبهي الجزيرة. في شمال غرب الهند لا يزال بقايا الهون ممثلين الى الآن بالراجبوت. فقد اعتنق هؤلاء الهندوكية. وتمثلتهم «طبقة» الكاشاترية. على نحو ما اصاب المهاجمين الاوراسيين البدو الذين سبقوهم الى الهند (مثل الساكا والبهلويين). ومثل ذلك حدث في الصين. فالبدو المهاجمون تمثلتهم الصين في النهاية. لكن الضربة التي انزلها الهون بالصين كانت عنيفة بشكل خاص. ذلك بان الهون وغيرهم من البرابرة الذين دهموا الصين في القرن الرابع وما تلاه. احتلوا منطقة من العالم الصيني شملت حوض نهر واي والحوض الادنى للنهر الاصفر. وهذه المنطقة كانت مهد الحضارة الصينية. وبالمقابل فان المنطقة التي خسرتها المدنية اليونانية الرومانية. لما سقطت الامبراطورية في الغرب. لم تعد كونها ملحقا استعماريا يمكن ان يستغنى عنه. وعلى كل فان الذي انقذ شبه القارتين الصينية والهندية كان اتساعها. فقد كان في جنوب كل منهما ملجأ للاجئين الفارين امام المهاجمين من الشمال. فقد كان عمل الانسان وصنع الطبيعة يحميان جنوب الصين. ذلك بان الحوضين الادنيين لنهري هواي وينكتسي اتمت عملها القنوات التي صنعها الانسان هناك. وهذه الشبكة من الطرق المائية كانت عقبة كأداء في طريق الفرسان البدو الاوراسيين الذين كانوا يشعرون بانهم كأنهم في بلادهم في سهل الصين الشمالية.

٤٣- الامبراطوريتان الرومانية والفارسية ٣٩٥-٦٢٨م

في السنة ٣٨٨م اعيد توحيد الامبراطورية الرومانية على يد الامبراطور ثيودوسيوس الاول، ولم يكن ذلك للمرة الأولى. إلا ان هذه الامبراطورية قسمت سنة ٣٩٥م (ولم يكن ذلك للمرة الاولى ايضا) بين ابني ثيودوسيوس، اركاديوس وهونوريوس. ذلك انه بعد الانكسار الكبير الذي لقيته الامبراطورية الرومانية على يد الامبراطور الفارسي شابور سنة ٢٦٠م، والذي انتهى بأسر الامبراطور فاليريان -تعرضت الامبراطورية الرومانية لمناسبات قسّمت فيها- طوعا او كرها- وكانت تعاد الى الامبراطورية وحدتها بعد كل من هذه المناسبات. ولم يكن ثمة ما يدعو الى الحسبان بان الانقسام الذي تم طوعا سنة ٣٩٥م سيكون دائما. إلا ان الذي حدث هو ان اتجاهات كل من القسمين، الشرقي والغربي من الامبراطورية، كانت مختلفة بالكلية في الواحد عنها في الآخر.

في سنة ٤٠٦م وما بعدها كانت الشعوب الناطقة بالهندية الاوروبية والايرانية تهرب في اتجاه غربي امام الهون. وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية تتعرض للغزو كما كانت تغلب على امرها. وقد نهبت روما بالذات على يد القوط الغربيين سنة ٤١٠م وعلى ايدي الفندال سنة ٤٥٥م. وقد اصبحت حكومة الامبراطورية الرومانية الغربية عاجزة قبل سنة ٤٧٦ بمدة طويلة، وهي السنة التي نزع فيها ادواكر، وهو قائد الجند، السلطة من يد آخر امبراطور روماني في رافنا (وهي العاصمة-الملجأ التي اتخذتها الامبراطورية الغربية في القرن الخامس للميلاد). وكان المعنى الظاهر لانتزاع السلطة توحيد الامبراطورية تحت سيادة الامبراطور زينو (حكم ٤٧٤-٤٩١). فبالمقارنة بزوال الامبراطورية الغربية، كان ثمة استمرار للامبراطورية الرومانية الشرقية، مع ان حدها المحاذي لمجرى الدانوب الاسفل كان يتعرض لضغط شديد من الشمال، اكثر من تعرض اي جزء من حدود الامبراطورية القارية الاوروبية بين البحر الاسود ونحو الشمال. يضاف الى هذا لم تكن جارة الامبراطورية الرومانية، على حدودها الشرقية، عصابة من البرابرة المحاربين: لقد كانت

الامبراطورية الفارسية التي كانت ندا للامبراطورية الرومانية نوعا ومقدرة.

يبدو ان الفرق بين ما اصاب قسمي الامبراطورية الرومانية بعد ٣٩٥ من تقلبات لم يكن سببه اي اختلاف في درجة الضغوط التي تعرضت لها حدودهما على التوالي. إن الاسباب الاساسية كانت تكمن في التباين الاجتماعي والاقتصادي فيما بينهما. وحكومة القسطنطينية الرومانية التي نجحت نجاحا نسبيا في انقاذ وضعها بسياسة حكيمة جاءت في الوقت المناسب.

لقد ادركت حكومة القسطنطينية بسرعة ان الامبراطورية الرومانية الغربية كانت في الوقت ذاته غير قابلة للانقاذ كما كانت معرضة للذوبان. وقد كان التدخل النشيط الوحيد الذي قامت به الامبراطورية الرومانية الشرقية لمصلحة الامبراطورية الغربية المنهارة كانت الحملة البحرية ضد الفندال (٤٦٨) الذين كانوا قد احتلوا شمال افريقية، والتي انتهت بانكسار ماحق. وقد اعترفت حكومة القسطنطينية بالأمر الواقع وهو زوال حكومة الامبراطورية الغربية النهائي سنة ٤٧٦. وفي سنة ٤٨٨ تخلصت من ثيودوريك، قائد القوط الشرقيين المحارب الكبير، الذي كانت جموعه المقاتلة تنتاش الولايات الشمالية الغربية للامبراطورية الشرقية، وذلك بان وافقت على ان يهاجم ثيودوريك ايطالية بغية تصفية ادواكر. وقد اقام ثيودوريك نفسه في رافنا على انه نائب عن حكومة القسطنطينية هناك. وقد كانت هذه القصة في مصلحة الفريقين. في سنة ٥٠٨ انعم الامبراطور انستاسيوس الأول على القائد الفرنجي المحارب كلوفيس، لأنه كسر القوط الغربيين، مع ان العمل الأول في مسيرة كلوفيس كان تصفية آخر ما تبقى من الحكم الروماني في بلاد الغال. وحتى سنة ٥١٨ كانت حكومة الامبراطورية الشرقية تضع الاحتفاظ بسورية ومصر الاولوية على الاستيلاء على ايطالية. وسياستها الخارجية تنعكس في سياستها الدينية التي سنعالجها في الفصل التالي.

كان بين الاخطاء الفادحة التي ارتكبتها حكومة الغرب الرومانية انها استخدمت . في وظائفها المدنية الكبرى. أصحاب الأملاك الكبار. فمكنتهم بذلك من تطوير املاكهم. التي كانت ذات اكتفاء ذاتي اقتصاديا، بحيث اصبحت امارات مستقلة. وهؤلاء الملاكون الرومان الغربيون كانوا على استعداد لانقاذ جزء من املاكهم. لقاء خيانة الحكومة الامبراطورية التي استخدمتهم. ولم يلبثوا ان اتفقوا مع قواد البرابرة المحاربين، الذين كانوا يقتطعون دويلات– خليفة لانفسهم وذلك على حساب الامبراطورية الغربية.

وحكومة الامبراطورية الشرقية ، حالت دون اصحاب الاملاك الخطرين سياسيا والوصول الى وظائف الدولة ، وحشدت في وظائف الدولة المدنية ، من الحكام البريتوريين وما دون ذلك ، جماعة من محترفي الطبقة الوسطى ، وكان الكثيرون منهم من رجال الفقه . وقد يكون المحترفون هؤلاء مرتشين ، لكنهم كانوا ذوي شعور وطني من حيث انهم كانوا يرون ان مصالحهم الخاصة كانت تتطلب المحافظة على استمزار الدولة الرومانية الشرقية .

وثمة على الاقل امبراطوران هما مارشيان (٤٥٠-٤٥٧) وانستاسيوس الاول (٤٩١-٥١٨) اللذان حاولا الحد من تفشي الرشوة الرسمية وذلك بالتشديد على الادارة المالية الامبراطورية . وحوالى اواسط القرن الخامس قلص نفوذ الحكام البريتوريين بان انتزع منهم حق تولية الموظفين التابعين لهم . والتشدد في الادارة الذي تم على يد مارشيان واناستاسيوس الاول اعاد الى مالية الحكومة الرومانية الشرقية عافيتها في الشؤون المالية ، التي كانت مغامرة البحرية (٤٦٨) الفاشلة قد شلتها . وقد افادت الخزينة ، كما افاد الجنود ، من توقيف التلاعب الذي كان يتم على ايدي المسؤولين الماليين في الجيش . ولعلّ دافعي الضرائب بالذات لم يفيدوا من الامر الذي اصدره اثاناسيوس الاول باعفاء اعضاء المجالس البلدية من مسؤوليتهم الجماعية في دفع ما كان يتوجب على جماعتهم من دافعي الضرائب . فقد عين موظفين امبراطوريين لجمع الضرائب مباشرة من دافعي الضرائب كافراد . ولكن خطته لم يكتب لها النجاح لأن هذه المناصب اصبح من الممكن الحصول عليها عن طريق المزاد (العلني) . ومن ثم فقد تحوّل الموظفون ذوو الرواتب المعينة الى ملتزمي ضرائب مضاربين .

في الامبراطورية الغربية اصبح للقائد العسكري سلطات دكتاتورية لانه اخضع جميع مساعديه لسلطانه . اما في الامبراطورية الشرقية فان القائدين (المماثلين) ظلا متساويين في السلطة ، الواحد مع الآخر ، كما كانا متساويين مع زملائهما الثلاثة في المناطق . ولما اضاف يوستنيان الاول (٥٢٨) قائدا رابعا لمنطقة ارمينية ، ظل التساوي في السلطة محتفظا به . وفي الامبراطورية الشرقية كان الموظفون الاداريون التابعون للقادة العسكريين قد وضعوا تحت اشراف موظفين مدنيين . والحرس الخاص التابع للقادة ، مع انه لم يلغ ، فقد قلص عدده .

يضاف الى ذلك ان جيش الامبراطورية الشرقية ، من القيادات العليا وما دون ، ظل خارج نفوذ المرتزقة من البرابرة . وكان افراده يجندون من مواطني الامبراطورية

الشرقية. في الامبراطورية الشرقية صني غايناس القوطي (سنة ٤٠٠) واسبار من الالان (٤٧١). فالامبراطور ليو الأول (حكم ٤٥٧-٤٧٤) كان من بِسيا، وكان يتكلم لغة تراقيا؛ وكان خليفته زينو (المولود تراسيكوديسا) جبلي ايزوري من طوروس. ويوستين الاول (حكم ٥١٨-٥٢٧) جاء من الاطراف الجنوبية من منطقة شمالية من شبه جزيرة البلقان، كان سكانها قد تقبلوا اللغة اللاتينية.

وقد كان تحول الايزوريين من ذئاب الى كلاب رعي اثناء القرن الخامس انجازا ضخما. في سنتي ٤٠٤ و٤٠٥ كان الايزوريون لا يزالون يغيرون على جيرانهم المتمسكين بالقانون. وقد اخمد ليوالبسياني اسپار الالاني ففتح الطريق امام تراسيكوديسا. ولما حاول الايزوريون اساءة استعمال قوتهم، مقلدين بذلك البرابرة الاجانب، وضع انستاسيوس الاول ايزوريا بالذات تحت اشراف الحكومة الامبراطورية النافذ، وكان ذلك في ٤٩١-٤٩٦. ولما استولى يوستنيان الاول، في القرن السادس، على اجزاء من املاك الامبراطورية الرومانية الغربية السابقة في حوض البحر المتوسط الغربي، كانت الفرق العسكرية التي قادها قد تزود بها من الايزوريين والبسيانيين والفلاخ (وهم الجماعات التي قبلت اللغة اللاتينية والتي كانت مواطنها في شمال شبه جزيرة البلقان).

كان قسطنطين قد بنى سورا يحيط بالقسطنطينية من جهة البر. وقد بنى ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠) مكانه سورا آخر. وهذا السور اضاف اليه انستاسيوس الاول سورا طويلا يدور بالقسطنطينية، في البر الاوروبي، من البحر الى البحر. وقد أمّن انستاسيوس الاول حدود الامبراطورية مع الامبراطورية الفارسية. فقد اقام في دارا قلعة كانت افضل من قلعة نصيبين، التي اضطر جوفيان ان يسلمها الى الامبراطورية الفارسية (٣٦٣). وحصن انستاسيوس الاول كذلك ثيودوسيوبوليس (ارز روم) للدفاع عن الشرحة الرومانية من مملكة ارمينية السابقة.

كانت الامبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس قد تدنت الى حد ان امبراطورا قديرا ونشيطا (مثل مايوريان الذي حكم ٤٥٧-٤٦١) كان عاجزا عن تجنيبها قدرها المحتوم. والامبراطورية الشرقية المعاصرة كانت تتمتع بالعافية الى حد ان المقدرة والنشاط والسياسة الحكيمة كان لها فيها مجال للعمل. وكانت الامبراطورية الشرقية، بين سنتي ٤١٤ و٥١٨، محظوظة في حكامها. واركاديوس (٣٩٥-٤٠٨) وهو ابن ثيودوسيوس الأول وخليفته في الشرق بدا حكمه براقا بالنسبة الى اخيه وزميله الغربي

هونوريوس (حكم ٣٩٥–٤٢٣). وكان ابن اركاديوس. ثيودوسيوس الثاني. الذي تولى العرش لاثنتين واربعين سنة (٤٠٨–٤٥٠) اعمى. وعلى كل فقد كان يجلس على العرش دون ان يحكم. وتولت اخته الاكبر منه سنا بولكاريا ادارة الامور في سنة ٤١٤. واستمرت على ان تكون القوة الفاعلة خلف العرش معظم الوقت الى ان توفيت سنة ٤٤٣. وكانت بولكاريا نظيرة حتشبسوت وزنوبيا من حيث قوة الشخصية. إلا انها تميزت عنهما في الحنكة السياسية. وكان زوج بولكاريا مارشيان وخليفتاه ليو وزينون على مستوى المسؤولية. كما ان انستاسيوس الأول كان حريا بالمقابلة باعظم من جلس على العرش الامبراطوري الروماني من سنة انتصار اغسطوس في اكتيوم (٣١ق.م.) الى سنة وفاة قسطنطين الحادي عشر على باب القديس رومانوس في القسطنطينية سنة ١٤٥٣م.

وقد غطى يوستنيان الاول نور انستاسيوس الاول في نظر الاجيال اللاحقة. كان يوستنيان مثقفا ثقافة رفيعة، وهو ابن اخي جوستين الاول. الجندي الفلاح الفلاخي البسيط الذي ارتفع من صفوف الجند الى العرش. ويبدو ان يوستنيان كان يدير شؤون جوستين حتى قبل ان يصل هذا الى العرش سنة ٥١٨. وقد تولى يوستنيان الاول الحكم من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٦٥. ومعنى هذا انه كان واقعيا صاحب السلطة لسبع واربعين سنة. ولعلّ تبديل السياسة الخارجية والسياسة الدينية في سنة ٥١٨ كان من صنع يوستنيان اكثر مما كان من عمل جوستين. كان يوستنيان يفخر بانه واحد من الاقلية السكانية في الامبراطورية الرومانية الشرقية التي تجيد اللاتينية. حيث كانت اليونانية اللغة الشائعة. وكان يوستنيان يأمل في ان يعيد توحيد الامبراطورية الرومانية الشرقية مع املاك الامبراطورية الغربية السابقة. باستثناء بلاد الغال على ما يبدو.

في سنتي ٥٣٣ و٥٣٤ احتل قائد يوستنيان الاول بليساريوس. التراقي الاصل. شمال غرب افريقية وقضى على دولة الفندال التي خلفت الامبراطورية الغربية هناك. كانت الحملة الافريقية قصيرة ويسيرة. إلا ان توطيد السلام هناك كان عملية بطيئة وعسيرة. واحتلال املاك القوط الشرقيين في ايطالية وايليرية. الذي امتد ستا وعشرين سنة (٥٣٥–٥٦١). وهذه الحرب الرومانية–القوطية (الشرقية) امتصت الاموال الاحتياطية التي كان انستاسيوس الاول قد ادخرها. ودمرت اقتصاد الولايات المشرقية الذي كان مزدهرا حتى ذلك الوقت. وذلك بسبب الضرائب الفادحة التي فرضت على تلك الولايات. والتي قصمت ظهرها. ولم يتعلم يوستنيان الاول درسا من حروبه مع

القوط الشرقيين، لذلك فانه هاجم املاك القوط الغربيين في اسبانية سنة ٥٥٠، واستطاع ان يحتل موطىء قدم هناك قبل ان أرغم على التوقف سنة ٥٥٤.

فتحت فتوح يوستنيان الأول المجال امام امبراطورية القسطنطينية الشرقية للسيطرة على حوض البحر المتوسط وما يتصل به من البحار- من مصبات الدون والعاصي والنيل الى مضيق جبل طارق. إلا ان آثار ذلك، بالنسبة الى الامبراطورية الرومانية الشرقية، كانت كارثة، على نحو ما كانت اثار حملة بحرية واحدة (سنة ٤٦٨). ولو ان هذه كانت على درجة أخف. والنتائج التي ترتّبت على حكم يوستنيان الأول سوّغت بالحكمة التي تحلى بها أسلافه في الامتناع عن التنطح، الا مرة واحدة، للمغامرات في الغرب.

وقد كانت فتوح يوستنيان الاول في الغرب موقتة. فقد هاجم اللومبارديون ايطالية سنة ٥٦٨، اي بعد سبع سنوات فقط من سقوط آخر قلعة للقوط الشرقيين فيها. وقد كانت انجازات يوستنيان الثابتة في ميداني القانون والمعمار. فبين سنتي ٥٢٩ و٥٣٣ ضم المتشرعون في زمنه، في اطار يسهل استعماله، لا القوانين الرومانية التي اشترعت خلال الالف سنة السابقة فحسب، بل كذلك جماع الاراء القانونية التي كانت قد ابديت خلال الفترة نفسها (مع ان الاطار نفسه لم يكن مرتبا ترتيبا معقولا). ولم يقم يوستنيان، في مجال المعمار، بثورة، بل انه ثبت واكد على ما كان قائما، وذلك بانتدابه الرياضيين المهندسين، انثميوس (من ترالس) وايزيدور (من ميلتوس) لوضع خطة لأثر فخم وبنائه، وهو كنيسة ايا صوفيا (الحكمة المقدسة) في القسطنطينية.

كان الشكل الاصيل الذي قبله العالم الهليني للبناء هو الميغارون، وهو البناء المستطيل القائم الزوايا ذو السقف المتحدر على الجانبين من نقطة ارتفاع متوسطة. وبعد اضافة زخرفة خارجية اليه، هي صفوف من الاعمدة تقوم اما امامه اوعلى جوانبه جميعها، قام هذا البناء بمهمته كهياكل للآلهة والالهات اليونانية والاترسكية والرومانية، التي سبقت المسيحية. ولما نقل المهندسون المعماريون الاعمدة من الخارج الى الداخل، اصبح هذا البناء، في العصر اللاحق بالاسكندري، الباسيليكا. والباسيليكا هذه التي كانت قد صممت للاستعمال المدني، اصبحت النموذج المثالي للكنيسة المسيحية. إلا ان اختراع نوع جديد من الاسمنت في القرن الثاني للميلاد في ايطالية، سهل للبنائين اقامة بناء مدور تعلوه قبة قليلة الارتفاع. وكان مجمع الآلهة الذي بناه هدريان (في القرن الثاني

للميلاد) في رومه البناء الرائد في هذا الاسلوب. وقد اقام البناؤون، في كنيسة القديس فيتاليس في رافنا وكنيسة القديسين سرجيوس وباخوس في رومه- وهاتان الكنيستان بنيتا في زمن يوستنيان الاول وزوجته ثيودورا (في القرن السادس) - القبة فوق بناء مثمن الجوانب؛ وهذا التخطيط يثير في وجه المعماري مشكلة صعبة. وفي كنيسة ايا صوفيا تقوم القبة على اربع ركائز، وهي النقاط التي تحدد القاعدة المربعة الكبرى.

وكنيسة ايا صوفيا في القسطنطينية تتحدى مجمع الآلهة في اثينا بكل ثقة. وفن اكتينوس (في المجمع) اقل رقة من فن انتيميوس وازيدور (في الكنيسة). فالميغادون تكون الخطوط الافقية والعمودية الكاملة، والسطوح الكاملة ايضا، والاعمدة الكاملة الاستدارة، هي الصفات المسيطرة فنيا. لكن الطبيعة لا تعرف اشكالا هندسية كاملة. مثل هذه الاشكال (سواء منها الاصيلة والظاهرة) يخلقها العقل البشري وتفرضها الايدي البشرية على البيئة غير الانسانية للبشر. اما الكنيسة البزنطية التي اتبع في بنائها اسلوب ايا صوفيا، تكون الصفات المسيطرة فنيا هي القباب واشباه القباب التي تعيد الى الناظر المنحنيات التي تألفها الاجسام الحية. فالفنان لم يحاول في هذه ان يخضع الطبيعة، بل عني بالوصول الى التناغم معها. فعين فيلسوف صيني من اتباع طاو، كانت تنشرح في رؤيتها كنيسة بزنطية اكثر مما تنشرح في نظرها الى هيكل هليني.

إن الاغارقة الهلينيين لم ينظروا الى الانحناءات الطبيعية شزرا. فقد كانوا اساتذة متفوقين في التمثيل الطبيعي للجسم البشري؛ والمزهريات الهلينية، في اساليبها المتلاحقة من السابق للهندسي فيما بعد، تبدو فيها الانحناءة على انها هي سر جمالها. وقد عرف الاغارقة الهلينيون طريقة ادخال انحناءات دقيقة الصنع في ابنيتهم، إلا ان هذه الانحناءات كان المقصود منها ان تظهر وكأنها كاملة الاستقامة، وذلك بسبب خداع البصر. والمعماريون البزنطيون ثمروا مهارتهم في الانحناءات التي كانت قريبة من الانحناءات الاصيلة عند النحاتين والفخاريين الهلينيين، وليس في ما يبدو خطوطا مستقيمة.

لا تزال آيا صوفيا التي بناها يوستنيان قائمة ومدونته القانونية كانت مصدر وحي لقوانين لا تزال سارية المفعول. لكن فتوحه الهشة اضرت بالامبراطورية ضررا بالغا؛ وذلك بعد وفاته بسبع وثلاثين سنة فقط. في سنة ٥٥٠، قبل ان تنتهي حروب يوستنيان الاستنزافية مع القوط الغربيين، كان الجنود الفلاح المجندون في منطقته، في طريقهم للقيام بالخدمة العسكرية في ايطالية، اذ اضطروا ان يردوا المغيرين يومها من الضفة

الشمالية للدانوب. وفي السنوات من ٥٧٢ الى ٥٩١، اثناء الحرب الرومانية الفارسية، فيما كان الجيش الروماني الشرقي يتمركز في اسيه على حد الامبراطورية الشرقي، هاجم الافار والسلاف ولايات الامبراطورية في البلقان دون ان يلقوا مقاومة. واثناء الحرب الرومانية الفارسية (٦٠٤ - ٦٢٨) التي كانت امعن في الاذى من سابقتها، عاد السلاف - وفي هذه المرة استقروا هناك.

لقد حلت بالامبراطورية الساسانية، وهي الدولة المجابهة للامبراطورية الرومانية الشرقية، الويلات التي تجنبتها الامبراطورية الرومانية الشرقية او قاومتها، فيما كانت هذه الويلات هي زوال الامبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس. ففي الامبراطورية الساسانية، كما كان الامر في سابقتها الامبراطورية الارزاسية (البارثية) لم تكن المناصب العليا حكرا على النبلاء فقط، بل كان ثمة مناصب خاصة كانت وراثية لاسر نبيلة معينة. يضاف الى ذلك ان المنظمة الدينية الزرادشتية كانت ذات نفوذ في الامبراطورية الساسانية الفارسية على نحو ما كانت عليه الكنيسة المسيحية في امبراطوريتي قسطنطين وثيودوسيوس الرومانيتين. وبخلاف ما كان عليه الحال في العصر الارزاسي (البارثي) السابق كانت المنظمة الدينية الزرادشتية ايضا مطعمة بالقومية الايرانية، كما آل اليه الحال في الكنيسة المسيحية الارثوذكسية في المشرق اذ طعمت بالقومية اليونانية واصبح للقوميات المصرية والسورية والارمنية ما يمثلها ويوضحها لاهوتيا، اذ انها اخذت نفسها برفض اعمال مجمع خلقدونية (٥٤١).

في سنة ٤٤٠ امر الامبراطور الساساني يزدجرد الثاني جميع رعاياه الذين لم يكونوا من اتباع الزرادشتية ان يعتنقوا دين الامبراطورية الرسمي، واضطهد جميع الذين لم يقبلوا بذلك، واستمر في ذلك حتى وفاته سنة ٤٥٧. كانت المقاومة على اشدها في ارمينية الفارسية. (كان الوعي القومي الارمني قد عنف بسبب اختراع الفباء للكتابة الارمنية، حوالى سنة ٤٠٠، ومن ثم باتباع ادب ارمني تبعا لذلك.) وقد قضي على العصاة الارمن سنة ٤٥١، إلا انهم ثاروا ثانية سنة ٤٨١. وذلك ان اخذ الافتاليت (الهطل) من الهون يوقعون الهزائم العسكرية بالفرس. واضطرت الحكومة الامبراطورية الساسانية ان تمنح الكنيسة المسيحية الارمنية ملء الحرية. وذلك بعد انكسار ابرويز ووفاته سنة ٤٨٤. وعندها عين نبيل ارمني حاكما لارمينية الفارسية.

في الوقت ذاته كان مسيحيو العراق الناطقون باللغة السريانية قد افادوا من تحريم

اللاهوت النسطوري في الامبراطورية الرومانية (٤٣١). فالتجأ النساطرة الى نصيبين. وهي مدينة يستعمل اهلها السريانية. وكانت تقع (منذ سنة ٣٦٣) في الجهة الفارسية من الحدود الرومانية الفارسية. وقد لقي النساطرة ترحيبا في بلاد الفرس باعتبارهم لاجئين من اضطهاد حكومة الامبراطورية الرومانية. في سنة ٤٨٢ اصدر الامبراطور زينون امرا بتوحيد الكنائس (انوتيكون). فردت عليه الكنيسة المسيحية في المناطق الناطقة باللغة السريانية داخل حدود الامبراطورية الساسانية. بان تقبلوا المذهب النسطوري في الكنيسة. ومنذ ذلك الوقت صار يوجد في الامبراطورية الفارسية كنيسة مسيحية وطنية كانت تلتزم بلاهوت مناقض في الوقت ذاته لكل من القائلين بالطبيعة الواحدة والمسيحيين الارثوذكس من رعايا الامبراطورية الرومانية. وهذه الكنيسة المسيحية الوطنية كانت ندا للمنظمة الدينية الزرادشتية التي توجد في المناطق الناطقة باللغة الايرانية من الامبراطورية الفارسية. ومع ان تقبل المسيحيين من رعايا الامبراطورية الفارسية للنسطورية لم ينقذهم من جميع انواع الاضطهاد فيما بعد. إلا ان هذا العمل جعل موقفهم اضمن. اذ انهم بعدوا عن ان يتهموا بانهم «طابور خامس» روماني.

إن النكبة العسكرية التي اصابت الفرس في سنة ٤٨٤ لم تقف عند حد منح الرعايا المسيحيين من غير الايرانيين في الدولة الساسانية الحرية فحسب، انها فتحت السبيل امام ثورة اجتماعية عنيفة في ايران بالذات. حيث كانت ثمة هوة واسعة. والتي كانت تزداد عمقا. بين ثروة النبلاء وفقر الجماهير. وقد دفع القوم الى القيام بالثورة مجاعة وقعت في وقت مبكر من حكم قباذ الاول (اعتلى العرش ٤٨٨). وهو الخليفة الثاني لابرويز. وقد اغتنم مزدك الفرصة. وكان يومها رئيس مذهب من المانوية. انشيء في الجيل التالي لجيل ماني نفسه. وهذا المذهب. اسمه درست-دن. كان يختلف عن المانوية الاصلية في بضع قضايا عقدية. إلا انه. في ايام مزدك على كل حال. اصبحت الصفة المميزة لمذهب درست-دن المطالبة بالعدل الاجتماعي. وكان المذهب يدعو الى الاشتراكية في الممتلكات حتى الزوجات (وهي قضية بغيضة. وقد ضخمها خصوم مزدك).

وقد تقبل الرأي العام تفسير مزدك لدرست-دن، واعتنقها الامبراطور قباذ الاول. وقد وضعت الثورة الاجتماعية موضع التنفيذ على حساب النبلاء. وقد كانت المزدكية بغيضة اجتماعيا في اعين النبلاء الايرانيين. كما كانت بغيضة اجتماعيا وعقديا في نظر رجال الدين الزرادشتيين. ولم يكن الامبراطور الساساني ندا لرجال الدين والنبلاء عندما

يتضامن هؤلاء ضده. ولذلك فقد خلع قباذ الاول عن العرش وسجن (٤٩٦). إلا انه هرب من السجن وذهب الى الافتاليت (الهطل) واعيد الى العرش على يد جيش من هؤلاء القوم (٤٩٨ أو ٤٩٩). واستمر نفوذ مزدك، في الوقت ذاته. يتصاعد. وظلت اراؤه تنفذ. إلا ان قباذ تخلى عن المزدكية (٥٢٨ أو ٥٢٩) وذلك بتحريض من احد أولاد. المسمى كسرى. الذي كان قد اختاره لخلافته. وقد تعاون كسرى مع الكنيسة النسطورية والمنظمة الدينية الزرادشتية. فقضى على المزدكية. فقتل اعداداً كبيرة من اتباع المذهب. بمن فيهم مزدك نفسه.

كان كسرى، الملقب انو شروان ومعناه الخالد. داهية. وكان يتمتع بحرية العمل اكثر من أي من اسلافه، وكان ينعم بتأييد رجال الدين الزرادشتيين. إذ انه كان القوة المحركة في القضاء على المزدكية في اواخر حكم ابيه. ومن ثم فلم يكن يخشى ان يقوم ضده تحالف بين المنظمة الدينية الزرادشتية والنبلاء، الذين يمكن من توطيد سلطته عليهم. ولما قضى كسرى على تصاعد نفوذ مزدك، كان قد مر على الثورة المزدكية نحو من اربعين سنة وهي ناشطة، وقد خرج النبلاء من هذه الفترة وقد ساءت حالهم وسمعتهم.

ومع ان كسرى الأول كان قد قضى على المزدكية، ومع انه استمر. بعد توليه العرش، في الحد من نفوذ النبلاء، فقد رأى انه يتحتم عليه ان يقوم بعمل ايجابي يخفف فيه من حدة الظلم الاجتماعي الذي كان عنصرا هاما في إثارة الثورة المزدكية، وان يصلح المؤسسات التي كانت وراء ما كان للنبلاء من سيطرة على العرش. ويبدو ان كسرى استرشد بمسيرة التاريخ الروماني فيما بعد ديوقليتان. فاعاد النظر في ضريبة الارض وضريبة الجزية. ففرض على الارض ضريبة تتناسب مع منتوجها. وعلى الاشخاص على اساس ما يملكون من وسائل الثراء. وقد كان الدهاقين هم المسؤولون عن جمع الضرائب الريفية في ايام الخلافة. اي بعد زوال الدولة الساسانية. ولعلّ كسرى هو الذي وظف الدهاقين في هذا الدور. وقد كان الدهاقين الحلفاء الطبيعيين للامبراطور في صراعه ضد النبلاء لوضع حد لتصرفهم. والغى كسرى. كذلك، منصب القائد العام واستعاض عنه بتعيين اربعة قواد اقليميين. ويبدو كسرى وكأنه كان يعي واحد من اسباب التباين في حظ الامبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية.

في سنة ٥٧٢ نشبت حرب بين كسرى الاول والامبراطورية الرومانية الشرقية. وهي الحرب التي استمرت حتى سنة ٥٩٠. وانتهت بخلع ابنه وخليفته هرمز الرابع

واغتياله. وقد اتاحت النقمة الشعبية للحرب الفرصة امام النبلاء للعودة الى النفوذ. واغتصب العرش نبيل ثائر. لكن الامبراطور الروماني الشرقي موريس اعاد كسرى الثاني.

وهو ابن هرمز الرابع، الى عرش ابائه. وقد كافأه كسرى على ذلك بان عقد صلحا مع موريس (٥٩١)، وتنازل له عن النصف الغربي من ارمينية الفارسية. وعندها تمكن موريس من نقل جيش الامبراطورية الشرقية الى اوروبة، وشن حرباً هجومية على الافار والسلاف. وقد نجحت حملته الهجومية بحيث ان الرومان عادوا، في سنة ٦٠٢، الى الضفة الشمالية للدانوب الادنى، وكان ذلك لاول مرة بعد انسحابهم من داسيا في القرن الثالث للميلاد. إلا ان موريس امر الجنود بان يشتوا فيما وراء الدانوب، فأدى ذلك الى عصيان دفع موريس ثمنه عرشه وحياته، ورمى الامبراطورية في احضان الفوضى.

في سنة ٦٠٤ هاجم كسرى الثاني الامبراطورية الرومانية الشرقية بحجة الانتقام لموريس. الذي كان كسرى مدينا له بالكثير. والحرب التي تلت ذلك كانت اشرس الحروب التي دارت رحاها بين الرومان وجيرانهم الايرانيين منذ ان التقى الفريقان لاول مرة سنة ٥٣ ق.م. وقد وصل الفرس. مرتين على الاقل. الى الشاطىء الاسيوي لمضيق البوسفور. في سنة ٦٢٦ كانوا على وشك ان يلتقوا الافار الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية من الجهة الاوروبية. لولا ان الاسطول الروماني الشرقي حال دون ذلك. وبكثير من الصعوبة. وقد احتلت الجيوش الفارسية سورية وفلسطين ومصر وبرقة. وكانت هذه اول مرة يصل فيها الفرس الى هذه النقطة غربا منذ سنة ٣٣١ ق.م. ولما قام الرومان الشرقيون بالهجوم المضاد وصلوا شرقا الى ابعد مما وصل أي جيش روماني منذ سنة ١١٧ م. وفي سنة ٦٢٨ كاد الامبراطور الروماني الشرقي هرقل (تولى العرش ٦١٠) ان يصل الى اسوار المدائن (اكتسيفون)، ثم انتهت الحرب. كما توقفت حرب السنوات ٥٧٢–٥٩١. بخلع الامبراطور الساساني ووفاته.

وعقدت الدولتان صلحا سنة ٦٢٨ على اساس الوضع السابق للحرب. واخذت الفوضى العنيفة برقاب الامبراطورية الساسانية، على نحو ما اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية بين سنتي ٦٠٢ و ٦١٠، إلا ان الامبراطورية الفارسية، على عكس الامبراطورية الرومانية الشرقية، لم تنهض من كبوتها.

كانت الدولتان، في سنة ٦٢٨، قد بلغ منهما الجهد غايته. وكانت الدولة الثالثة

هي الدولة الاسلامية العربية التي انشأها النبي (ص) في المدينة المنورة سنة ٦٢٢. وقد كان ظهور النبي (ص) ودولته في السرعة. في سنة ٦٣٣ أرسل خليفته الاول أبو بكر الجيوش لمهاجمة جارتيه المجهدتين الواقعتين الى الشمال في وقت واحد. وقد سقطت الامبراطورية الفارسية. اما الامبراطورية الرومانية الشرقية فقد استمر وجودها. إلا ان املاكها كانت قد تقلصت تدريجا بحيث اقتصرت في النهاية على اسية الصغرى والقسطنطينية وبعض الجزر وجسور برية على الساحل الاسيوي الشمالي للبحر المتوسط.

٤٤-المسيحية الغربية ٣٩٥-٦٣٤

إن الامبراطورية الرومانية الغربية ، من بين دول الاويكومين القديم التي تعرضت لتفجر الهون وخروجهم من السهوب الاوراسية هي التي منيت بالفشل الذريع في مواجهتها للجموع المتجهة نحوها. فقد ازاح الهون السارماتيين البدو والجرمان الشرقيين المستقرين غربا ، فاخترق هؤلاء حدود الامبراطورية الرومانية الغربية في سنة ٤٠٦ وما بعدها ، وفي سنة ٤٧٦ كان حتى الحكم الامبراطوري الاسمي قد صفي. ولم يكن زوال الامبراطورية الرومانية الغربية ناتجا عن قوة هجمات البرابرة عليها ، بقدر ما كان نتيجة ضعف الامبراطورية الداخلي. وهذا الضعف كان اجتماعيا كما كان اداريا. فعلة الامبراطورية الرومانية في الغرب كانت على شاكلة العلة التي اودت بحياة امبراطورية الهان (في الصين). فقد هزمت الحكومة الامبراطورية في صراعها مع كبار الملاكين والقواد العسكريين الكبار. فكبار الملاكين نقلوا فائض المنتوج الزراعي من خزينة الحكومة الى جيوبهم الخاصة. والقيادة العسكرية العليا جعلت من نفسها دكتاتورية سياسية عن طريق تجميع السلطة العسكرية في يد واحدة.

وقبل سقوط الامبراطورية الغربية ببعض الوقت قام رجلان عظيمان كانا من جيلين مختلفين هما القديس امبروز والقديس اوغسطين. وقد ترك هذان اثرا كبيراً في المسيحية الغربية ؛ وهو اثر استمر بعد زوال الامبراطورية ، التي عاشا وعملا في كنفها. كان القديس امبروز اسقفا لميلان (٣٧٢-٣٩٧) ، وقد توفي وذلك قبل سبع سنوات من نقل العاصمة (٤٠٤) من ميلان الى رافنا (التي كانت تكسبها المستنقعات المحيطة بها مناعة ضد الهجوم عليها) وقبل تسع سنوات فقط من اختراق الجرمان الشرقيين ، الذين شردهم الهون ، حدود الامبراطورية الغربية على نهر الراين. والقديس اوغسطين ، الذي كان اسقفا لهيبو (٣٩٥-٤٣٠) ، في شمال غرب افريقية ، توفي بعد سنة واحدة من هجوم الفندال على شمال افريقية. وقد جاز الفندال من اسبانية الى افريقية سنة ٤٢٩ ، وذلك بعد ثلاث

وعشرين سنة من اجتيازهم نهر الراين. وكانوا، في سنة ٤٣٠، يحاصرون هيبو، مركز اسقفية القديس اوغسطين.

وقد تحدر رجلا الدين الغربيان من بيئتين اجتماعيتين تختلف الواحدة عن الاخرى اختلافا كبيراً، وكان كل منهما قد اتخذ لنفسه حرفة مدنية قبل ان ينضما الى الكنيسة. فقد كان والد امبروز يشغل وظيفة ادارية على اعلى المستويات. وكان امبروز نفسه قد بدأ حياته في السلك الاداري ذاته، ولا ريب في انه كان يمكن ان يعيد سيرة ابيه، لولا انه وجّه الى مجال للعمل كان يحسب انه يمكنه من صرف قوته بشكل اكثر فعالية، وقد تم له ذلك. وكان اوغسطين ابنا لاسرة متوسطة الحال من تاغستا، وهي بلدة صغيرة في داخل شمال غرب افريقية. وقد بدأ اوغسطين حياته مدرسا للبلاغة في موطنه. ومع ان هذه الصناعة كانت قلما تثير الاهتمام لا عقليا ولا اجتماعيا، فان اوغسطين تميز في عمله هذا. وقد رقي بسبب ذلك من تاغستا الى قرطاجة ومنها الى رومة ومن هذه الى ميلان. وهناك تخلى عن المانوية واعتنق المسيحية (٣٨٨). وهكذا شق لنفسه طريقا استطاع فيه ان يجند مواهبه في مجال ديني في بلاده.

كان امبروز يتصف بالشجاعة وقوة الارادة. وقد استخدم هاتين الصفتين في السيطرة على شخصية قوية اخرى، هو الامبراطور ثيودوسيوس الأول. وقد فرض نفوذه على ثيودوسيوس بامتناعه عن السماح له بتناول الشراكة المقدسة قبل ان يفعل ما طلبه منه امبروز. وقد تقبل ثيودوسيوس ذلك لانه كان مسيحيا مؤمنا ولانه كان يحب ان يراعي الرأي العام المسيحي (ذلك بان امبروز كان قد رسم اسقفا لميلان بناء على الحاح المسيحيين المحليين). وقد افاد امبروز من نفوذه على ثيودوسيوس اذ حمله على اعلان التوبة عن مذبحتين امر بهما وكان هذا عملا فاضلا. إلا انه وضع نفوذه على الامبراطور موضعا خاطئا، أولا لانه منعه من توقيع العقوبة باسقف مسيحي كان قد هدم كنيسا لليهود، وثانيا لانه حمله (٣٨٤) على رفض عريضة تقدم بها سماخوس، رئيس مجلس الشيوخ في رومة، يطلب فيها ان يعيد مذبح الهة النصر الى قاعة مجلس الشيوخ، وهو المذبح الذي كان قد نقل بناء على امر من غراتيان (٣٨٢) الذي كان سلف ثيودوسيوس في الغرب. كان سماخوس قد قال في عريضته: «ان سرا عظيما مثل هذا لايمكن النظر اليه من طريق واحدة فقط». والسر الذي كان سماخوس يقصده هو الحقيقة النهائية الكامنة خلف الظاهر، ومن ثم قضية العلاقة بين الحقيقة النهائية والانسان. ولم يلتفت امبروز الى طلب

سيماخوس باحلال التسامح في القضية. فقد كان الهدف الذي رمى اليه امبروز هو القضاء على جميع الديانات غير المسيحية داخل الحكومة الامبراطورية الرومانية ، وذلك عن طريق اقناع الحكومة الامبراطورية في استعمال سطوتها لتحقيق ذلك. وقد طبق ثيودوسيوس سياسة امبروز (في ٣٩١-٣٩٢). ومن ثم فان الديانتين الوحيدتين اللتين استمرتا في الامبراطورية هما عبادة النجوم واليهودية بشكليهما اليهودي والسامري.

ومثل ذلك يقال في اوغسطين-انه لم يكن متسامحا، وقد بذل الكثير من الجهد والوقت في مجادلة الدوناتيين والبلاجيين. وكان الدوناتيون قد اثبتوا انه لم يكن لهم اي مسوغ خلقي في تصلبهم ضد زملائهم المسيحيين الذين كانوا قد وقفوا موقفا مسالما خلال سنوات الاضطهاد (٣٠٣-٣١١). ومع ذلك فانه لم يكن من الممكن اخماد الحركة الدوناتية لأن اتباعها كانوا قد تمثلوا حركة افريقية محلية التي لم تكن دينية بل كانت اجتماعية سياسية. وبلاجيوس كان يرى ان الارادة البشرية لها بعض الحرية في التصرف، وانه يتوجب على الانسان ان يوظف حريته هذه الى جانب الخير ضد الشر. وهذا الموقف الذي وقفه هذا اللاهوتي البريطاني، والذي يشبه التشديد الايراني على اهمية المسؤولية الخلقية للانسان، هو موقف يشرح القلب، حيثما كان واينما كان. ولم تكن الحاجة الى ذلك اشد مما كانت عليه في جيلي بلاجيوس واوغسطين اذ كان المجتمع، في الامبراطورية الرومانية الغربية، في طريق الانهيار. كان اوغسطين يرى ان اهلية الانسان لن تبلغ الدرجة التي تؤدي به الى نيل الخلاص بجهوده وحده. ولن ينال الانسان «الخلاص» إلا اذا شملته «نعمة» الله. وفي الجدل الذي قام به مع البلاجيين، وصل اوغسطين الى رأي قوامه ان تحكم الله القوي في حياة الانسان هو انه حكم على بعض البشر بالخلاص وعلى البعض الآخر باللعنة. كان اوغسطين يرى الله في شبه للامبراطور الروماني الذي اساء استعمال سلطانه، لانه ثمل بهذه القوة العارمة التي كانت له.

إن الجزء الاثمن من ارث اوغسطين الأدبي للبشرية هو اتزان غير لاهوتيين. فالاعترافات، هي ترجمة ذاتية سيكولوجية في اسلوب لاتيني بارع. و«مدينة الله»، الكتاب الذي بدأ نشرة جدلية، اصبح، بعد توسيعه وتعميقه، تقصيا عن «السر الاكبر»، وواحدا من السبل التي يلجأ اليها العقل البشري لفهمه. والجدلية التي انطلقت منها بذرة «مدينة الله» كانت نتيجة لاستيلاء القوط الغربيين على رومه ونهبها سنة ٤١٠. كان قسطنطين الكبير قد صرح بان انتصاراته العسكرية كانت مكافأة له من اله المسيحيين

عن اعتناقه المسيحية. وبعد ٤١٠ كان اتباع الديانات غير المسيحية يردون على ذلك بان سقوط رومه سنة ٤١٠ هو عقوبة اوقعتها الالهة غير المسيحية بسبب وقف التعبد لها في ٣٩١ - ٣٩٢ . وقد نذر اوغسطين نفسه لرد هذه الدعوى ، واضطر الى محاولة الكشف عن العلاقة بين حياة الانسان المادية ومشاركته الموازية زمنيا في مملكة السماوات.

في الوقت الذي كان فيه اوغسطين يعمل في مؤلفاته. كان البرابرة يقومون بهجماتهم في الشمال. كانت بعض هذه الهجمات فجائية –على سبيل المثال اغارة القوط الغربيين على رومة سنة ٤١٠ واغارة الفندال في سنة ٤٥٥ . ومثل تقدم الفندال السابق ، مع الالان والسواف. من شاطىء الراين الشرقي الى جنوبي جبال البرانيس ، في السنوات الثلاث (٤٠٦-٤٠٨). وفي مقابل ذلك فان احتلال بريطانية الجزئي الذي قام به الانكلز والسكسون والقوط . وغـزو اللمباردبين لايطالية كانت اعمالا حربية تدريجية بحيث كان الاحتلال يتم مجزءا. والحصون التي انشأها هدريان في بريطانية اصبح الدفاع عنها غير مجد اعتبارا من ٣٨٣ ، ولكن لعلّ بعض الحاميات الرومانية كانت لا تزال موجودة في بريطانية بعد ذلك بنحو اربعين سنة. ولعلّ اقامة المهاجمين الناطقين باللغة التيوتونية في بريطانية قد بدأت قبل حوالى سنة ٤٢٠-٤٤٠. وقد احتاجت عملية الاستقرار هنا نحوا من قرنين.

وكانت البلاد التي اصابها الضرر اكثر من غيرها من احتلال البرابرة والمقاومة الرومانية هي ايطالية. وايطالية كانت نواة الامبراطورية الرومانية جمعاء ، كما كانت امعن بلدان الامبراطورية الرومانية الغربية مدنية. وقد اشرنا من قبل الى الاجهاد الذي اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية بسبب الحروب الرومانية–القوطية (٥٣٥-٥٦١). وقد قضي على القوط الشرقيين الذين كانوا في ايطالية في هذه الحرب ، لكن الذين اصابهم الضرر اكثر من غيرهم كانوا سكان ايطالية بالذات. ومع ان هجمات القوط الغربيين والفندال على ايطالية في القرن الخامس كانت مثيرة ، إلا انها كانت آنية وموقتة. وكان زوال الامبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦ سلميا ، وهجوم القوط الغربيين. مثله مثل القتال الذي كان يتم اثناء انسياح الشعوب الجرماني الذي كان بين فئة واخرى من البرابرة. وقد ظلت ايطالية موحدة سياسيا الى سنة٥٣٥ كما ظلت سالمة اقتصاديا واجتماعيا.

وقد كانت حرب ٥٣٥-٥٦١ نقطة تحول في تاريخ ايطالية. وقد هجم اللومبارديون على ايطالية سنة ٥٦٨ ، وذلك بعد سبع سنوات فقط من انجاز توحيد البلاد تحت حكم الامبراطورية الشرقية. ومنذ السنة ٥٦٨ تقسمت ايطالية سياسيا للمرة الاولى منذ سنة ٢٦٤

ق.م. ، وهي السنةَ التي تم فيها توحيد شبه جزيرة ايطالية نتيجة للفتح الروماني الاصلي. وقد كان اللومبارديون امعن في الوحشية من القوط الشرقيين، وايطالية، التي كانت حرب ٥٣٥-٥٦١ قد قصمت ظهرها، نالها من المصائب اكثر مما كان قد حلّ بها، بسبب الاحتلال البطيء لاجزاء من البلاد، الذي كان يتم امام صمود حاميات الامبراطورية الشرقية، حيث تمكنت هذه من التمسك بتلك الاجزاء.

وفي سنة ٤٨٦، اي قبل سنتين من تقدم ثيودوريك القائد القوطي الشرقي نحو رومه من ايليريا، كان قائد محلي من الفرنج، كلوفيس الميروفنجي، بدأ باقامة امبراطورية في بلاد الغال. لم يكن الفرنج قد اعتنقوا ايا من المذاهب المسيحية لما بدأ كلوفيس عَمله، لكنه، في وقت ما وهو يقيم صرح امبراطوريته، اعتنق المسيحية الكاثوليكية. وقد اختار الكثلكة، ولا شك، لأنها كانت المذهب الذي دان به رعاياه الرومان، ولعلّه اختارها ايضا لأن منافسيه الجرمان، الذين كانوا يعملون على انشاء امبراطورية في جواره، كانوا من اتباع الاريوسية. في سنة ٤٨٦ اصبح كلوفيس مجاورا للقوط الغربيين على نهر اللوار، كما اصبح جارا للقوط الشرقيين ايضا، لما انتصر على الالمان (٤٩٦) في الجزء الاعلى من حوض الراين.

كان اعتناق الجرمان الشرقيين للمذهب الاريوسي (المسيحي) مجرد مصادفة للوقت الذي تنصروا فيه. إلا انهم بعد ان احتلوا ارضا رومانية غربية، وبعد ان اقاموا دولا-خليفة للامبراطورية هناك، سرهم، كفاتحين، ان يكون لهم مذهب مسيحي خاص بهم يميزهم عن رعاياهم الرومان الكاثوليك. وعلى كل فقد كان ثمن هذا التميز ان اصبحوا غريبين، الامر الذي كان عقبة كأداء للجرمان الاريوسيين، بعد ان قامت دولة الفرنج الكاثوليكية. يضاف الى ذلك ان الجرمان الاريوسيين انفسهم اسرتهم، تدريجا، الكثلكة التي كان رعاياهم الرومان، الذين كانوا يتفوقون على سادتهم مدنية، كما كانوا يزيدون عنهم عددا. ولم يتح للكثلكة الوقت لايقاع الفندال تحت تأثير سحرها (الذين كانوا يتميزون بتعصبهم للاريوسية) أو لايقاع القوط الشرقيين وقد قضي على هذين الشعبين على ايدي الرومان الشرقيين اثناء هجومهم عليهم، وذلك قبل ان تثار قضية تبديل المذهب الديني. إلا ان ريكارد ملك القوط الغربيين في اسبانية تخلى عن الاريوسية واعتنق الكثلكة طوعا (٥٨٦)، وتلاه اللومبارديون فساروا على الخطة ذاتها إلا ان التبديل عندهم كان فيه تردد كما انه تم تدريجا خلال القرن السابع.

كان القوط الغربيون قد مرت عليهم ثمانون سنة وهم محصورون في اسبانية. في سنة ٥٠٧ هزمهم كلوفيس في فوييه وطردهم من املاكهم الواقعة شمالي البرانيس، باستثناء شرحة ساحلية تمتد بين الطرف الشرقي للبرانيس ومصب نهر الرون. ومن ثم فان كلوفيس كان، قبل وفاته سنة ٥١١، قد ضم تحت حكمه ما تبقى من بلاد الغال باستثناء بروفنس، التي كان القوط الشرقيون قد انتزعوها من القوط الغربيين. كان كلوفيس قد فرض سلطته من قبل على كل اجزاء الشعب الفرنجي. وفي ٥٣١-٥٣٤ ضم خلفاؤه تورنغن وبرغندية، وفرضوا سلطتهم على بافاريا في سنة ٥٥٢. كان الميروفنجيون يقومون ببناء امبراطورية جديدة، تعتمد شمال بلاد الغال منطلقا، لتملأ الفراغ السياسي الذي خلفه انحلال الامبراطورية الغربية في غرب اوروبة. ولعلّ امبراطورية فرنجية كان مقيضا لها ان تخلف الامبراطورية الرومانية الغربية قبل نهاية القرن السادس لو ان احفاد كلوفيس لم ينظروا الى املاك الاسرة الميروفنجية كما لو كانت املاكا خاصة، كان من الممكن تقسيمها واعادة تقسيمها اجيالا متعاقبة. فهذه التقسيمات، والحروب الاهلية التي تلتها، خربت بلاد الغال وردت سادتها الفرنجة المتنافرين الى دور العاجز.

كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية لا تزال، عند مقلب القرنين السادس والسابع، تحتفظ بتفوقها البحري في الحوض الغربي، كما في الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وكانت لا تزال تخضع لسلطانها جميع جزر البحر المتوسط بما في ذلك، لا صقلية فحسب، بل ايضا شمال غرب افريقية، الذي هو اكبر جزيرة بين جميع الجزر، والذي هو جزيرة في الواقع، اذ ان بحرا من الرمال، هو الصحراء الكبرى، يعزله عن بقية افريقية. وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية لا تزال تحتفظ برأس جسر في شمال غرب ايطالية، يعتمد رافنا اضافة الى الجـزر التي تقوم في مستنقع البندقية. اما فيما يختص بالمنطقة التابعة للامبراطورية الرومانية، وهي الارض التي تحيط برومة بالذات، فقد تركتها حكومة القسطنطينية للبابا كي يقوم بحماية هذه البقعة النائية ويزود سكانها بحاجتهم، على خير ما يستطيع. ودوقية رومة هذه، التي سلمت من انصباب اللومبارديين على ايطالية لم تكن اكبر مساحة من «الأرض الرومانية» على ما كانت عليه في القرن الخامس قبل الميلاد.

يبدو ان جميع اجزاء المسيحية الغربية كانت، في القرنين الخامس والسادس، في حالة يأس شديدة. ومع ذلك، فان البعض من ممثلي الكنيسة المسيحية الكاثوليكية،

اظهروا، في احلك الساعات، روحا عالية. فقد ترك البابا ليو الاول (٤٤٠-٤٦١) اثرا فعالا في مقررات المجمع المسكوني في خلقدونية (٤٥١)، وفي سنة ٤٥٢ قام بدور قيادي في سفارة رومانية اقنعت القائد اتيلا (من الهون) بان يتوقف في هجومه على شمال ايطالية. وقد قام القديس باتريك بالتبشير في ارلندا ايام كان ليو بابا لرومة. لقد كان القديس باتريك بريطانيا رومانيا ينتمي الى الطبقة الاجتماعية ذاتها التي كان ينتمي اليها الافريقي الروماني القديس اوغسطين. كان باتريك قد وقع اسيرا في ايدي لصوص إرلنديين، واسترق. وقد هرب من الرق في ارلندا وعاد اليها فيما بعد طوعا كمبشر مسيحي (حوالى ٤٣٢-٤٦١). وقد امتدت جذور النصرانية في ارلندا، وفي القرن السادس تبنى المسيحيون الارلنديون الرهبنة بنوعيها الانفرادي والجماعي.

وفي الوقت نفسه كان القديس بندكت ينشيء رهبنته في مونتي كاسينو. وقد بدأ بندكت عمله حول سنة ٥٢٩، لما كانت ايطالية لا تزال تتمتع بالسلم. وقد توفي سنة ٥٤٧، لما كانت ايطالية تتناتشها الحرب الرومانية - القوطية. ومع ذلك فان الرهبنة البندكية لم تستمر في الحياة فحسب، بل انها انتشرت. وقد حمل الراية البندكية وعمل في سبيلها البابا غريغوريوس الاول (٥٩٠-٦٠٤). فقد جعل غريغوريوس بيته في رومة ديرا للبندكتيين، واصبح راهبا هناك قبل ان يصبح رسولا بابويا في القسطنطينية اولا، ثم بابا في رومة.

كان على غريغوريوس، بوصفه بابا، ان يطعم سكان رومة من غلة الاملاك البابوية في صقلية. كما كان عليه ان يتفاوض مع اللومبارديين المعتدين نيابة عن الامبراطورية الرومانية الشرقية. ومع ذلك فان غريغوريوس كان له من عزيمته ان يرسل بعثة تبشرية الى مملكة القوط في كنت لدعوتهم الى اعتناق المسيحية، وذلك لما كان اللومبارديون يقرعون ابواب رومة. وقد اتبعت هذه البعثة، بعد وفاة غريغوريوس، ببعثة اخرى الى مملكة نورثمبريا الانكليزية. وقد تولى المبشر الروماني باولينوس العمل في يورك (٦٢٧-٦٣٢)، ولكن في سنة ٦٣٤ خلفه في منصبه المبشر الارلندي ايدان من ايونا، وهي جزيرة صغيرة تقع في مقابل ساحل اسكتلاندا الغربي. وقد اقام ايدان ديرا في جزيرة لندسفارن (الارض المقدسة) الواقعة مقابل ساحل نورثمبريا.

وقد كانت نتيجة دخول الرهبنة الى ارلندا قيام حركة تبشيرية عارمة. اسس القديس كولومبا الدير الارلندي على جزيرة ايونا حوالى سنة ٥٦٣. وقد توفي القديس

كولومبا في ايونا سنة ٥٩٧ ، وهي السنة ذاتها التي ارسل فيها البابا غريغوريوس بعثته التبشرية من رومة الى كنت (في انكلترا) . وحوالى السنة ٥٩٠ جاز مبشر ارلندي آخر ، هو القديس كولومبا نوس من ارلندا الى بريطانية ومن هذه الى القارة . وقد اسس كولومبانوس ديرا في لوكسيل (مقاطعة برغندية) ، ولوكسيل مركز رئيس لشبكة المواصلات في الممتلكات الفرنجية . وفي سنة ٦١٠ كان القديس كولومبانوس وقد وصل الى بحيرة كونستانس . واجتاز الالب (٦١٣) واسس ديرا في بوبيو ، في شمال غرب ايطالية . وهناك توفي سنة ٦١٥ .

والفراغ الذي تركه في نورثمبريا المبشر الروماني باولينوس ، الذي شرّد في سنة ٦٣٢ ، ملأه المبشر الارلندي ايدان سنة ٦٣٤ . وقد التقى الحقلان التبشيريان ، الروماني والإرلندي ، في نورثمبريا ، كما انهما تشابكا . واصبح ، من المحتم ، ان تقوم مواجهة هناك بين الكنيستين الرومانية والارلندية .

٤٥-قيام الكنيسة المسيحية وتقسمها ٣١٢-٦٥٧

ابتسم الحظ للكنيسة المسيحية، في السنتين ٣١١-٣١٢ بشكل مفاجىء وغريب. فبعد ان كانت قد تحملت ثماني سنوات من أشد واسوأ اضطهاد عرفته على يد الحكومة الرومانية الامبراطورية جاءها اولا تسامح على يد الامبراطور غاليريوس، وهو على فراش الموت، وان كان تسامحا منحه الامبراطور على مضض. ثم، وفي غضون ثمانية عشر شهراً، احتلت، على يد الامبراطور المنتصر قسطنطين، موضعا مفضلا عمليا؛ وكان قسطنطين قد وصل الى السيادة الفعلية لنصف الامبراطورية. ومثل هذه التجربة كان مقيضا لها، في اي زمن من تاريخ الكنيسة كان حدوثها، ان تضع الكنيسة وشخصيتها على المحك؛ ولكن الكنيسة كانت شخصيتها ومنزلتها قد تضعضعتا في القرن الثالث، بسبب تضخم عدد اتباعها وازدياد ثروتها ونفوذها، وترتب على ذلك ان اصبحت الوظائف الكبرى في الكنيسة تغري طالبي المصالح. فقد وقع في سنة ٢١٧ تنافس دنيء حول اسقفية رومة. وقد تعرضت الكنيسة ايضا لاضطهادات (في السنوات ٢٥٠ و٢٥٧-٢٦٠ و٣٠٣-٣١١) كانت اكثر انتظاما واعنف من الاضطهادات القصيرة الحادة المحلية التي عرفتها في القرنين الاولين من تاريخها. واذا كانت اسقفية كاليستوس الاول لرومة (٢١٧-٢٢٢) تبدو ابعد ما يكون عن الاحترام، فان استشهاد كبريانوس، اسقف قرطاجة (٢٥٨)، يزيل تلك الوصمة.

وكان الباعث لغاليريوس على اضطهاد الكنيسة، مثل الباعث لقسطنطين في كرمه نحوها. فمنذ ان وضع اورليانوس الامبراطورية تحت نفوذ «الاله الذي لا يقهر» (اي الشمس) في مجمع الالهة (غير المسيحية) الامبراطورية، فقد اصبح من المعترف به ان وحدة الامبراطورية، بل حتى بقاؤها، لا يمكن ان يتم دون دعم من ديانة رسمية. وكانت الامبراطورية الساسانية قد اختارت، قبل نهاية القرن الثالث، المؤسسة الدينية الزرادشتية ديانة رسمية لها، بما في ذلك تنظيمها الكهنوتي. ومثل ذلك يقال في مملكة

ارمينية التي اتخذت الكنيسة المسيحية دينا رسميا لها. وبعد ان اعترف غاليريوس بان الكنيسة المسيحية كانت اقوى منه، وبعد ان ثبتت لقسطنطين عيانا قوة الكنيسة المسيحية، وذلك لما انتصر بعد ان رأى الكتابة المشهورة في حلمه، كان لزاما عليه ان يرى في المسيح «الاله الذي لا يقهر» (اي الشمس) وأن يتخذ من المسيحية الدين الذي يوحد الامبراطورية الرومانية.

كان من الطبيعي ان ينتظر من الكنيسة المسيحية، عندما تصبح لها المكانة الرسمية، ان تدعم وحدة الامبراطورية الرومانية دعما فعالا. فالكنيسة نجحت، الى سنة ٣١١، نجاحا كبيرا، في الحفاظ على وحدتها، وهذا امر حري بالاعتبار. ان الكنيسة المسيحية منذ تأسيسها بعد وفاة المسيح، كان بقاؤها مهدداً بسبب الانشقاق الداخلي، إلا ان هذا التهديد كان يتغلب عليه باستمرار. فاما ان يسترضي المنشقون، واما ان يغلب الفريق الاضعف على امره، او يطرد. في سنة ٣١١ كانت الكنيسة الكاثوليكية (اي الجامعة) وحدة من اورزوني وارمينية في الشرق الى بريطانية في الغرب، وفي تلك السنة تحررت الكنيسة، على كل، من الضغط الذي كان جد عنيف في دوره الاخير؛ وعندها عجزت وحدة الكنيسة التاريخية عن الصمود لما وضعت على المحك. فالانشقاق السابق الذي عرفه سكان الامبراطورية بين المسيحيين وغير المسيحيين حل مكانه الآن انشقاق في قلب الكنيسة بالذات. والحكومة الرومانية الامبراطورية التي كانت، منذ اعتناق قسطنطين المسيحية، تراهن على ان تدعم وحدة الكنيسة وحدة الامبراطورية، وجدت نفسها عاجزة عن اقناع الفرقاء المسيحيين المتخاصمين على احلال السلام فيما بينهم. وقد اربكت الانشقاقات الكنيسة الداخلية قسطنطين الاول منذ ان اعتنق المسيحية (٣١٢) الى حين وفاته سنة ٣٣٧. وكانت لا تزال تربك لكونستانس الثاني (حكم ٦٤١–٦٦٨). والخلاف الذي كان قائما بين حكومة القسطنطينية الامبراطورية والبابوية ايام كونستانس الثاني، حلّه العرب المسلمون (بفتحهم بلاد الشام ومصر) اذ خلصوا الامبراطورية من جميع المسيحيين القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح؛ وهكذا أُحلت الحكومة الامبراطورية من التزامها اللاعملي وهو التوفيق بين فئتين مسيحيتين يستحيل التوفيق بينهما.

ومع ان الانشقاق الكبير في الكنيسة المسيحية الذي جاء في اعقاب ٣١١–٣١٢ كان مدعاة للانزعاج بالنسبة الى قسطنطين وخلفائه. فانه لم يكن من الممكن تجنبه. ذلك انه لما اصبحت المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية. وكان من نتيجة ذلك ان

اصبح المسيحيون اكثرية السكان، لم يكن باستطاعة الحكومة الامبراطورية ان تتحكم بالكنيسة اكثر مما كانت تستطيع التحكم بها في الوضع السابق لذلك، لما كانت اقلية غير مسيحية. وليس في ذلك غرابة، فالمسيحية كانت قد ورثت من سابقتها الكره التقليدي للحلول الوسطى.

يضاف الى ذلك ان المشكلات الدينية اصبحت. في الوضع الجديد، صنوا للمشكلات الاجتماعية والسياسية. فالخصومة بين المسيحيين الكاثوليك والمسيحيين الدوناتيين. اصبحت خصومة بين نوميديا وقرطاجة. كما اصبحت خصومة بين الفلاحين ومالكي الارضين. ولاهوت اريوس.. الذي هزم اخيرا في نطاق الامبراطورية، اصبح الشارة المميزة للبرابرة الذين كانوا يهاجمون الامبراطورية. وهؤلاء البرابرة اعتنقوا المذهب الاريوسي في وقت كان هذا المذهب في صعود في داخل الامبراطورية. والجدل حول تركيب «الثالوث» صار نزاعا على السلطة الكهنوتية بين الاسكندرية (عاصمة البطالمة السياسية السابقة) وانطاكية (العاصمة السياسية السابقة للسلوقيين). والجدل الذي قام فيما بعد حول العلاقة بين الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية للاقنوم الثاني (اي الابن) آل ايضا الى خصومة بين الحكومة الرومانية الامبراطورية ورعاياها الناطقين بالسريانية (في بلاد الشام) والناطقين بالقبطية (في مصر). فقد تحدى هؤلاء الان تقوي اللغة اليونانية التي فرضها عليهم الاسكندر الاكبر والتي حافظت على وجودها بسبب السلطة الرومانية. فيما كانت الحكومة الامبراطورية تجهد في الحفاظ على سيطرتها عليهم. وبهذه المناسبة فان المجمعين المسكونيين. الثاني والرابع يسرا لبطريركية القسطنطينية الفرصة لتثبيت وجودها. فالمجمع الثاني (٣٨١) اعترف بان كرسي القسطنطينية يأتي الثاني بعد الكرسي الروماني. والمجمع الرابع (٤٥١) منح بطريرك القسطنطينية سلطانا قضائيا دينيا على اسية الصغرى (الى الشمال الغربي من سلسلة جبال طوروس) وعلى الطرف الشرقي من شبه جزيرة البلقان.

إن الخلافات الدينية التي عرفها القرنان الرابع والخامس لم تكن مجرد قناع للخصومات المدنية التي كانت نظيرة لها. إن القضايا الاخلاقية واللاهوتية والقضائية التي انقسم المسيحيون حولها كانت اصيلة. والشعور والاحساس اللذان اثارتهما هذه القضايا كانا مخلصين وواسعي الانتشار. لقد كان ثمة سبب عملي كان يدعو الى ان تشتبك المشكلات المسيحية الدينية مع المشكلات المدنية الامبراطورية بعضها بالبعض الآخر. لقد اصبحت

الكنيسة المسيحية المؤسسة النافذة في الامبراطورية الرومانية. وقد ترتب على ذلك ان جميع الشعوب والمناطق وطبقات الشعب والاحزاب التي تضمها الامبراطورية كانت مرتبطة مصالحها بما يهم الكنيسة.

وقد كانت القضية الخلقية اول قضية برزت على المسرح. اثناء الاضطهاد الذي وقع في سنوات ٣٠٣-٣١١ وكذلك اثناء الاضطهادين اللذين حصلا في القرن الثالث. تراجع بعض المسيحيين عن ايمانهم. فيما صمد البعض الآخر ودفع الاستشهاد ثمنا لصموده. والسؤال الذي طرح عندها: هل يقبل اولئك الذين تراجعوا من المسيحيين في جماعة المؤمنين الى جانب اولئك الذين صمدوا؟ ام ان المتراجعين يجب ان يوصموا بذلك الى الأبد؟ واغلب الذين ظلوا احياء من اعضاء الكنيسة كان موقفهم يتصف بالكرم النفسي والانسانية والحنكة. فقد كانوا الى جانب التسامح مع اولئك الذين ضعفوا. والمتشددون من ابناء الكنيسة. وهم قلة في الغالب. غلبوا على امرهم في معظم المناطق. ولكن في شمال غرب افريقية كان خصوم التوفيق متزمتين الى ابعد الحدود. فقد خاصموا صانعي السلام. الذين لم تخدش سمعتهم. كما خاصموا المتراجعين من المسيحيين. وهم الذين اراد المسالمون ان يتغاضوا عن تصرفهم. وقد اشتدت هذه الخصومة في شمال غرب افريقية الى حد حملت قسطنطين على التدخل سنة ٣١٣. وهي السنة التالية لاعتناقه المسيحية. كان قسطنطين يرى ان الخلاف داخل الكنيسة المسيحية امر مكروه امام الله. وانه اذا فشل الامبراطور في وضع حد لهذا الخلاف، فانه يكون، هو والكنيسة. امام احتمال ان يخسرا الدعم الالهي. وجرب قسطنطين التوفيق بين المتخالفين الافارقة. بالاقناع اولا، ثم بالقوة، لكنه اسقط في يده.

إن القضايا اللاهوتية التي دار الجدل حولها بين سنتي ٣١٧ و٦٥٧. كانت قد بدت اصولها في المعتقدات المتعلقة بالمسيح على ما تضمنته الاناجيل الاول والثالث والرابع. من الطبيعي ان تكون هذه القضايا قد اثيرت قبل سنة ٣١٢؛ وحقيقة الامر هو انه منذ القرن الثاني. كان ثمة مسيحيون يستطيعون الجدل اللاهوتي مستخدمين في ذلك الحدود الفلسفية الهلينية. وقد فعلوا ذلك-وعلى سبيل المثال هناك عمل ايرينايوس المسمى «ضد البدع»، الذي وضع حوالى سنة ١٨٥. لكن اتخاذ الكنيسة المسيحية على انها الدين المفضل. نقل الخلافات في اللاهوت المسيحي الى قضايا امبراطورية عامة. يضاف الى ذلك ان النخبة المثقفة ثقافة هلينية. ظلت. على وجه العموم. متحفظة تجاه المعتقد المسيحي. الى ان قدم لها في الحدود الهلينية. وبسبب هذين العاملين. كان قيام جدل

واضح ومجهد حول القضايا اللاهوتية امرا لا مفر منه. وذلك فيما بعد ٣١٢. وبسبب ان المسيحية تكره الحلول الوسطى فان هذه المجادلات كانت تتصف بالمكابرة والعنف.

لما وضعت الاناجيل الاول والثالث والرابع كان ثمة جماعة من المسيحيين يعتقدون بالوهية المسيح. وبموجب ماجاء في الانجيلين، الاول والثالث، لم يكن للمسيح اب؛ فقد حملت به امه البشرية بروح الله. وبموجب الانجيل الرابع فالمسيح هو كلمة الله المتجسدة. وقد كان اليهود قد توصلوا، في هذا الوقت، الى اضفاء نوع من الاستقلال على «كلمة الله» و«روح الله». وهو وضع شبيه بما اضفته الزرادشتية على مظاهر اهورامزدا المنوعة. إلا ان هذا كان الحد الاخير لما يمكن ان تقبل به اليهودية من التقليل لوحدة الله ووحدانيته. ولم يكن باستطاعة المسيحيين –ولا هم رغبوا في ذلك– ان يديروا ظهرهم للتوحيد الذي ورثوه من اليهودية، لكن انى كان لهم ان يوفقوا بين التوحيد وبين اعتقادهم بان المسيح والله كانا الهين!

لقد نص على ان المسيح تحدث عن نفسه على انه «ابن الله». ويمكن تفسير الانجيل الثاني مجازا بحيث يفهم منه ان الله اعلن للمسيح انه اعتبره ابنه بالتبني. إلا ان الاناجيل الثلاثة الاخرى كانت تتضمن ان المسيح هو ابن الله بالمعنى الحرفي للكلمة. اي ان الابوة كانت على نحو ما كانت عليه الحال بالنسبة للفراعنة (منذ زمن الاسرة الخامسة) من حيث اضفاء الابوة الالهية. وسواء اكان المسيح الها في واحد من هذين المعنيين المحتملين او الآخر، فالامر الذي لا شبهة فيه هو انه كان بشرا سويا. واذا، فاذا كان ابن الله بالمعنى الحرفي، فهذه الحقيقة اثارت قضيتين: الاولى علاقة الابن بالاب، والثانية العلاقة بين الطبيعتين الالهية والبشرية للابن نفسه. كما انها اثارت قضية ثالثة هي منزلة ام المسيح مريم العذراء. فقد كانت بشرا، ولم تكن الهة. فهل من الممكن ان يطلق عليها اسم «ام الله»، (ثيوتوكوس) باعتبار الطبيعة الالهية لابنها؟

واللاهوتيون المسيحيون، لما سألوا انفسهم هذه الاسئلة كانوا ينقلون «الكلمات» الى افاق خارجة عن نطاق التجربة البشرية. وقد وصل هؤلاء اللاهوتيون الى هذه الافاق لانهم كانوا يتكلمون ويكتبون باليونانية. والناطقون باليونانية كانوا قد اخذوا انفسهم، منذ قبيل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، يتعاملون مع الكلمات كما لو كانت الكلمات حقائق، حتى عندما تكون الكلمات امورا ليس لها نظير لا في عالم الفكر ولا في عالم الظواهر. وقد وجد قسطنطين الاول نفسه، في السنة ٣٢٤– وقد خابت اماله في حل الخلاف في شمال غرب افريقية حول المسيحيين المتراجعين هناك– انه مضطر الى التدخل في خلاف حول علاقة

الابن بالآب. هذا الخلاف كان قد نشب بين اسكندر، اسقف الاسكندرية، واريوس الذي كان راعيا من رعاة اسقفية اسكندر بالذات. وقد كتب قسطنطين الى كل من المتخاصمين بان القضية المختلف عليها بينهما لم يكن من الجائز اثارتها ابداً. وفي سنة ٦٤٨ منع كونستانس الثاني، منعا باتا اي نقاش حول القضية اللاهوتية المسيحية التي كانت سائدة في زمنه، وهي فيما اذا كان للمسيح مشيئتان وعملان ام مشيئة واحدة وعمل واحد.

من المحتمل ان «الكلمات» التي كان الخلاف يدور حولها في سنتي ٣٢٤ و٦٤٨ (وفيما بينهما من السنين) قد تحمل معنى او لا تحمل اي معنى، ولكنها من المؤكد انها اثارت شعورا عارما. وقد ترجم هذا الشعور بشكل عنف جسدي. فلجيء الى التهديد بين الرهبان المصريين و«المبتدئين» من اهل الكهنوت وبين البحارة في المجمعين المسكونيين اللذين انعقدا في افسوس في سنتي ٤٣١ و٤٤٩. وفي المناسبة الثانية اوقع المصريون اضبرارا جسدية ببطريرك القسطنطينية فلافيانوس. وقد عجز جميع الاباطرة، من قسطنطين الاول الى كونستانس الثاني، على حمل اللاهوتيين على السكوت. فقد اضطر قسطنطين الاول على عقد المجمع المسكوني الاول في نيقية (٣٢٥). وقد رئسه بنفسه وصاغ هو كلمة هوموسيوس (مساو في الجوهر) –وهي كلمة من النوع الذي كان يمقته من قبل. وقد بدا وكأن اثناسيوس، خصم اريوس، الذي خلف اسكندر اسقفا على الاسكندرية (في سنة ٣٢٨) قد ربح الجولة. ومع ذلك فقد اضطر ثيودوسيوس الاول الى عقد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية (٣٨١)، ولكن حتى يومها، لم تلق القضية التي اثارها اريوس ضربتها النهائية. فقد حمل المبشر القوطي اولفيلاس (حوالى ٣١١–٣٨٣) الى الشعوب الجرمانية الشرقية المسيحية بشكلها الاريوسي. وقد كان الامبراطوران قسطنطينوس الثاني وفالنز اريوسيين. ولما كان اولفيلاس معاصراً لهما فقد حسب انه كان يبشر بالمسيحية بصيغتها الدائمة. فلما هاجم الجرمان الشرقيون الامبراطورية، حملوا المسيحية الاريوسية معهم. والامر الذي اصدره كونستانس الثاني (٦٤٨) بوجوب الامتناع عن البحث في الموضوع، اثار احتجاجاً صاخبا من البابا مارتين الاول. ولم يخلد البابا الى الصمت إلا لما القي القبض عليه، وأوذي، ونفي الى شبه جزيرة القرم.

لم ينف اريوس ان الابن هو الله. في حياته (حوالى ٢٥٠–٣٣٦) كانت العقيدة بالوهية المسيح قد انتشرت في الكنيسة المسيحية. وقد ظل للقابلين بهذا الرأي وجود في

الاماكن ذات المنعة الطبيعية ، في اطراف العالم المسيحي : في الجبال الواقعة بين رافدي الفرات الاعليين وفي جبال البرانيس وفي استوريا . لكن اريوس اصر على القول بان الابن خلقه الاب ومن ثم فالابن لايستوي والاب زمنيا ، وليس هو كفؤا له . ومجمع نيقية (٣٢٥) وضع الاقانيم الثلاثة (الاب والابن والروح القدس) في درجة واحدة مطلقا . وقد اكد المجمع ، في الوقت ذاته ، على ان الاقانيم الثلاثة هي الله الواحد . وهذا الدمج بين التوحيد والتثليث هو امر كلامي . فالنتيجة الحقيقية لمجمع نيقية كانت وضع الابن في درجة اله ثان . واصبحت المسيحية الآن «موحدة» بالاسم فقط .

وتأليه الابن كان انتصارا لوجهة النظر المصرية ، (مع ان اريوس كان كاهنا في كنيسة الاسكندرية ، فان رأيه اللاهوتي كان انطاكيا .) وفي مجمعي افسس (٤٣١ و٤٤٩) سار المصريون خطوة ابعد . ففي سنة ٤٣١ نجحوا في الحكم على نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية . ونسطوريوس كان قد اصر على الناحية البشرية في الابن ، بان رفض تسمية العذراء «ام الله» . ومن ثم فقد وصم النساطرة بانهم اصحاب الطبيعتين (اي المؤمنون بان الابن كانت له طبيعتان غير متحدتين) . وقد كان انكسار نسطوريوس انكسارا نهائيا لمدرسة انطاكية اللاهوتية في حدود الامبراطورية الرومانية . والامبراطور انساسيوس ، القابل بمذهب الطبيعة الواحدة ، اقفل مدرسة ادسا اللاهوتية (٤٨٩) وهي التي كانت نسطورية النزعة . لكن اللاهوتيين النساطرة وجدوا ملتجأ آمنا في نصيبين التي كانت ، منذ سنة ٣٦٣ ، تقع خارج الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية . ومن ثم فان النسطورية ، مثل معاصرتها الاكثر راديكالية اي الاريوسية ، وجدت مجالا للبقاء — خارج الامبراطورية الرومانية .

وقد سار المصريون في سنة ٤٤٩ خطوة اخرى ابعد من تلك التي ساروها في سنة ٤٣١ . فقد فرضوا المعتقد القائل بان الابن له طبيعة واحدة ، وهي الطبيعة الالهية ، فيما هو متجسد في جسم بشري . لكن المجمع المنعقد في خلقدونية (٤٥١) الغى اعمال (قرارات) المجمع المنعقد في افسوس سنة ٤٤٩ . واعلن الآن ان للمسيح طبيعتين — الالهية والبشرية — اتحدتا في شخص واحد . وقد لقي المصريون الآن ما لقيه النساطرة من قبل ، فقد وصموا بانهم منشقون .

لقد وصم المصريون بذلك . إلا انه لم يكن من المستطاع لا طردهم ولا ارغامهم . فالنزعة اللاهوتية التي انتهت بالقول بالطبيعة الواحدة كانت في مصر حركة

جماهيرية. وهذه الحركة ربحت سورية الى جانبها، وهي البلاد التي كانت من قبل قد اصرت على الناحية البشرية في طبيعة الابن. والقول بالطبيعة الواحدة اسرت ارمينية ايضا. فقد اخذت الكنيسة الارمينية بالطبيعة الواحدة سنة ٤٩١، ولم تجار الحكومة الامبراطورية الرومانية لما ارتدت هذه، في سنة ٥١٨، من «الطبيعة الواحدة» الى المذهب الخلقدوني. فقد استقر الارمن على صيغة للمسيحية اختلفت عن الصيغتين الرومانية والفارسية. فاصحاب الطبيعة الواحدة وصموا الخلقيدونيين بانهم من اصحاب الطبيعتين القريبين من النساطرة، وملكيين (اي اتباع الحكم الروماني الامبراطوري). ومن سنة ٤٥١ فما بعد كان على الحكومة الامبراطورية ان تحاول ارضاء الفريقين من رعاياها - الخلقيدونيين واصحاب الطبيعة الواحدة. ولم يكن باستطاعتها ان تنفر اصحاب الطبيعة الواحدة، ذلك بان مصر وسورية (القائلتين بالطبيعة الواحدة) كانتا، من الناحية الاقتصادية، عماد الامبراطورية الرومانية الشرقية.

في سنة ٤٨٢ اصدر الامبراطور زينون «قانون الوحدة»، الامر الذي ادى الى صدع بين الامبراطورية الشرقية والبابوية. ولما عكس جوستين الاول (٥١٨) سياسة زينون وانستاسيوس الاول، وهي السياسة الممالئة للطبيعة الواحدة (ولا ريب في ان جوستين فعل ذلك بالحاح من ابن اخيه وخليفته جستنيان) تأثر اصحاب الطبيعة الواحدة سياسيا بذلك. وقد وجد جستنيان نفسه مضطرا (حوالى سنة ٥٤٣) الى القيام بمحاولة للارضاء لم تكن ذات اثر، وذلك انه وصم لاحقا المعتقدات الثلاثة التي قال بها لاهوتيو القرن الخامس بالنسطورية.

وفي الفترة التي مرت بين ٥٠٨ وسنوات ٦٣٣-٦٤١ (وهذه كانت السنوات التي كان فيها العرب المسلمون يفتحون فلسطين وسورية ومصر) كان رعايا الامبراطورية الرومانية الشرقية من اصحاب الطبيعة الواحدة في حالة ضيق. إلا ان حظهم بعث لهم بثلاثة مؤازرين اشداء: سفيروس البيسيدوني الذي كان بطريرك القسطنطينية (٥١٢-٥١٨)؛ وزوج جوستنيان الامبراطورة ثيودورا (وكان جوستنيان قد تزوجها قبل اعتلائه العرش في سنة ٥٢٧ وقد توفيت في سنة ٥٤٨، وكان لها من العمر خمسون سنة)؛ ويعقوب البردعي، الذي كان احد المقربين من ثيودورا من إصحاب الطبيعة الواحدة. وقد عين يعقوب اسقفا لاديسا (٥٤٣)، بناء على رغبة ملحة من الحارث، الامير الغساني الذي كان المشرف على المناطق الشرقية للامبراطورية الرومانية. وقد قضى يعقوب ما تبقى من

حياته وهو يتنقل من مكان الى آخر فحفظ كنيسة الطبيعة الواحدة حية وذلك بان سام رجال دين من جميع الدرجات من اتباع هذا المذهب.

وقد اضافت ثيودورا، الى كنيسة الطبيعة الواحدة، منطقة جديدة خارج نطاق الامبراطورية الرومانية. فقد استبقت زوجها (حوالى سنة ٥٤٠) بان ربحت النوبيين الى المذهب الذي تقبله هي بدل ان يعتنق القوم مذهب زوجها. وكانت مملكة اكسوم، الواقعة الى الجنوب الشرقي من نوبية (وهي اليوم الجزء الشمالي من اثيوبيا)، قد اعتنقت المسيحية حول منتصف القرن الرابع. وفي القرن السادس تقبلت اكسوم، كما تقبلت نوبيا، مذهب الطبيعة الواحدة، وكان على حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية ان تقبل بذلك. كانت اكسوم تسيطر على الطريق البحري بين مصر والهند، ومن ثم فان حاكمها كان في وضع يمكنه من التدخل في شؤون اليمن لمصلحة الامبراطورية الرومانية. ومن ثم فان القسطنطينية لم تر انه من المصلحة ان تختلف سياسيا مع اكسوم حول قضية لاهوتية.

كانت احدى نتائج التبدل التي مرت بها الكنيسة المسيحية في الامبراطورية الرومانية في ٣١١-٣١٢ هي النقلة من الاستشهاد الى التنسك بالنسبة الى الدور البراق في حياة ابطال الكنيسة. فلم يعد ممكنا ان يستشهد مسيحي على يد غير مسيحي ضمن الامبراطورية. وكان ثمة حاجة الى نوع جديد من الابطال المسيحيين، وقد تقدم النساك لتحقيق هذا المطلب السيكولوجي. وكان المتنسك القديس انطونيوس (حوالى ٢٥١-٣٥٦) ابعد شهرة واكثر احتراما من اي مصري في اي عصر فرعوني. الاَّ ان المستقبل لم ينفتح امام انطونيوس المتنسك بل انفتح امام مصري آخر، هو باخوم (٢٩٠-٣٤٥) الذي اسس في تِبنِّسيّ (في مصر العليا) إول اخوة مسيحية من الزهاد التي عاشت معا كجماعة منتظمة ومنظّمة. إن الجماعات البوذية التي كانت تعيش على هذا النمط كانت معروفة في الهند منذ ان اسس بوذا الشنغا الخاص به، وذلك قبل جيل باخوم بما لا يقل عن ثمانية قرون. ولكن مجموعة الاديرة التي انشأها باخوم كانت حدثا في الطرف الغربي من اويكومين العالم القديم.

وقد كان لهذه المؤسسة التي انشأها باخوم اثر ثابت في حياة المسيحية جمعاء. ففي القرن الرابع قام القديس باسيل، وهو من كبادوكية (حوالى ٣٢٠-٣٧٩) بانشاء رهبانية جماعية خاصة بالعالم الناطق باليونانية، كانت اقل صرامة من الصيغة التي فرضها باخوم،

وهي التي اوحت للقديس باسيل بفكرته. وتأثر القديس بندكت بالقديس باسيل، ولو جزئيا، فنظم ديرا في مونتي كاسينو، الى الجهة الجنوبية الشرقية من رومة، ووضع له قانونا، اصبح فيما بعد الاساس للرهبانية التي انتشرت في عالم اللغة اللاتينية. وقد تأصلت جذور الرهبنة، خلال القرن السادس، خارج حدود عالم اللغة اللاتينية، في ارلندا. وقانونا باسيل وبندكت كلاهما فيهما اثر من قانون باخوم. فقداستسقى كلاهما، من نظيرهما المصري، التشديد على الحياة الجماعية والنظام والعمل.

والتاريخ الروحي لباسيل وبندكت يشبه مثيله عند بوذا. فكل واحد منهم بدأ حياته ناسكا زاهدا قبل ان يقوم بتأسيس رهبانية خاصة به. وتحول باسيل وبندكت من صيغة القديس انطونيوس الى رهبنة باخوم، كان استجابة منهما للتجربة الروحية، كما كان ذلك شاهدا على حكمة باخوم. ذلك بان خلق باخوم لمنظمة الرهبنة الجماعية كان عملا فذاً؛ لان المصريين كانوا، على العموم، اكثر انجذابا نحو اسلوب التنسك في الحياة: وفي حقيقةالأمرفان لهذه الطريقة امورا تحببها الى الناس هي غير موجودة في الطريقة الاخرى. فالناسك له قانونه الخاص به، وحريته تتيح له فرصا للتقوية الروحية، مع العلم بان هذه الحرية قد تؤدي به الى نكسة توقعه في تعذيب النفس العقيم، او تلقي به في احضان الاستعراض الذاتي. والمألوف انه حيث قبل الناس التنسك اساسا للحياة كانت شهرة الناسك متناسبة مع درجة القهر الجسدي الذي يمارسه. والصيغة الجماعية لحياة الرهبنة اقل ألقا. ومع ان الاديرة التي اتبعت قانون باخوم شهرت في العالم المسيحي، فان نساك الصحراء الغربية (في مصر) كانوا ابعد صيتا. كان القديس انطونيوس اذيع الناس صيتا في ايامه في الطرف الغربي لاويكومين العالم القديم؛ ومثل ذلك يقال عن القديس سمعان العامودي بدوره (سمي كذلك لانه عاش اربعين سنة ٤١٢–٤٥٩ على رأس عامود).

فالذي يعيش على رأس عامود يثير الجماهير؛ لكن اثر الراهب الجماعي في المجتمع كان اعمق واذكى ثمارا.

٤٦-المدنية الهندية ٤٩٠-٦٤٧

كان اهتمام الهنود، في الغالب الاعم من فترات تاريخ شبه القارة الهندية، يتجه نحو الدين اكثر من اتجاهه نحو السياسة والاقتصاد. والمدونات الاصلية لتاريخ شبه القارة الهندية غزيرة المادة بالنسبة للادب الهندي الديني. إلا ان هذا الادب هو، على كل حال، صعب تعيين زمنه. وحتى التسلسل الزمني لاصناف الادب المختلفة لا يمكن التأكد منه في جميع الحالات. والضوء الذي يلقيه هذا الادب على الشؤون المدنية لا يعدو كونه مصادفة وفوريا. ومعرفتنا عن التاريخ الهندي المدني تعتمد في الغالب على ما دونه المراقبون الاجانب: الاغارقة والصينيون والمسلمون والاوروبيون. ومدرسة المؤرخين الهنود الذين اخذوا يبحثون في تاريخهم ويدونونه على الاساليب الغربية الحديثة، هي مدرسة حديثة العهد، لا ترقى الى ابعد من القرن الماضي. وحتى بالنسبة الى عصر اسرة غبتا نجد ان الحاج البوذي الصيني ما - هسين، الذي زار الهند من ٤٠١ الى ٤١٠ مصدر مهم للتاريخ الهندي. ومثل ذلك يقال عن حكم الامبراطور هرشا (٦٠٦-٦٤٧)، اذ ان حاجا بوذيا صينيا آخر، هو هزوان-تسانغ، كان في الهند بين سنتي ٦٣٥ و٦٤٣ فزودنا ببعض المعلومات. ولو انه توجد اخبار عن حكم هرشا خلفها مؤلف هندي كان من معاصري هرشا كما كان من رعاياه.

كان العامل المؤثر في تاريخ شبه القارة، بدءا من سنة ٤٥٥ وما تلا ذلك، انسياح الهون وغيرهم من الشعوب الاوراسية البدوية، مثل الغورجارا. جاء هجوم الهون الاول في سنة ٤٥٥. وقد صده سكاندا غبتا، امبراطور غبتا، الذي كان قد تولى العرش حديثا، لكن هجمات الهون تكررت، وانتهى الامر بان تقسمت امبراطورية غبتا تحت ضغط هجماتهم، وذلك بعد وفاة سكاندا غبتا (٤٨٠).

وقد رافق الصراع بين المغيرين والشعوب التي كانت تقيم في شبه القارة تقلبات

كثيرة. فقد رُدَّ الهون (٥٢٨) الى كشمير. ولكن حوالى سنة ٥٥٨ (او ٥٦٣-٥٦٧) قضي على دولة الهون الافتاليتية (الهطلية) في حوض سيحون-جيحون، وذلك نتيجة عمل مشترك قام به الفرس والاتراك. وقد اقتسم المتصرون املاك الافتاليت (الهطل) فيما بينهم؛ ولنا ان نخمن ان الهون الذين كانوا قد اقاموا لهم موطيء قدم في الهند قد وصلتهم الآن امدادات من اللاجئين من الافتاليت (الهطل). وعلى كل فان ما جرى بعد ذلك يظهر بما لا يقبل الشك بان المهاجمين لشبه القارة من البدو الاوراسيين في هذا الانسياح السكاني كانوا كثرة. فنحن نعرف انه لما فتح العرب المسلمون السند والملتان سنة ٧١١، كانت منطقة شمال الهند تقع تحت حكم طبقة مدنية تسمى الراجبوت (اولاد الملوك)، ويبدو هؤلاء وكأنهم احفاد المهاجمين الذين اصبحوا هنودا.

وقد صد الهاجمين مرة ثانية والد الامبراطور هرشا. الذي كان ملك ستانسفادا (تانسار) الواقعة في المجرى الاعلى لنهر جمنا. وقد نجح هرشا نفسه في توحيد شمال الهند سياسيا، ٦٠٦-٦١٢. وقد نعمت شمال الهند بفترة من الهدوء فيما تبقى من حياة هرشا. لكن امبراطورية هرشا بالذات لم تكن سوى مظهر كاذب لامبراطورية غبتا. كانت ميزة هرشا الرئيسة تسامحه الديني. فقد كان هو نفسه سايفا، اي من عباد الشمس، كما كان بوذيا.

بعد فترة من الانقسام السياسي في شمال الهند، الذي عقب وفاة الامبراطور اشوكا ماوريا (٢٣٢ ق.م.) وحدت الدكن سياسيا تحت اسرة ستفاهانا (اندرا). وبعد تقسم امبراطورية غبتا حوالى سنة ٤٩٠م، بدا وكأن التاريخ قد يعيد نفسه. فقد وحدت الدكن سياسيا (حوالى سنة ٤٥٣م) على يد اسرة تشالوكيا. وفي سنة ٦٢٠ كسر هرشا على يد بولاكيشين الثاني تشالوكيا، حينما كان هرشا يحاول التوسع في امبراطوريته الى الجنوب عبر نهر نربادا. وعلى كل فقد غلبت اسرة تشالوكيا نفسها على يد منافستها اسرة بلافا الهندية الجنوبية، التي كانت قد اقامت لنفسها ملكا في كانشي (كونشيغورَم) على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة. (لعلّ اسرة بلافيا كانت متحدرة من البهلافا اي السكا-الغريثين الذين كانوا قد تحكموا في حوض السند في السنوات المبكرة من القرن الاول للميلاد.) وقد ظلت الدكن، خلال القرنين التاليين لسنة ٦٤٢، موزعة بين دول محلية التي كانت تقوم بينها حروب مزمنة، لكنها لم تكن فاصلة.

والمنطقة الوحيدة التي تمتعت باستقرار سياسي في جنوب الهند بين حول سنة ٤٩٠ و٦٤٧ كانت مملكة بندا، التي استمر وجودها بسبب عزلتها النسبية في طرف شبه الجزيرة الجنوبي. والظاهرة الحضارية الوحيدة التي استمرت في الجنوب في الفترة نفسها كانت في تطور الادب المكتوب باللغة التاميلية. وهو الادب الذي بدأ ظهوره في وقت مبكر من التاريخ الميلادي.

إن المحنة السياسية التي اصابت شبه الجزيرة الهندية بعد بدء هجمات الهون (٤٥٥) لم تحِل دون انتشار المدنية الهندية خارج الحدود الوطنية لشبه القارة. فاقامة امبراطورية غبتا رافقها تكثيف لنشر الافكار الهندية في جنوب شرق اسية القاري واندونيسيا. فقد كان ثمة فورة في الهجرة الى تلك المناطق من الهند في القرن الخامس، ولنا ان نحسب ان ضغط الهون على الهند كان احد اسباب هذه الهجرة. وقد ظل نفوذ المدنية الصينية في جنوب شرق اسية القاري محصوراً فيما يطلق عليه الآن شمال فيتنام. وقد تنافست المدنيتان الهندية والصينية على النفوذ في التيبت في النصف الاول من القرن السابع. وقد تم التفوق للمدنية الهندية.

مع ان التيبت تقع على مقربة من مهد كل من المدنيتين الصينية والهندية، فانها ظلت معزولة عن كليهما، بسبب العوائق الطبيعية الكبيرة، بحيث ان ايا من المدنيتين لم تنفذ اليها حتى السنوات المبكرة من القرن السابع للميلاد. وقد توحدت التيبت سياسيا للمرة الاولى سنة ٦٠٧، ولعلّ ذلك كان تقليدا لعودة الوحدة الى الصين سنة ٥٨٩. وفي سنة ٦٤١ تزوج ملكها سرونغ-تان، في وقت واحد، اميرة صينية واميرة نيبالية. وفي ذلك التاريخ بالذات كانت الصين في دور التقدم. في ٦٣٩/٦٤٠ كان تاي تسونغ، الامبراطور الثاني من اسرة تانغ، قد بدأ حملته لفتح حوض تاريم، البلاد التي تقع الى الشمال من التيبت مباشرة. وكان رسول صيني في بلاط هرشا في الوقت الذي توفي فيه هرشا، سنة ٦٤٧. واستولى مغتصب على عرش هرشا، واساء معاملة الرسول وحاشيته. عندها هرب الرسول الصيني الى نيبال، التي كانت يومها تحت سيطرة التيبت. وقد هاجم الملك سترنغ-تان غامبو صاحب التيبت الهند، بناء على تحريض الرسول الصيني، وتغلب على المغتصب واسره ثم ارسله اسير حرب الى الصين. وعلى كل حال فقد استحوذت المدنية الهندية على مشاعر التيبت وذلك عن طريق ايجاد كتابة للغة التبيتية مبنية على الاسلوب الهندي. وكانت هذه الكتابة بالذات، لا الكتابة الصينية، هي التي استخدمت

في ترجمة المتون السنسكريتية للكتب البوذية الماهايانية الى اللغة التبتية . وهذه الترجمـات ربطت التيبت ثقافيـا لى عجلة المدنية الهندية . ومن ذلك الحين لم يعد التأثير الثقافي الصيني في التيبت ذا تفوق ، مع انه لم يكن غائبا عن المسرح التيبتي .

٤٧ - تمزق الصين السياسي وانتشار البوذية فيها. ٢٢٠ - ٥٨٩

لما جعل الامبراطور هان وو-تي (حكم ١٤٠ - ٨٧ ق. م.) الوظائف العامة في الامبراطورية الصينية حكرا على العلماء الكونفوشيين، على ان يكون اختيارهم على اساس امتحانات مسابقة، كانت غايته (على ما اشير اليه في الفصل ٣٥) ان يفتح ابواب العمل في الوظائف العامة لاصحاب المواهب الفكرية. وترتب على ذلك ان تمكن هؤلاء العلماء - المديرون الكونفوشيون - من اساءة استعمال سلطتهم بان استولوا على مساحات شاسعة من الاراضي. ففي عصر الدول الصينية المتحاربة كانت هناك طبقة اقطاعية ارستقراطية. هذه الطبقة صفاها مؤسس الامبراطورية الصينية، تشن شبه هوانغ - تي، ومؤسسها الثاني، هان ليو بانغ (كاو - تسو)، وذلك لانهما ادركا ان السماح لكبار الملاكين بالاستمرار، فانهم يزاحمون الحكومة الصينية الموحدة الحديثة النشأة، في الاستيلاء على الفائض، من غلات الفلاح الصيني. وهذا الفائض هو المصدر الرئيس لضرائب الحكومة في الصين، ما دام اقتصادها يقوم على الزراعة اصلا. واذ اصبح العلماء - المديرون في امبراطورية هان وو-تي ملاكين كبارا، فانهم اعادوا الى الحياة من جديد طبقة اجتماعية من المواطنين الذين تقووا بحيث انهم يستطيعون تحدي الحاكم، حتى في دولة صينية موحدة.

وقد كان تجميع القوى في ايدي المديرين - الملاكين (للاراضي) امرا جديرا بالاهتمام. فقد حوّلوا القسم الاكبر من فائض الفلاحين الى جيوبهم باعتباره ايجارا للارض، عوضا عن ان يجمعوا للحكومة حصتها الحقيقية، من هذا المصدر، اي ضرائب وسخرة. وانصراف المديرين - الملاكين الى الاهتمام بمصالحهم الخاصة على حساب الواجب العام ادى بالاسرة الهانية الغربية الى نهاية مفجعة (٩م). فقد حاول وانغ مانغ الدفاع عن حقوق الحكومة الامبراطورية والفلاحين، وهي مصالح متفقة، ضد

مصالح المديرين - الملاكين ، ولكنه فشل . والذي حدث هو ان الاسرة الهانية الشرقية اعادت الى الوجود النظام الذي كان اساس خراب الهان الغربية . وقد اتيح لهذا النظام ان يربح بسبب نقص السكان في الصين اثناء المنازعات الداخلية (١٨ - ٣٦م) ، الا ان العلة الاجتماعية المستمرة في الامبراطورية انتهت باسرة الهان الشرقية الى نهاية مفجعة بدورها .

وتقسم الامبراطورية (٢٢٠ -٢٢٢) الى دول خلافة للهان الشرقية قوى العلة الاجتماعية في الصين . فمشكلتها الزراعية التي لم تحل تعقدت كثيراً بسبب الحروب الاهلية ، وقد وحدت الصين ثانية في ٢٦٥ - ٢٨٠ . فقد احتلت واحدة من الدول المتحاربة الثلاث الدولتين الاخريين . الا ان الاسرة الامبراطورية الجديدة (تشِن) فشلت في حل مشكلة الاراضي ، على نحو ما فشلت سابقتاها . ومن ثم فقد تقسمت اجزاء صغيرة (٢٩٠) وفي ٣٠٤ وما بعدها هاجمت شمال الصين جماعات حربية بربرية جاءت من الاطراف الشرقية للسهوب الاوراسية . ومما يدعو الى الدهشة ان هذه النكبة لم تحل بالصين قبل ذلك .

كانت احوال الصين في القرن الثالث للميلاد شبيهة باحوال العالم اليوناني - الروماني المعاصر له . ففي الصين ، كما في حوض البحر المتوسط ، كان هناك فراغ روحي . فقد خسرت الكونفوشية مكانتها بسبب ان الموظفين الكونفوشيين اساءوا استعمال سلطتهم . فقد ادى سعيهم وراء النفع الذاتي الى تقسم الامبراطورية مرتين . وفي اواخر القرن الثاني ، فيما كانت حكومة الهان الشرقية تعاني سكرات الموت تخلت الاقلية المفكرة عن الكونفوشية الى منافستها الفلسفة الطاوية فيما كانت الجماهير تتحسس سبل الخلاص في ديانة شعبية هي الطاوية اسما . الا ان ثورات الفلاحين التي اشعلتها وقادتها هذه الطاوية الشعبية ، قضى عليها سادة الحرب الذين كانوا يقودون جيوشا خاصة محترفة ، وهم الذين اسسوا الممالك الثلاث . والطاويون الفلاسفة انحطت قيمتهم لا لانهم اساءوا استعمال السلطة ، على ما فعل منافسوهم الكونفوشيون ، بل لانهم تحاشوا تحمل المسؤولية . فقد فضلوا ان ينعموا بمباهج الحياة الخاصة . وهم ، اذ اتخذوا هذا الموقف السلبي ، كانوا امينين للتقليد الطاوي . فقد كانت الطاوية ، اثناء نشوئها في عصر الدول المتحاربة ، تنتقص من النشاط العملي ، الاقتصادي والسياسي . فقد كان مثلها الاعلى البساطة الاجتماعية على ما عرفت في عصر ما قبل المدنية .

وهذه الفلسفة السلبية لم تف بحاجات المفكرين الصينيين لا في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولا في القرن الثالث الميلادي . فالذي كانت الصين بحاجة ماسة اليه ، في القرن

الثالث الميلادي ، هو حل لمشكلة الاراضي . واذا تعذر ذلك ، ففزع روحي اكثر وفاء بحاجتهم من الطاوية التي لم تنفع المتطامنين . وقد عولجت مشكلة الاراضي في النهاية ، في القرن الخامس على يد احدى الجماعات الحربية البربرية (تو-با) التي هاجمت شمال الصين واقامت هناك دولة باسم اسرة واي . وفي الوقت ذاته كان الفراغ الروحي في الصين تملأه تدريجاً البوذية الماهـانية . كما كان هذا الفراغ في العالم اليوناني الروماني تملأه الحركة الروحية المعاصرة - المسيحية .

فمنذ القرن الثاني كانت الماهايانا تتسرب الى شمال غرب الصين من حوض سيحون - جيحون عن طريق وادي تاريم . فالهان الشرقيون كانوا قد عاودوا احتلال حوض تاريم وفرغانه في الحوض الاعلى لنهر جيحون (٧٣م) . وقد كانت سلطتهم في هذه الممتلكات في اسية الوسطى موضوع نزاع مع امبراطورية كوشان التي قامت سنة ٤٨م وكانت تقتعد هندكوش . وقد استمرت امبراطوريتا الكوشان والهان الشرقيتان في مقابلة مباشرة ، لمدة قرن على الاقل ، حتى ضعفت الامبراطوريتان كلتاهما في الجزء الاخير من القرن الثاني . وقد وقع حكم كاينشكا ، امبراطور كوشان (١٢٠ - ١٤٤م) خلال هذا القرن من المقابلة المذكورة . وكان كاينشكا يرعى الماهايانا . ولم تكن المقابلة عدائية طول هذه الفترة . فطريق الحرب الصيني - الكوشاني ، كان ايضا طريق الحرير من الصغد الى لويانغ . وفي حقيقة الامر فان الصين وما وراء النهر كانت على اتصال يكاد يكون مستمرا ، اعتبارا من سنة ١٢٨ق.م ، وهي السنة التي تأثر فيها تشانغ تشين ، وهو سفير هان وو-تي ، اجداد كوشان في ما وراء النهر .

وقد فتح الطريق الطبيعي امام دخول الماهايانا الى الصين في القرنين الثاني والثالث للميلاد . وكان المبشرون البوذيون في غاية الحماسة ، وكان الصينيون المحتمل قبولهم للعقيدة على استعداد لذلك بسبب جوعهم الروحي . لكن العامل الذي كان عثرة لم يكن طبيعيا ، بل كان عقليا . فالعقلان الصيني والهندي ، بما في ذلك اللغتان والكتابتان (الصينية والهندية) كانا بعيدين كل البعد واحدهما عن الآخر . وفي كل من هذين العالمين كانت العقلية المدنية المميزة لها مترابطة فيما بينها داخليا . فقد كانت اللغة الصينية في هذا التاريخ ، لغة غير معربة احادية المقطع ، وكانت الاشارات ، المستعملة لكتابة هذه اللغة اكثر من مجرد كتابة ، ؛ لقد كانت تعبيرا صادقا عن موقف الصيني من الحياة . وكل ما كان يعبر عنه بواسطة هذه الاشارات ، كان يبدو جافا وواقعيا . والفكر الهندي مجرد

واطنابي ، واللغة السنسكريتية الحديثة ، التي كانت الوعاء الاصلي للكتب الدينية للبوذية الماهايانية ، كانت متعددة المقاطع كما كانت مغربة في الاعراب .

يقال ان المترجمين الاولين لهذه الكتب الدينية كانوا قد بذلوا جهداً كبيراً في نقل المتون السنسكريتية الى التعابير الصينية بحيث ان النتاج لم يمكن التعرف اليه كونه بوذي اصلا ، وفي الوقت نفسه لم يتمكن القارىء الصيني من حل رموزه . وقد كان احد العاملين في حقل الترجمة (في الجزء الاخير من القرن الثاني) اميرا فرثيا ، ولكنه معروف لدينا باسمه الصيني وهو ان شبه - كاو . وكان من اقدر المترجمين كوما راجيفا (٣٣٤ -٤١٣) . كان ابوه هنديا وكانت امه مواطنة من كوتشا في حوض تاريم ، حيث كانت اللغة المحلية هندية اوروبية ، مثل السنسكريتية . كان كوماراجيفا قد درس الفلسفتين البوذيتين الرئيستين في كشمير وكشفر وكوتشا قبل ان يقع اسيرا في ايدي فريق صيني (حول ٣٨٢) . وقد انتقل من كانصو الى تشانغ -ان (٤٠١) حيث عمل هناك ثماني سنوات في نقل النصوص الدينية بمساعدة جماعة من الاختصاصيين .

كان بعض المترجمين الصينيين . ففي القرون الخامس والسادس والسابع زار عدد من الحجاج البوذيين الصينيين الهند ، امابحرااوبرا ، حيث تعلموا السنكسريتية وحملوا معهم مخطوطات للكتب الماهايانية ، التي ترجموها بعد عودتهم الى بلادهم . وقد شهر حاجان - مترجمان صينيان هما فا - هسين (كان خارج بلاده ٣٩٩ - ٤١٤) ، وهزوان - تسانغ (كان خارج بلاده ٦٢٩ - ٦٤٥) . راجع ما ذكر عنهما في الفصل السابق .

وعلى يد المترجمين هؤلاء اصبح للبوذيين الصينيين ، تدريجا ، نصوص صينية للكتب الماهايانية كان لها نكهة الاصول السنسكريتية . الا ان الصيغ الماهايانية التي تقبلها الجمهور الصيني كانت خلقا جديداً له نوع من التميز الصيني . وكان بينها مدرسة اليد الطاهرة ، التي كانت ترى الخلاص في الاميتابا . وهناك مدرسة تشان (ديان بالسنسكريتية وزن باليابانية) التي كانت تعتمد التأمل سبيلا للتنور . وقد انشأ هاتين المدرستين صينيون كانوا معاصرين لكومار اجيفا (٣٤٤ - ٤١٣) . واولئك الذين صبغوا الماهايانية صبغة صينية كان اثرهم اكبر من إثر المترجمين الذين عملوا باخلاص .

والطقوس البوذية كانت طارئة على الصينيين كما كان الفكر البوذي . فلا الاديرة ، ولا النساك طبعا ، كانت معروفة في الصين قبل وصول البوذية اليها . وكانت الفلسفة الطاوية اقرب النتاج الصيني الوطني الى البوذية تعبيرا . فالطاويون كانوا يحقرون قيام

المدنية ، وكانوا يترفعون عن الوظائف العامة ، الا أن مثلهم الاعلى لم يكن مرتبطا بالعالم الآخر. وكل ما دعوا اليه هو العودة من المجتمع التكنولوجي المعقد الى الحياة البسيطة نسبيا ، المتمثلة في قرية العصر الحجري الحديث الكافية لذاتها . ومع ذلك فان المترجمين الأول للكتب البوذية استعانوا بالحدود الطاوية اذ لم يكن سواها يمكن ان يعبر تقريبيا عن الافكار البوذية باللغة الصينية . واخذ الطاويون (فلاسفة وجمهورا) ينقلون آراء ومؤسسات عن البوذية وذلك ليتمكنوا من الحفاظ على ما عندهم امام البوذية التي غزت بلادهم واقامت لنفسها مكاناً في الصين . وقد كانت العلاقة بين الديانتين – او الفلسفتين – متبادلة . فاتباع كل منهما كانوا ينافسون الفريق منهم الآخر لانهم كانوا يدركون كنه القرابة بينهما .

من البين ان البوذية ما كانت لتجد مثل هذا القبول في الصين ، لولا ان البلاد ، في ذلك الوقت ، كانت قد بلغت الذروة في فترة طويلة عجزت فيها عن حل مشكلة الاراضي ، التي كانت عصيبة بالنسبة الى المجتمع الصيني وحكومته . وقد دفعت البلاد ثمن ذلك في تمزيق سياسي وهجمات بربرية . وخلال القرون الثلاثة (بدءاً من ١٨٥م) كان الصينيون على اختلاف طبقاتهم في حالة ترقب . كانوا فيها اكثر استعدادا من عادتهم ، لقبول ديانة اجنبية املا في تحقيق خلاصهم . الا ان الطاويين والكونفوشيين الشعبيين (في شمال الصين) كانوا يتكاتفون في الحد من البوذية عندما كانت تبدو في الافق تباشير تحسن في الوضعين الاجتماعي والسياسي . وبتأثيرهم وضعت المؤسسات البوذية تحت اشراف الحكومة ، غير منظمة من رجال الدين ، وانشئت على غرار الخدمة المدنية الكونفوشية ، وقد قامت محاولات للحد من نشاط البوذية في السنوات ٤٣٨ و ٤٤٦ – ٤٥٢ و ٥٧٤ – ٥٧٨ .

وفي القرن الرابع بلغت التمزقات السياسية والحروب الداخلية والتدهور الاقتصادي والفوضى الاجتماعية في شمال الصين مدى ابعد بكثير مما وصلت اليه الحال في الولايات الغربية من الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس . ومع ذلك فان الدول الخليفة التي اقامها البرابرة في تشين الغربية ، مثل تلك التي قامت في الامبراطورية الرومانية الغربية ، ازدهرت احوالها بقدر ما استطاعت ان تتمثل من مدنية رعاياها المقهورين ؛ وفي شمال الصين ظل الفلاحون الصينيون واصحاب الاراضي الصينيون يتمسكون تمسكا قويا بالارض الزراعية ، واحتفظوا باستغلالها ، مع تغلب البدو الرعاة عليهم ، وتغلبت التقاليد

الكونفوشية على ضغط البوذية ، بالرغم من ان هذه التقاليد قد اسيء اليها بسبب سوء التصرف الذي بدا من المديرين – الملاكين المخلوعين عن السلطة .

اعاد التو – با ، توحيد الصين ، وهم ، فيما يظن ، شعب مغولي اقام دولة – خلافة محلية (٣٣٨) لاسرة تشن الغربية ، الى الشمال الغربي من المنعطف الكبير للنهر الاصغر .

وقد اتخذت الاسرة الملكية للتوبا لقبا هو اسرة الواي الشمالية (٣٨٦) . وقد تمكنت الواي من القضاء على جميع الدول البربرية الاخرى في شمال الصين (٤٣٩) . وفي غضون النصف الاول من القرن الخامس هاجمت اسرة واي حوض تاريم خمس مرات . وقدنقل الامبراطور هسياو ون – تي ، من الواي الشمالية (حكم ٤٧١ – ٤٩٩) عاصمته من ولاية شانسي في الشمال الى لويانغ (٤٩٣) . ثم عكف ، في الوقت ذاته ، على «تصيين» زعماء قبائله وطبق حالة زعماء القبيلة لكبار الملاكين الصينيين في املاك اسرة واي . وتصيين ، التو–با الاجباري على يد الاسرة المالكة ، الذي تبعه فشل المحاولات المتتالية التي قامت بها الاسرة لاحتلال جنوب الصين ، ادى الى القضاء على الاسرة ، وتمزق املاكها . وقد توحدت شمال الصين مرة اخرى (٥٧٧) ، ثم استولى عليها (٥٨١) سوي ، مؤسس اسرة سوي ون–تي (حكم ٥٨١ – ٦٠٤) الذي نجح بعد ثماني سنوات في توحيد الصين باكملها لما احتل جنوب البلاد .

مع ان اسرة واي فشلت في توحيد الصين ، فقد قامت بحل لمشكلة الاراضي ، وهوالذي تركته ارثا لاسرتي سوي وتانغ . ذلك بان الامبراطور الكبير هسياو ون – تي ضمن (٤٨٥) حدا ادنى من الارض لكل فلاح صيني قادر كما انه انشأ تجمعات للفلاحين اصبحت مسؤولة بالاشتراك عن دفع الضرائب . ولم يجرؤ هسياو ون – تي على فرض حد اعلى قانوني لما يمكن ان يمتلكه كل من كبار الملاكين . لكنه نجح ، على الاقل ، في منع هؤلاء الملاكين من توسيع املاكهم على حساب الفلاحين أو على حساب واردات الحكومة الامبراطورية . وقد قوى خلفاء اسرة واي الشمالية الفلاحين والحكومة معا وذلك بانشاء ميليشيات مدربة من الفلاحين . وقد كان تأهيل الفلاحين في شمال الصين هذا هو المدخل الى التوحيد السياسي للصين والى انتعاش المدنية الصينية .

وقد كانت الصين التي وحدت سنة ٥٨٩ تختلف اختلافا كبيراً ، ان من حيث توزيع السكان الجغرافي او من حيث مواردها ، عن الصين الموحدة التي هاجمها البرابرة

الشماليون في ٣٠٤ وما تلاها . فالنواة الاصلية للمدنية الصينية كانت حوض النهر الاصفر الادنى ورافده (من اليمين) نهر واي . في عصر اسرة شان واسرة تشو الغربية كانت الصين تشمل الاطراف الشمالية فقط من حوض نهر هواي ، ولم تشمل اي جزء من حوض نهر يانكتسي الكبير. في العصر الذي تلا . فان الشعوب القاطنة في حوض نهر هواي . وحوض يانكتسي الادنى والمرتفعات الواقعة الى جنوب شرقي حوض يانكتسي الادنى كانت تتصين ، الواحد بعد الآخر ، وفي الوقت ذاته كان كل منها يقوم بدور مهم في السياسة الدولية الصينية . والموحد السياسي الاول للصين . وهو تشن شبه هوانغ -تي ، كان قد استولى على جنوب الصين الحالية باجمعه ، كما استولى على الجزء الشمالي من فيتنام . وضم هذا الجزء من فيتنام الى الصين كان قد تأكد امره سنة ١١١ ق.م . على يد هان وو -تي . ولم يظل مستقلا سياسيا سوى جيب ساحلي من يووِه . وعلى كل ، فان الاملاك السابقة لدولتي تشو ووو ظلت متأخرة ثقافيا ، كما ظلت الاراضي الشاسعة الواقعة الى الجنوب والجنوب الغربي من اراضي هاتين الدولتين قليلة السكان ، ولم تتقدم زراعيا .

ان الهجمات البربرية التي بدأت سنة ٣٠٤ على شمال الصين ، دفعت بالسكان الى هجرات على مقياس لم يعرف قبلا ، بقصد استعمار الجنوب والافادة منه اقتصاديا . ومع ان الفلاحين وكبار الملاكين الصينيين في الشمال استطاعوا الصمود وتمكنوا من «تصيين» البرابرة الظافرين وان يعيدوا الى الصين كلها وحدتها ، فقد كانت ثمة هجرات مكثفة من الشمال الى الجنوب خلال الفترة من ٣٠٤ الى ٥٨٩ . فقد تمكن فرع من اسرة تشن (تشن الشرقية) من اعادة امبراطورية تشن في الجنوب ، متسترين خلف المستنقعات والطرق المائية في الحوضين الادنيين لنهري هواي ويانكتسي . وقد اسقط في ايدي البرابرة في محاولة مهاجمتها اكثر مما اسقط في ايدي البرابرة في المغرب امام المستنقعات المصغرة حول رافنا او الاخوار المائية حول البندقية ، وذلك في الطرف المقابل من اويكومين العالم القديم .

حوضا نهري هواي ويانكتسي الادنيان صالحان لانتاج الارز بكثرة ، عندما يتم تعهد الارض تصفية وريا . والبلاد الواقعة على جانبي خط تقسيم المياه بين حوض يانكتسي وبين السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية للصين الحالية ، تتكون من مرتفعات ، بعضها جبلي . لكن الجنوب باكمله تسقط فيه امطار غزيرة ، ومن ثم فان سكانه لم يكونوا يعيشون في خوف من القحط الذي قد يسببه الجفاف . وهذا على عكس ما كان يصيب سكان شمال الصين ، حتى في الاراضي الخصبة . يضاف الى ذلك ان سكان الجنوب

الوطنيين كانوا ، في غالبيتهم ، ممن يسهل اخضاعهم وتمثلهم ، على عكس جيران اهل شمال الصين من البدو الرعاة. وقد كان في الولايات الشمالية الغربية من الامبراطورية الرومانية ما يشابه ، اقتصاديا ، الولايات الجنوبية في الامبراطورية الصينية. فقد كان شمال غرب اوروبة يمكنه ان يزود منطقة المشرق باحتياطي كبير من الاراضي الخصبة الغنية بالماء. إلا ان هذه المنطقة كان الرومان قد تعذر عليهم احتلالها ، وفي النهاية كان اصعب عليهم الدفاع عنها امام غزوات المهاجمين من البرابرة. وقد حاول جستنيان الاول ، امبراطور الامبراطورية الرومانية الشرقية ان يعيد الى الامبراطورية الرومانية وحدتها (٥٣٣–٥٦١) من نقطة انطلاق عسكرية في المشرق. إلا ان نجاحه كان جزئيا وموقتا ، وقد كان ثمن ذلك خراب المشرق ، وخراب ايطالية الى درجة ابعد.

وقد تعاقبت على السلطة في جنوب الصين (٣١٧–٥٨٩) خمس اسر امبراطورية. وقد دفعت عن البلاد خطر البرابرة الشماليين ، وسيطرت على الجنوب باكمله حتى بعض اجزاء شمال فيتنام. وقد تم توحيد الامبراطورية الصينية (٥٨٩) بثمن ضئيل. وفي هذه الصين الموحدة كان ثمة انتقال للمراكز الرئيسة ، سكانيا وزراعيا ، الى الجنوب. وانتشرت احواض الارز حيث كانت الذرة تزرع ، كما ان حقول القمح الشمالية اصبحت المصدر الرئيس للمواد الغذائية للعاصمة الامبراطورية للصين الموحدة ، بل وفي حقيقة الامر لجميع سكان الصين.

إن فترة الاضطراب والتمزق الطويلة التي مرت بها الصين لم تقلل من قيمة المدنية الصينية ، كما انها لم تمنع انتشارها ما وراء حدود الصين بالذات. إن هجوم البرابرة على شمال الصين (بدءا من ٣٠٤م) اتاح للكوريين القضاء على مواطىء الاستعمار (٣١٣م) التي اقامها الامبراطور هان وو–تي بعد الفتوح التي قام بها هناك (١٠٩–١٠٨ ق.م.). وفي الزاوية الشمالية الغربية من كوريا ظلت هذه المراكز الصينية قائمة خلال القرون الاربعة الفائتة. وقد تفسخت كوريا الان ثلاث دول وطنية ، عدا عن الجسر القائم على الساحل الجنوبي الذي كان تحت سيطرة اليابان. وعلى كل فان دولة من الدول الكورية الوطنية الثلاث ، وهي القائمة في اقصى الشمال (واسمها كوغوريو) اعتنقت البوذية في صيغتها الصينية (٣٧٢) ، كما انها «صينت» نظامها الاداري حول التاريخ نفسه.

كانت الامبراطورية اليابانية ، ومركزها في ياماتو (في الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة الرئيسة هونشو) ، قائمة ، وكانت قد اخذت بالتوسع في القرن الثالث الميلادي.

لعلّ آثار المدنية الصينية كانت قد اخذت بالتسرب الى اليابان منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وقد ازداد هذا التسرب شدة في القرنين الخامس والسادس للميلاد، وذلك بسبب هجرة مكثفة الى اليابان قام بها كوريون ادعوا انهم متحدرون من اصل صيني. وسواء اصبحت دعوة هؤلاء في انهم كانوا متحدرين من صيني عصر هان ام لا، فالمهم انهم حملوا المدنية الصينية معهم. وقد كان اليابانيون قد تعرفوا الى الكتابة الصينية منذ القرن الخامس للميلاد، وفي ذلك القرن كانت المدنية الصينية التي دخلت اليابان بطريق كوريا تضم البوذية، وقد قبل اليابانيون الصيغة الصينية من الماهاياناتية في شكلها الكوري خلال القرن المنتهي في سنة ٥٨٧م. ولم يقبل اليابان على اقتباس الانظمة السياسية الصينية إلا بعد ٥٨٩ أي بعد اعادة الوحدة السياسية الى الصين، ولما تمت عودة النظام الاداري الذي كان هان وو–تي قد اخذ بتنفيذه في الصين.

٤٨ - المدنيتان الميزو - اميركية والاندية حول ٣٠٠ - ٩٠٠

ان المسيرة الزمنية للمدنية الميزو اميركية لهذه الفترة قد قبلها علماء الأثار، فاصبحت امرا معترفا به. وثمة اجماع حول المسيرة التاريخية النسبية للمراحل المختلفة للمدنية الاندية (مع وجود خلاف حول الفترة الممتدة من حول سنة ٤٠٠ ق.م. الى حول سنة ١٤٣٨م). وفي هذا الفصل (كما كان الحال في الفصل التاسع والثلاثين) نقبل التأريخ الذي كشفه الاشعاع الكربوني على انه صحيح على وجه التقريب: اي ان المرحلة المشعة من التاريخ الهندي كانت حول سنة ٣٠٠ م على وشك النهاية. وأن الجزء الاكبر من افق تياهواناكو يقع بين سنتي ٥٠٠ و ٩٠٠ للميلاد.

ان عالم ميزو اميركة بلغ عهده الكلاسيكي بين سنتي ٣٠٠ و ٦٠٠ م. في فترة القرون الثلاثة كانت مدينة تيوتهوا كان لا تزال مزدهرة، وكانت الصيغة المايانية لمدنية ميزو اميركة قد ثبتت نفسها لا في منطقة مايا الوسطى فحسب. بل في يوكاتان كذلك. وقد كانت تيوتهواكان تسيطر ثقافيا (خلال هذه القرون) على مناطق مايا الثلاث - يوكاتان والمنطقة الوسطى والمرتفعات - بحيث انه يظهر ان هذه المدينة كانت تسيطر سياسيا على منطقة مايا باسرها. فقد انشىء في اوكسكنتوط (في غرب يوكاتان) مركز لطقوس مايا الكلاسيكية (قبل سنة ٦٠٠) والاسلوب الذي يرى على الأثار هناك هو من نوع تيوتهواكان لا من نوع مايا. ومن الناحية الثانية فانه المركز الطقسي في كوبا (في شرق يوكاتان) والذي انشىء ايضا قبل سنة ٦٠٠ كان متأثرا مباشرة بالأثار الكلاسيكية لمنطقة مايا الوسطى.

وقد دمرت تيوتهواكان فجأة حول سنة ٦٠٠. وقد تم هذا الدمار بعنف. ويبدو ان المخربين هؤلاء كانوا من البرابرة الذين انقضوا عليها من صحراء المكسيك. ونجد في شولولا. وهي قريبة من تيوتيهواكان. نموذجا مستقلا خاصا بالطبقات الاثرية هناك (بعد سنة ٦٠٠). اما في ما تبقى من عالم ميزواميركة فان اثر تيوتيهواكان يقف حول سنة

٦٠٠ . وقد قضي على شولولا حول سنة ٨٠٠ . على ايدي برابرة جاءوا من الشمال .

في القرن التاسع نجد ان المواقع الكلاسيكية في مايا الوسطى تهمل واحدها بعد الآخر (مع ان المايا لم يكن لهم علاقة بالدمار الذي حل بالشمال) . اننا لا نعرف سببا للتخلي عن هذه المراكز الطقسية التي تعود الى الفترة الكلاسيكية في منطقة مايا الوسطى . ومن ابرز الآثار الفنية هي الجدرانيات التي رسمت في مكان الى الغرب من نهر اوساماسنتا في القرن التاسع . اي قبيل بدء التخلي عن منطقة مايا الوسطى .

والرسوم الجدرانية التي اشرنا اليها فيها من الوحشية ما يذكرنا بما كان يفعله الاشوريون في اسرى الحرب . وقد اقترح تفسيران للخراب الذي اصاب منطقة مايا الوسطى . اولهما ان الجماعات هناك قضت على نفسها نتيجة حروب داخلية انتحارية . الا ان المواقع الكلاسيكية المهجورة لا تزودنا بما يدل على تدمير مقصود . كالذي نجده في الاماكن الاخرى المذكورة . والتفسير الثاني هو ان الفلاحين فقدوا ثقتهم في مقدرة المؤسسة . على تسيير الكون – وبشكل خاص عجز المؤسسة . عن اقناع اله المطر في ان يرسل من الغيث ما يمكنهم من انتاج غلات صالحة . ومعنى هذا ان الفلاحين الذين خابت آمالهم قطعوا عن المؤسسة موارد المواد الغذائية . ولعلهم رفضوا القيام باعمال السخرة القاسية التي كانت ضرورية لصيانة الابنية او اقامة الجديد منها . ومع ذلك فاذا صح ان هذا هو السبب في التخلي عن المواقع الكلاسيكية في منطقة مايا الوسطى . فانه لا يفسر استمرار صيغة على اسلوب مايا من مدنية ميزواميركة استمرت حية في منطقة يوكاتان الصخرية الجافة – ولو ان هذه المدنية كانت على شكل متدن بالنسبة لما سبق .

وقد استمر العصر المزدهر (المتسع) في المدنية الاندية بعد سنة ٥٠٠ . اذ انه امتد من حول سنة ٤٠٠ – ١٠٠٠ . وكان اذن معاصرا للعصر الكلاسيكي . لمدنية ميزو اميركة .

وقد عرضنا المرحلة المزدهرة من المدنية الاندية في الفصل التاسع والثلاثين . وها نحن اولاء نعرض الآن موجزا لمدنية تياهواناكو – هواري .

يشبه افق تياهواناكو – هواري افق تشافين القديم في ان كليهما قام اصلا في منطقة مرتفعة . وقد اتسع الافق فيما بعد من منطقة في المرتفعات الى اجزاء اخرى من المرتفعات وكذلك الى اجزاء من السهل الساحلي . ويتفق هذان الافقان الانديان في ان كلا منهما يتمثل في الفنون المنظورة بما يدل على انه شعار لديانة تبشيرية . ومع ذلك فعندنا ما

يؤكد ان حضارة تياهواناكو قد فرضت على بيرو الساحلية بالقوة ، الامر الذي لا نجده في حضارة تشافن .

تقع تياهواناكو على نحو واحد وعشرين كيلومترا الى الجنوب الشرقي من الطرف الجنوبي الشرقي لبحيرة تيتيكاكا . ويبدو انها كانت مركزا طقسيا لكنها لم تتخذ صفة المدينة . البناء الكثيف الضخم القائم فيها اعظم من هواري المعاصرة لها ومن تشافن القديمة . ويبدو ان اسلوب تياهواناكو وجد في المكان نفسه في عصر الازدهار ، مع انه لم ينتشر في اجزاء اخرى من البيرو الا بعد انقضاء عصر«الازدهار» . فاذا كانت حضارة تياهواناكو وصلت الى الساحل عن طريق الفتح ، فقد يكون هذا واحدا من الاحداث التي قضت على عصر الازدهار .

٤٩ - محمد النبي والسياسي من حول سنة ٥٧٠ الى ٦٣٢

كان لعبقرية النبي محمد اثر كبير في نقل رسالة ربه الى قومه ؛ وقد كان تاريخ الجزيرة مرتبطا بذلك . ذلك بانه منذ ان دجن الجمل . قبل ايام محمد بنحو الفي سنة . اصبحت الجزيرة العربية مما يمكن اجتيازه من مكان الى آخر . واخذت الاراء والتنظيمات تتغلغل الى شبه الجزيرة من الهلال الخصيب الذي يصاقبها الى الشمال . وهذا التغلغل كان اثره تراكميا ، وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الانفجار . وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب . اذ تلقى هذه الشحنة فاحسن استعمالها . وذلك برؤيته النيرة وتصميمه وحكمته .

وشبه الجزيرة العربية هو شبه قارة . فمن حيث المساحة هي في حجم شبه جزيرة الهند واوروبة . ولكن . على العكس منهما . فهي جافة . باستثناء المرتفعات القائمة في زاويتها الجنوبية الغربية (في اليمن وعسير) التي تقنص الامطار الموسمية . والتي هي نموذج مصغر لمرتفعات اثيوبية - اريتريا . على الساحل الغربي للبحر الاحمر . وتقوم مكة . موطن النبي . على جزء اقل ارتفاعا نسبيا . في المرتفعات التي تطل على الساحل العربي للبحر الاحمر . الا انها بعيدة عن متناول الامطار الموسمية . وليست مكة معدومة المطر ؛ ذلك بان استمرار السكن فيها يعود الى وجود بئر دائمة فيها . الا ان ثروتها المائية لم تمكن لسكان مستقرين ان يحصلوا على قوتهم من الزراعة او حتى من رعي الحيوان . وهو المصدر الوحيد للعيش الذي ظل حتى قبل فترة قصيرة يعتمد عليه القسم الاكبر من سكان الجزء المعمور منها ، البالغ ثلاثة ارباعها . وجماعة مستقرة تقيم حول بئر مكة ، يجب ان تعيش على التجارة . وكان من الضروري ان يقوم فيها نوع من التقديس الديني يحميها من البدو الذين قد تغريهم الظروف بان يتقاضوا مغارم كثيرة من قوافل التجار .

كان من اثر تدجين الجمل ان ارتبطت اليمن بفلسطين وسورية بطريق بري . وهذا الطريق يجوز بمكة ؛ ولما اقيمت الكعبة على مقربة من البئر . وتقبل الناس مكانتها .

اصبح المكيون يقيمون السوق السنوية التي كان يؤمها التجار . وهم حجاج في الوقت ذاته . في فصل من السنة يتفق فيه على ان تخفر الذمم لانه فصل الاشهر الحرم .

مع ان سكان الجزيرة العربية كانوا . ولا يزالون . منتشرين في الرقعة الواسعة . فانهم في مجموعهم كانوا دوما كثيرين . وذلك بسبب الاتساع اولا . وثانيا لأن الهضبة التي تنحدر تدريجاً من المرتفعات الغربية نحو الخليج العربي ووادي الفرات صحية . وقد قست الطبيعة في الجزيرة العربية على الانسان الى ان استخرج النفط . فحتى ذلك الوقت كان سكان الجزيرة العربية . باستثناء اليمن . في جوع دائم . وكان تغلغل المدنية التدريجي . الذي كان يتم على الجمل . في الجزيرة العربية يرافقه تفجر سكاني الى خارج الجزيرة .

ان جميع اللغات السامية ظهرت اصلا في الجزيرة العربية . وقد تم انتشارها خارج الجزيرة على ايدي انسياح المهاجرين من شبه الجزيرة . فقد ادخلت جماعات من اليمن لغة يمنية سامية الى المرتفعات الاثيوبية – الارثرية في زمن مجهول . كما ادخلت اللغة الاكدية الى حوض دجلة والفرات . واللغة الكنعانية الى فلسطين وسورية وبعد ذلك . على التوالي . اللغتان العمورية والارامية الى جناحي الهلال الخصيب . وذلك قبل ان يبدأ المهاجرون العرب السير في خطى الشعوب السامية التي سبقتهم . والتفجر السكاني العربي الذي لدينا عنه اخبار مدونة حدث في القرن الثامن قبل الميلاد . وقد صده الاشوريون . وقد فشلت المملكة السلوقية في صد تفجر سكان عربي ثان في القرن الثاني قبل الميلاد . وعندها تمكن العرب من اقامة مستوطنات دائمة لهم في كل من سورية وبلاد الرافدين . والتفجر السكاني الكبير الذي جاء في اعقاب وفاة الرسول (٦٣٢م) . والتفجر الذي جاء فيما بعد في القرن الحادي عشر . اديا الى تغلب العنصر العربي في الهلال الخصيب وشمال افريقية . واليوم نجد ان اللغة السريانية (المتحدرة من اللغة الارامية) التي كانت سلف اللغة العربية في الهلال الخصيب . تكاد تكون معدومة ؛ واللغة القبطية . المتحدرة من اللغة الفرعونية القديمة . لا وجود لها . الا في الاستعمال الكنسي ؛ وفي شمال افريقية نجد ان اللغة البربرية التي كانت لغة السكان الاصليين . يَكاد وجودها يكون منحصرا في صعاب المرتفعات وفي الصحراء . وذلك بسبب التقدم الذي احرزته اللغة العربية هناك .

ولما جاء الرسول كانت مؤسسات واراء قد وصلت الجزيرة في الحركات الداخلة اليها . وكانت قد بلغت درجة قوية . فثلاثية الهات التي كانت تعبد في القرنين الثاني

والثالث للميلاد في الحضر . في شمال شرق بين النهرين . وفي واحة تدمر . الواقعة على الطرف الشمالي الاقصى للصحراء العربية . كانت قد وصلت الى الحجاز (مرتفعات الجزيرة العربية في شمالها الغربي) . واليهودية . التي ادخلت الى البلاد اولا على ايدي اللاجئين بسبب الحروب الرومانية اليهودية (٦٦-٧٠م و ١٣٢-١٣٥م) اعتنقها بعض سكان الواحات الحجازية في تيماء وخيبر ويثرب (المدينة المنورة) . كما قبلتها قبائل يمنية . وقد اعتنق المسيحية ايضا جماعات يمنية . وقد جرت اليمن في القرن السادس الميلادي الى مجال التنافس التجاري والسياسي بين الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية) والامبراطورية الفارسية (الساسانية) . وقبيل سنة ٥٢٣ وبعد ذلك بين حول سنتي ٥٢٨ و ٥٧١ كانت اليمن تابعة لمملكة اكسوم ، التي كانت مسيحية ، وكانت ، من ثم ، تدور في فلك الامبراطورية الرومانية الشرقية . وبين سنة ٥٧١ وسنة ٦٣٠ خضعت للحكم الفارسي . وفي سنة تقع في الربع الثالث من القرن السادس حاول حاكم اليمن الاكسومي القيام بحملة عسكرية ضد مكة .

وقد شهدت المنطقة . في حياة محمد (حول ٥٧٠-٦٣٢) آخر حربين واعنف حربين دارت رحاهما بين الرومان (البزنطيين) والفرس (الساسانيين) وذلك في السنوات ٥٧٢-٥٩١ و ٦٠٤ - ٦٢٨ . وكانت كل من الامبراطوريتين قد اتخذت لها من العرب المقيمين على تخومها حماة لها في مقابلة الامبراطورية المنافسة لها . وكانت عاصمة العرب الذين كانوا الى جانب الفرس مدينة الحيرة . التي كانت تقع على مقربة من الموضع الذي مصرت فيه الكوفة فيما بعد . وكانت الاسرة العربية الغسانية تحرس تخوم الامبراطورية الرومانية الشرقية في سورية . وقد قام العرب بالنسبة الى كلتا الامبراطوريتين اثناء الحرب التي دارت بينهما باعتبارهم مقاتلة وعمالا . وترتب على ذلك ان هؤلاء العرب تمرسوا بالحرب واساليب القتال . وقد كانوا ينفقون بعض ما ينالونه من اجر في شراء المعدات – ومثال ذلك في شراء الدروع وفي تربية الخيول المقاتلة . والجواد العربي الجيد كان امرا فذا : ففي الجزيرة العربية بالذات كان . ولا يزال . طفيليا على الجمل ؛ وخارج الجزيرة . وبعد وفاة النبي . حمل الجواد العربي الفاتحين العرب الى نهر اللوار (في فرنسة) ونهر الفولغا (في روسيا) ونهر سيحون (في اواسط اسية) .

وهكذا . ففي ايام النبي . كانت مدنيات المشرق وايران تحيط بمكة من كل صوب . وقد خرج محمد نفسه الى مقابلة المدنية البزنطية . وعندما لم يكن العرب يقومون بالحروب الى جانب البزنطيين او الساسانيين . كانوا يقومون باعمال تجارية معهم . وقد خرج

محمد نفسه في قوافل تجارية من مكة ، لحساب السيدة خديجة ، التي اصبحت زوجه فيما بعد . والمرجح ان المرات التي خرج فيها النبي كانت في سنوات السلم (بين الامبراطوريتين) بين سنتي ٥٩١ و٦٠٤ . وبعد ان بدأ خسرو الثاني الساساني هجومه واحتلاله ما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصر ، اصبحت التجارة الملكية مع الامبراطورية البزنطية مضعضعة . ولما تلقى محمد الوحي لاول مرة (حول سنة ٦١٠) كان قد تزوج خديجة ، واتخذ في مكة دارا له .

كان جبريل ينقل الوحي الى محمد ، وأصل الرسالة هو التوحيد اي لا اله الا الله . وفكرة الوحدانية كانت قائمة في اجواء الجزيرة العربية يومها ، كما انها كانت قد انتشرت عمليا في انحاء الامبراطورية البزنطية خلال القرن الرابع ، وهو القرن الذي اعتنق في مطلعه الامبراطور قسطنطين الاول المسيحية (٣١٢) . وبموجب الرسالة التي حملها محمد الى اتباعه فان اول ما يطلبه الذين يعتنقون الرسالة هو اسلام النفس لله (وهذا معنى كلمة الاسلام في العربية) . وهناك الواجب المترتب على الاغنياء والاقوياء نحو الفقراء والضعفاء – مثلا نحو الارامل واليتامى .

ولم تقبل مكة رسالة محمد . فقد كانت مكة دولة – واحة يتحكم في شؤونها اوليغارقية تقوم على رأسها قريش ، التي كانت تعتمد على التجارة في ثرائها . على نحو ما كانت اوليغارقية تدمر في القرنين الخامس والسادس للميلاد . وقد كان القريشيون مهرة وقساة في تنظيم الأعمال الاقتصادية الخاصة . وكانوا يعرفون ان نجاح تجارتهم مرتبط ارتباطا وثيقا بمكانة الكعبة الدينية . وكانوا يخشون ان يؤدي انتشار التوحيد الى زوال قيمة الكعبة (وكانت مجمعا لآلهة كثر) . ومن ثم ان التجارة المكية ينالها الضعف بسبب اهمال المكان المقدس المرتبط بها . ولعلّ بعض زعماء قريش كانوا يضيقون ذرعا بمحمد نفسه وبعزمه وايمانه . ذلك بان النبي لم تكن اسرته . مع انها قريشية . في نظر هؤلاء من النخبة بينهم .

ظل محمد ثلاث عشرة سنة في مكة وهو يدعو الناس الى دين الله . فيما كان يتعرض للاذى . وقد قبل دعوته نفر ضئيل . وقد اصبح هؤلاء عرضة للضرّ حتى ان محمدا رغب اليهم في الهجرة الى مملكة اكسوم المسيحية (الحبشة) . وفي سنة ٦٢٢ تبدل الوضع تماما لمصلحة محمد ورسالته . فقد جاءه رسل من الدولة – الواحة الزراعية يثرب (المدينة) يطلبون اليه ان ينتقل اليهم ويتولى امورهم . كانت يثرب قد مزقتها الخلافات

السياسية التي فشل اهل يثرب في وضع حد لها . وفي سنة ٦٢٢ خرج محمد من مكة مهاجرا وبصحبته ابو بكر فقط . وقد نجا الرجلان من الذين لحقوا بهما من مكة . وقد قام محمد في يثرب بدوره السياسي في غاية البراعة . ويبدو ان اهل يثرب كانوا قد ادركوا حنكته تماما . ومع ان خبرته الادارية لم تكن تتجاوز النظر في امور مذهب ديني اتباعه قلة . فقد اثبت انه حري بالاضطلاع بالمسؤولية الجديدة . وفي هذا المجال الاداري الواسع الذي انفتح امامه بوصفه مدعوا لحكم يثرب . وفق محمد فيما بين التحزبات اليثربية . كما آخى بين اهل يثرب ومسلمي مكة الذين انضموا اليه في يثرب . ويبدو ان سكان يثرب . من غير اليهود . اقبلوا على اعتناق الاسلام . واصبحت هذه العقيدة المشتركة (بين مهاجري مكة وانصار المدينة) عروة وثقى تربط بينهم .

الدول ذات السيادة تشن الحروب . ولم يتوان محمد . وقد اصبح الآن حاكما . في شن حرب ضد اهله المكيين . وكان ثمة احتمال في ان ينجح : وقد نجح فعلا . وهذا النجاح هو الذي ادخل الدين في السياسة والحرب .

كان محمد . في يثرب . يحتل موقعا استراتيجيا جيدا . يعينه في حربه ضد مكة . لان المدينة كانت تعترض الطريق البري الذي يربط مكة بسورية . وقد اغار محمد على قوافل مكة . واستسلمت مكة سنة ٦٣٠ ، الا ان النبي منح قبيلة (قريش) شروطا فيها تساهل . ولما اوصى بالحج الى بيت الله الحرام والكعبة المشرفة . رأى القرشيون في هذا حفاظا على مصالح مكة . ولما انتقل النبي الى الرفيق الاعلى (٦٣٢) كانت سيادة حكومته قد اعترف بها في الجزيرة العربية حتى حدود المراعي التي ينتفع منها العرب الذين كانوا يعملون للدولة البزنطية او للدولة الساسانية . والحروب التي شنها محمد بين ٦٢٢ و ٦٣٢ كانت امرا بسيطا اذا قورنت بالحروب المعاصرة لها التي قامت بين الفرس والرومان (الساسانيين والبزنطيين) . الا ان النتيجة المشتركة للحروب الكبرى في الشمال والحروب الصغرى في الجنوب . كانت كبيرة بالنسبة لما ترتب عليها من آثار مهمة .

كان اليهود والمسيحيون في نظر الاسلام «أهل كتاب» . وكان القرآن آخر ما انزل على النبيين . وقد انزل قرآنا عربيا لعل الناس يعقلون . وقد كان محمد ينتظر من المتهودة في يثرب ان يولوه تأييدهم وان يقفوا الى جانبه . وقد كان ما يحمله على ذلك هو ان التوحيد هو الحقيقة الرئيسة في الاسلام . كما كان في كتب اليهود والمسيحيين . وعلى كل فان اليهود الذين ثابروا بعناد على يهوديتهم ولم يقبلوا بالمسيحية بديلا عنها . ما كانوا ليتخلوا عن

يهوديتهم ويقبلوا بالقرآن ، وقد انزل بالعربية .

لم يقبل يهود يثرب ، كما قبل وثنيوها ، دعوة محمد الى الاسلام ، لكن اليهود تصرفوا تصرفا متهوراً اخرق دون ان يكون لذلك داع . فانهم فضلا عن نيلهم من القرآن بالذات ، نظموا عصياناً واشتركوا في مؤامرة ضد المسلمين . فحل بهم العقاب : فصودرت املاكهم واجلوا عن المدينة تدريجا ، ثم صودرت الاملاك في خيبر .

٥٠ - توسع الدولة الاسلامية ٦٣٣ - ٧٥٠

لما انتقل محمد الى الرفيق الاعلى ساور بعض النفوس شك في ان الاسلام او الدولة الاسلامية يمكن ان تتغلب على الصعاب التي قامت في الطريق . الا ان هناك من العرب من كان يعتقد بان النصر الذي ناله النبي في حياته بتأييد من الله لا يمكن لاله آخر ان ينتزعه . ومن ثم فان الذين قبلوا الاسلام كانوا واثقين من ان اله محمد كان قادرا . لكن بعضهم كان يتضايق من الزكاة ولعلّ البعض لم يحبوا كثرة الصلاة . ومن ثم فان وفاة محمد كان لها رد فعل قوي (خارج مكة والمدينة) بحيث اتخذ شكل ثورة واسعة النطاق تولى قيادتها نبيَّة وانبياء محليون ادعوا ان الله شملهم واقوامهم برضاه .

وتغلبت قوات المدينة ومكة المشتركة على المرتدين . فهي . اي القوات . بالاضافة الى ما كان يحدوها من ايمان كانت قوات يثرب تقاتل من اجل ان تظل مدينتهم - وقد اصبحت مدينة الرسول او المدينة - عاصمة للدولة الجديدة ؛ اما المكيون فقد قاتلوا ليحتفظوا لمكة بالمنزلة الخاصة التي اصبحت للكعبة بسبب الحج اليها . وهذان امران كان لهما مكاسب اقتصادية خاصة . وقد غلب المرتدون على امرهم - غلبتهم قريش بقدراتها . وقد اثبتت قريش سنة ٦٣٣ انها تستطيع ان تتفوق في ميادين جديدة - الحكم والقيادة والدبلوماسية - على نحو ما تفوقت في اعمال السلف التجارية . وقد كان بين من نصر الاسلام وانقذ البلاد من الوضع المتردي للدولة في سنة ٦٣٣ . فئة من اولئك الذين اعتنقوا الاسلام مترددين ومتأخرين : مثل خالد بن الوليد اكبر ضباط الدولة الاسلامية نشاطا وحركة ومعاوية بن ابي سفيان . ولعلّ مما اعان قوات يثرب ومكة على التغلب على اهل الردة . هو السبيل الجديد التي فتحه خليفة رسول الله . ابو بكر . امام هؤلاء المرتدين . ذلك ان الخليفة . بالاتفاق مع اولئك الذين كان يشاورهم في الامر . وجّه همه نحو الدولتين المتاخمتين للجزيرة العربية شمالا . وكانت الدولتان قد اضنتهما الحرب الرومية - الفارسية (٦٠٤ -٦٢٨) . فكان من المحتمل ان تسقطا تحت هجوم مركز يعتمد

على القوات العربية جمعاء . ومع ان الامبراطوريتين كانتا . في نظر رعاياهما . ضعيفتين اقتصاديا . فقد كانتا ثمرتين يانعتين بالنسبة الى العرب .

وسرعة الفتوح التي تمت على ايدي الدولة الاسلامية ومداها امران يدعوان الى الاعجاب . فقد انتزع العرب من الامبراطورية البزنطية سوربة والجزيرة (الفراتية) وفلسطين ومصر الى سنة ٦٤١ . وكان العرب قد افتتحوا العراق (٦٣٧) وايران باكملها حتى مرو (الى سنة ٦٥١) . وقد انتهى امر الامبراطورية الساسانية في سنة ٦٥١ . وفي سنة ٦٥٣ استسلم الارمن وسكان جورجيا (وكلا الفريقين كان من اتباع الساسانيين والبزنطيين) . وبين سنتي ٦٤٧ و ٦٩٨ انتزع العرب شمال غرب افريقية من البزنطيين . وفي سنوات ٧١٠ - ٧١٢ اجتازوا البحر الى شبه جزيرة ايبريا وقضوا على مملكة القوط الغربيين . واحتلوا املاكها حتى الواقعة في جنوب غرب بلاد الغال . وفي الواقع فانه لم يبق خارج سلطانهم سوى الزاوية الشمالية الغربية من اسبانية . وفي الوقت نفسه كان العرب يفتحون (٧١١) حوض السند ومنطقة البنجاب الجنوبية بما في ذلك الملتان .

وبين سنتي ٦٦١ و ٦٧١ فتح العرب طخارستان (شمال غرب افغانستان) التي كانت جزءا من الامبراطورية الساسانية . وقد كان لهذا الفتح اهمية استراتيجية - فقد اتاحت للدولة العربية ان تقتعد الطريق البري الواصل بين الهند والصين عبر حوض نهري سيحون وجيحون . وفي السنوات ٧٠٦ - ٧١٥ اتجه العرب نحو ما وراء النهر لفتحها . ومع انهم منوا بنكسة . فانهم استمروا في محاولاتهم (على نحو ما فعلوا في شمال غرب افريقية) . وفي السنوات ٧٣٩ - ٧٤١ فتحوا ما وراء النهر باكملها نهائيا . الا ان العرب لقوا من اوقفهم عن استمرار الفتح على جبهات اربع : اولاها انهم لم يستطيعوا ان يقيموا لهم مراكز ثابتة الى الشمال من سلسلة جبال طوروس . (في سنة ٧٤١ وقفت الفتوح العربية عند جبال امانوس . وقد كان المردة سكان امانوس يعتبرون عصاة في نظر العرب وموالين في نظر البزنطيين . ويبدو انهم اقاموا لهم مراكز موقتة في جبال لبنان سنة ٦٧٧ . وقد نقل العرب حدودهم الى ابعد من الامانوس فيما بعد) . والثانية انهم لم يستطيعوا احتلال القسطنطينية . فقد تنبه معاوية (حكم ٦٦١ -٦٨٠) . مؤسس الدولة الامويّة . الى ان القضاء على الامبراطورية البزنطية يقتضي احتلال العاصمة . وان سبيل ذلك هو انتزاع القوة البحرية في البحر المتوسط من ايدي البزنطيين ، فانشأ معاوية اسطولا (٦٦٩) وحاصرت قواته القسطنطينية بحرا وبرا (٦٧٤ -٦٧٨) . الا ان الحصار جرى ضد مصلحة

العرب . فالاسطول البزنطي كان مزودا بالنار اليونانية وبالآلة اللازمة لرميها (يظهر ان المخترع كان فنيا سوريا ، كان لاجئا في العاصمة البزنطية) . وقد حاصر العرب القسطنطينية ثانية (٧١٧-٧١٨) ، وكان فشلهم ذريعا ، كالمرة الاولى . والثالثة كانت جبهة بلاد الغال . ففي سنة ٧٣٢ ردوا في بلاد الشهداء (بواتيه - تور) . والرابعة كانت عجزهم عن فتح امبراطورية البدو الخزر (بين نهري الفولغا والدون) في ٧٣٧ - ٧٣٨ .

وهكذا فقد توقفت الفتوح العربية عند حدود معينة . الا انها كانت فتوحا سريعة وواسعة في مجالها . ذلك ان العرب هاجموا الدولة البزنطية التي كانت قد بلغت حداً كبيراً من الضعف عسكريا ، لكنها كانت قد حافظت على طرق مواصلاتها سليمة لمصلحة الفاتحين . وقد أبطلت الفتوح العربية في القرن السابع العمل الذي قام به الاسكندر في فتوحه في القرن الرابع قبل الميلاد . فالسلطان الذي كان اليونان قد تمتعوا به ٩٦٣ سنة في الشرق ، منذ فتوح الاسكندر ، وضعت الفتوح العربية سنة ٦٣٣ حداً له .

وقد كان في موقف المسيحيين اليعاقبة (اي القائلين بالطبيعة الواحدة) عون للعرب الفاتحين. ذلك بانهم لم يأسفوا لتغير الحكام. كما ان الرعايا النساطرة في الامبراطورية الساسانية لم يكونوا يكنون ولاء فعالا لسادتهم الايرانيين. والايرانيون الزرادشتيون انفسهم لم يلبثوا ان تخلوا عن الجهاد للحفاظ على استقلالهم السياسي ، مع انهم كانوا شعب الامبراطورية الساسانية نفسها ، وكانت الزرادشتية ديانتهم الوطنية. وفي شمال غرب افريقية تآخى البربر مع العرب الذين فتحوا بلاد الامبراطورية البزنطية في تلك الاصقاع. فالبربر كانوا من اتباع المذهب الدوناتي . الذين لم يحملهم اعتناق قسطنطين الاول للمسيحية (٣١٢) على القبول بالحكم الامبراطوري في بلادهم.

وعلى العكس من ذلك كان الوضع في اسية الصغرى . حيث كان السكان موالين للامبراطورية البزنطية وللصيغة الخلقيدونية للمسيحية . فان العرب لقوا مقاومة عنيفة وصدوا عن البلاد نهائيا. وقد صدوا ايضا -ولو ان ذلك كان صداً موقتا- في ما وراء النهر . حيث كان السكان يومها من اتباع البوذية الماهايانية . (وقد لقي الاسكندر ايضا مقاومة عنيفة في ما وراء النهر .) وفي خراسان وطخارستان (فرثيا والصغد) تآخى السكان الايرانيون المحليون مع العرب (كما كان اسلاف الصغديين قد تآخوا مع اليونان بعد فتح الاسكندر للامبراطورية الفارسية الاولى .) ان سكان المناطق الحضرية ، المصاقبة للسهوب الاوراسية ، كانوا ، في الازمنة جميعها ، يرون من مصلحتهم اقصاء البدو الرعاة عن مناطقهم .

وكان مما اعان العرب ان القرآن نص على ان أهل الكتاب. يجب ان يكونوا موضع التسامح والحماية اذا قبلوا بالحكومة الاسلامية ودفعوا الجزية. وقد وسع نطاق هذا الوضع بحيث شمل. بالاضافة الى اليهود والمسيحيين. الزرادشتيين. وفي النهاية. الهندوين. وقد ترك العرب جمع الضرائب المستحقة على غير المسلمين من رعاياهم في ايدي الموظفين الماليين الوطنيين الذين كانوا يقومون بالعمل من قبل. في املاك الساسانيين السابقة كان هؤلاء هم الدهاقنة. وقد ظل هؤلاء الموظفون يحتفظون بالسجلات باللغة اليونانية او باللغة البهلوية حتى حكم الخليفة عبد الملك (٦٨٥–٧٠٥). فقد حملهم عبد الملك على الاستعاضة عن ذلك باستعمال اللغة العربية. كما وضع خليفته الوليد (حكم ٧٠٥ – ٧١٥) حدا للاستعمال الرسمي للغة القبطية في مصر التي كانت تستعمل هناك مع اللغة اليونانية. ولكن الموظفين الماليين الوطنيين، مع انهم ارغموا على استعمال اللغة العربية، فقد ظلوا في وظائفهم، ولم يعين عرب في مكانهم.

والحاميات العربية التي عهد اليها بالحفاظ على البلاد المحتلة كانت تقيم في «امصار» خاصة بها. بعضها كان على الحدود. والبعض الآخر كان في التخوم الواقعة بين الجزيرة العربية والمشارف الجنوبية للهلال الخصيب. وقد كان اكثر هذه مواقع جديدة –لا في المدن القائمة ولا على مقربة منها. ومع ان هذه «الامصار» العربية جذبت اليها جماعة من غير العرب. فان الاختلاط الاجتماعي بين الفاتحين والمغلوبين كان ضئيلا جدا في المرحلة الاولى من تاريخ الامبراطورية الاسلامية. وقد تأخر انتشار الاسلام زمنيا عن التوسع في البلاد المفتوحة. لقد كان اعتناق الاسلام اجباريا في الجزيرة العربية. اما في البلاد المفتوحة فان اعتناق الاسلام. فضلا عن انه لم يكن اجباريا. لعلّه لم يشجع.

والحاميات العربية الأسلامية في البلاد المفتوحة لم تكن تبشيرية النزعة. كان اهلها يشعرون بان الاسلام يميزهم عن رعاياهم من السكان المسيحيين والزرادشتيين. ان اعتناق الاسلام. بالنسبة لرعايا الدولة الاسلامية. كان شيئا جذابا من الناحية المالية. اذ انه كان يمكنهم من الانضمام الى «المؤسسة» الاسلامية التي كانت ذات وضع مالي مفضل. إلا ان الخزينة ارتأت. لما كثر اعتناق هؤلاء السكان للاسلام تهرباً من دفع الجزية. ان تجبي الجزية حتى من الذين كانوا يعتنقون الاسلام. والحرب الاهلية (٧٤٧–٧٥٠) التي انتهت بزوال الخلافة الاموية وقيام الخلافة العباسية (وهذه سيطرت على اراضي الدولة جميعها باستثناء اقصى شمال غرب افريقية واسبانية) كانت فرصة اتخذها الذين اعتنقوا الاسلام

لتأكيد حقهم في ان يكونوا على قدم المساواة مع المسلمين المتحدرين من اصل عربي. وهذه الثورة وضع مخططها في الكوفة (المصر العربي في العراق). إلا ان العصيان بدأ في خراسان. حيث كان الذين اعتنقوا الاسلام عددهم كبير. وحيث كان اختلاطهم الاجتماعي بالعرب الجنود المستوطنين قد قطع شوطا بعيداً جداً، ومع ذلك فان اوائل الخراسانيين الذين لبوا النداء للثورة لم يكونوا من الايرانيين المحليين: لقد كانوا جماعة من العرب المستوطنين هناك. الذين شعروا كأن الدولة الاموية قد استهانت بهم.

إن تبديل الاسرة الحاكمة الذي كان الظاهرة الخارجية للحرب الاهلية (٧٤٧-٧٥٠) كانت واحدة من الاحداث التي كان اساسها الخلاف على خلافة محمد بوصفه رأس الدولة الاسلامية. إن محمدا لم يعقب ابناء. ولم يستخلف احداً للمنصب. وقد طالب علي. ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة. بان تكون الخلافة له لانه وزوجه هما اقرب الناس الى النبي. ولوان عليا تمكن من تثبيت ذلك. لاصبحت الخلافة امراً عائليا. إلا ان الذي حدث انه بعد وفاة النبي. انتقل امر الاشراف على الدولة العربية الاسلامية الى لجنة ادارية غير رسمية. وهذه اللجنة. لما اخذت باختيار خلفاء محمد في امور السياسة. خيبت امل علي ثلاث مرات بتجاوزه. ولما نال علي الخلافة. وقامت حرب اهلية حول قضية الخلافة. واغتيل علي نتيجة لذلك (٦٦١) استطاع معاوية بن ابي سفيان ان ينقل الارث السياسي الى نفسه وبيته. وابو سفيان كان اشد خصوم النبي واعنفهم من القرشيين.

كان معاوية اقدر قرشي في ايامه. ولم يكن علي ندا له في امور السياسة. وقد لقي علي وابنه الحسين مصرعهما مغتالين بعنف. وقد انشأ معاوية اسرة حكمت في دمشق من ٦٦١ الى ٧٥٠ وفي اسبانية من ٧٥٦ الى ١٠٣١. إلا ان هذه الاسرة لم تنجح في ان يُقبَل بها قانونا.

وهكذا فان الكيان السياسي في الدولة الاسلامية اصابه شرخ بعيد وفاة النبي. وهذا الشرخ لم ينغلق قط. لقد كان اكبر المتحمسين للثورة المعادية للامويين (٧٤٧-٧٥٠) مريدو علي وورثته. إلا ان العلويين خاب املهم كما اصاب عليا اثناء خلافته القصيرة (٦٥٦-٦٦١). وابو العباس (السفاح). الذي ضمن لنفسه الخلافة في الكوفة سنة ٧٤٩ (بدل آخر خلفاء الامويين الشاميين مروان بن محمد) كان من اسرة علي

(على خلاف الامويين) ومن اسرة الرسول. إلا ان ابا العباس كان ابنا للعباس عم النبي وعلي. والعباس كان ممن اعتنق الاسلام في وقت متأخر نسبيا مثل معاوية بن ابي سفيان.

٥١-احياء الامبراطورية الرومانية الشرقية ٦٢٨-٧٢٦

لما تحدى العرب المسلمون الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية) ولامبراطورية الفراسية (الساسانية) في وقت واحد. اثاروا نوعين من ردة الفعل. فالامبراطورية الرومانية الشرقية قامت وبقيت. مع انها اقتطع منها جزء؛ اما الامبراطورية الفارسية فقد خضعت وانتهى امرها. ومع ذلك فقد اصاب الفرس والروم على السواء نوع من الاحياء بسبب هذه التجربة المؤلمة. ولو انه جاء بأسلوبين مختلفين.

لقد كان رعايا العرب من الزرادشتيين اسرع واكثر استعداداً لقبول لاسلام من رعاياهم المسيحيين. من اي مذهب كانوا. وقد انتهى الامر بالجماعة الزرادشتية في ايران بان اصبحت اقلية محصورة في اماكن محدودة. وقد حافظ على الزرادشتية مهاجرو الشتات الى غرب الهند. واللغة البهلوية (وهي اللغة الفارسية المتوسطة) كتبت كلماتها بالالفباء السريانية. لكن هذه الالفبائية كانت تستعمل «صورا فكرية» بالنسبة للكلمات الفارسية المقابلة لها. وقد احتفظ بهذه الطريقة الغليظة لكتابة اللغة الفارسية في الصلوات الزرادشتية والكتب المقدسة. اما الفرس الذين اعتنقوا الاسلام فقد اخذوا انفسهم باستعمال الالفباء العربية لكتابة الفراسية. مع استعارة كلمات عربية بشكل قوي. ان معتنقي الاسلام كانوا يصنعون لغة فارسية جديدة لمدبري الحكم والشعراء في المستقبل.

وقد احتفظت الامبراطورية الرومانية الشرقية بنفسها في اسية الصغرى. الى الشمال الغربي من سلسلة جبال طوروس. مع رأس جسر في الجهة المقابلة من مضيق القسطنطينية. وقد حيدت قبرص بعد فشل الحملة على القسطنطينية (٦٧٤-٦٧٨) لكن الجزر الاخرى- من كريت الى جزر البليارد- ظلت في حوزة الامبراطورية الشرقية. ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تتمكن من الاحتفاظ بشمال غرب افريقية. فانها لم تكن قد خسرت بعد صقلية او جزيرة مستنقع البندقية الكبير. وقد احتفظت في اوروبة سلسلة من السواحل الممتدة من سالونيك (سلانيك) الى رافنا وروما.

وقد كانت اللغة اليونانية قد حلت في صقلية محل كل لغة قبل اليونان عرفتها الجزيرة (القرن الخامس قبل الميلاد) وفي اسية الصغرى قبل نهاية القرن السادس الميلادي. كان سكان المنطقة الواقعة بين جبال البلقان ومجرى الدانوب الادنى يتكلمون اللاتينية. لكن هؤلاء استنزفت الامبراطورية الشرقية نصفهم جنودا في جيوشها. والباقون تغلب عليهم السلاف (الصقالبة) القادمون من خلف الدانوب (القرن الثالث الى القرن السابع للميلاد) والذين استقروا . في نهاية المطاف. حتى في شبه جزيرة البلوبونيز. اما في الشمال فقد اصبح الفلاح رعيان ماشية!

وقد ازاح الصقالبة القادمون كثيرين من مواطني الامبراطورية الرومانية الشرقية عن مواطنهم. لكنهم لم يعرضوا الامبراطورية لخطر حربي؛ فقد ابعدتهم اسوار القسطنطينية وسلانيك وغيرها عن هذا المدن. وعلى كل فان الصقالبة الذين استوطنوا الريف لم يكونوا متحدين سياسيا. فقد تجمعوا في عدد كبير من «المستوطنات» (الصقلبية) وهذه كانت تحت رحمة الامبراطورية الرومانية الشرقية. التي كانت تستطيع ان تخضعهم عندما تتوافر لها القوات المحاربة. وقد تبدل الوضع ضد مصلحة الامبراطورية لما هبطت جماعات بلغارية تتكلم التركية (من الهون اصلا) في المنطقة الواقعة بين مجرى الدانوب الادنى وشاطىء البحر الاسود الغربي (٦٨٠-٦٨١) واستقرت هناك. وقد اخضع هؤلاء اقرب المستوطنات الصقلبية اليهم. واثبتوا انهم قادرون على رعاية البشر قدرتهم على رعاية الماشية. وقد بدأ عندئذ سباق بين الامبراطورية الشرقية والدولة البلغارية للسيطرة على المستوطنات الصقلبية. التي كانت راضية بان يتولى امرها القادر على ذلك.

وقد ترتب تنقل السكان وتبدل السلطان ان اصبحت اللغة اليونانية اللغة الوطنية للامبراطورية الشرقية: اللغة الونانية الحديثة كلغة حية للامور اليومية. والكويني الاتيكية للادارة وللطقوس المسيحية في كل مكان (باستثناء الاراضي التي ظلت اللاتينية مستعملة فيها. رومه كانت ثنائية اللغة من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الثالث الميلادي. وهكذا كانت القسطنطينية لمدة قرنين بعد انشائها؛ ٣٣٠م). لكن في القرن السادس كانت القسطنطينية قد اصبحت تتكلم اليونانية فقط. وكانت المسيحية البزنطية والمسيحية الغربية تعترفان بعقيدة واحدة. لكن الحاجز اللغوي كان قد بدأ يقوم بينهما.

وقد كان للاباء المسيحيين الذين ظهروا في قبادوقيا في القرن الرابع اثر فعال في

هلينة الامبراطورية الرومانية الشرقية . فالقديس باسيل واخوه القديس غريغوريوس (نيسّا) وصديقهما غريغوريوس (نازيا نزين) كانوا طلابا في جامعة اثينا (وهناك التقوا جوليان . الذي اصبح امبراطورا فيما بعد) . وقد وضع هؤلاء القديسون القبادوقيون اعمالا ادبية مهمة ضخمة مستعملين اللغة الاتيكية الحديثة (من القرن الثاني) على طريقة كبار المحاضرين والكتاب . واصبحت كتابتهم نموذجا يحتذى . وكان الاعجاب بهذه الكتابة ومحاولة تقليدها مما حال دون استعمال اللغة اليونانية الحديثة (التي اصبحت لغة التخاطب في العالم اليوناني في القرن السابع) في الاعمال الادبية .

لقد قطِعت سورية عن الامبراطورية الشرقية بسبب الفتح العربي (٦٣٣-٦٤١) . لكن منذ ان بدأ اعتناق سكان المشرق التدريجي للمسيحية . كانت المدنية السريانية تؤثر في المدنية اليونانية . ولم يحس المسيحيون الناطقون باليونانيـة انهم اكثر ثقافة من المسيحيين الناطقين بالسريانية . والواقع ان اولئك كانوا قد افادوا نفحات حضارية دائمة من هؤلاء قبل ان يبدأ الخلاف بين اليونان والسريان لاهوتيا وسياسيا . بسبب قضية طبيعة المسيح . والاسلوب البزنطي في الموسيقى والشعر الابتهالي الذي اصبح الملك المشترك لجميع الشعوب الشرقية الارثوذكسية وضعه سوري مسيحي (خلقدوني) هو رومانس الموسيقي (حول ٤٨٠- ٥٥٠) . وقد كتب رومانس اشعاره بالكويني الاتيكية القديمة لكن تفاعيله واناشيده كانت سورية . وقد كانت هذه الخطوة . بالنسبة الى الموسيقى والشعر اليونانيين منطلقا جديدا منعشا .

ان النار اليونانية التي انقذت الامبراطورية الرومانية الشرقية من الدمار (٦٧٤-٦٧٨) كان صانعها سوريا . وليو الثالث (حكم ٧١٧-٧٤١) كان سوري الاصل . وقد تسنم ليو العرش في الوقت المناسب لينقذ القسطنطينية من حصار العرب الثاني لها (٧١٧-٧١٨) . ان الامبراطورية الرومانية الشرقية التي اقتطعت اجزاء منها . كانت قد اصبحت ناطقة باليونانية . لكنها كانت قد تلقت حيوية جديدة من عناصر هامة غير يونانية . فقد انشأ ليو الثالث اسرة امبراطورية سورية . كان هرقل (حكم ٦١٠-٦٤١) ابن ارمني كان نائبا للملك في شمال غرب افريقية . وفي السنوات التي تلت حملات العرب على املاك الدولة البزنطية الى الجنوب من جبال طوروس . نقص عدد السكان في الامبراطورية . فكان سد هذه الثغرة يتم عن طريق هجرات من الارمن والسوريين الى الشمال .

كاد القرن السابع ان يكون فترة اضطراب مستمرة. فقد كادت فتنة ٦٠٢ ومقتل الامبراطور موريس ان يلقيا بالامبراطورية في احضان الفوضى. وفي سنة ٦٠٤ بدأ الفرس هجومهم على ولايات الامبراطورية الاسيوية، فيما اغرقت موجات السكان الناشئة عن انسياح الصقالبة من شمال مجرى الدانوب الادنى شبه جزيرة البلقان. ولم تكد الامبراطورية تنتهي من آخر حرب واشدها مع الفرس (٦٠٤–٦٢٨) حتى قام العرب بهجومهم عليها (٦٣٣). وكانت غاية هذا الهجوم حصار العرب للقسطنطينية (٦٧٤–٦٧٨). وما كادت الامبراطورية تتجاوز هذا الخطر حتى هبط البلغار (من البدو الاوراسيين) واستقروا نهائيا جنوبي الدانوب (٦٨٠–٦٨١). ومن التناقضات ان نقص السكان في الامبراطورية بسبب النكبات التي اصابتها، مهد السبيل لانتعاش اقتصادي.

وقد كان هذا الانتعاش شبيها بالانتعاش الاقتصادي الذي عرفته الصين في القرن الخامس. فقد صمد الفلاحون الآن امام كبار الملاكين والجباة الامبراطوريين. ففي الصين اتخذ الامبراطور هزياو ون–تي (من اسرة وي) خطوات لحماية الفلاحين وهي مدونة. وبالنسبة الى الامبراطورية الشرقية في القرن السابع فهناك «قانون الفلاحين» الذي يبدو انه وضع حول نهاية القرن. وهنا نجد الفلاحين وقد اخذوا باستغلال الارض المهجورة وانشاء المطاحن المائية. ونستدل على ان الضرائب لم تكن قاسية بحيث انها تمنع الفلاحين من توسيع رقعة اراضيهم واستغلالها. ونستدل كذلك ان كبار الملاكين في هذه الفترة لم يكن لهم من القوة ما يمكنهم من الاستيلاء على الارض المهجورة. ففي الامبراطورية الرومانية الشرقية، مثل الصين، لم تختف الاملاك الواسعة من الوجود. ولكنها منعت من الاتساع على حساب الاملاك الصغيرة.

كان الفلاحون، في الصين في القرن السادس، قد دربوا وسلحوا ليخدموا كميليشيات. وفي الامبراطورية الرومانية الشرقية، كانت ميليشيا من الفلاحين قد قامت في اواخر القرن السابع، واصبحت اساس الجيش الامبراطوري وكانت نفقاتها تأتي من نتاج الاراضي. وقد نظمت هذه الميليشيات في اربعة جيوش، واسماؤها تدل على انها كانت قد تركزت في حوضي الدانوب الادنى والفرات الاعلى، وذلك قبل الهجوم العربي. لقد وضعت القوات في اسية الصغرى للدفاع عن قلب الامبراطورية هناك، حتى ولو ان المناطق الإبعد من الامبراطورية كانت تعتمد على العون المحلي. ولعلّ وضع هذه الفرق في اسية الصغرى كان الخطوة الاولى نحو اعادة السكان الى تلك المنطقة. وكل قائد فرقة اصبح، تدريجا، المدبر المدني للمنطقة التي استقرت فيها قواته. وقد اهملت التقسيمات

الادارية التي تمت في ايام ديوقلتيان–قسطنطين بالنسبة للادارة ولكنها ظلت تقسيمات على خارطة الكنيسة وتنظيمها. واصبحت كلمة ثيماتا تعني الفرق العسكرية والمناطق الادارية المتصلة بها.

وقد تعرضت اسية الصغرى . بدءا من ٦٤٢ . لهجمات عاتية قام بها العرب . لكن هذه الحالة من انعدام الاطمئنان كانت لمصلحة الفلاحين المسلحين والمدربين. فقد كان الفلاح يستطيع ان يحمي ارضه. فيما كانت الغارات المستمرة تجعل الاملاك الريفية الكبيرة لا تفي بمطامع المستثمرين. كما كانت تقصي جباة الضرائب الامبراطوريين عنها. فبالنسبة الى الفلاح في الامبراطورية الرومانية الشرقية كان شر المغير العربي اقل من شر اي من جابي الضرائب او المستثمر الذي لعله كان يجد منفعة وفائدة في ضم حقل الى حقل آخر. وفي اسية الصغرى. كما كان الحال في الصين. دام انتعاش المجتمع طوال الفترة التي ظل فيها الفلاحون قادرين على الدفاع عن كيانهم.

٥٢-المسيحية الغربية ٦٣٤-٧٥٦

إن الصفة المميزة لتاريخ المسيحية الغربية خلال الفترة من ٦٣٤ الى ٧٥٦ . هو اتجاه مركز ثقلها الجغرافي في التنقل في اتجاه شمالي غربي . وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا على المستوى السياسي في اقامة دولة الفرنك (الفرنج) في بلاد الغال وعلى المستوى الكنسي في اعتناق كلوفيس . باني امبراطورية الفرنك . المسيحية في صيغتها النيقية والخلقدونية وفي مكاسب الكرسي الروماني في بريطانية . وقد شهدت هذه الفترة حيوية في المملكة الفرنكية ايام حكم الاسرة الكارولنجية الذين كانوا حماة القصر بالنسبة الى الاسرة الميروفنجية . وهذه الفترة شهدت ايضا تثبيت سلطة البابا وية الكنسية في الجزر البريطانية وتوسعيها . ثم في شمال غرب القارة الاوروبية عن طريق المبشرين الانكليز . وفي الفترة نفسها انتقل مركز الثقل في الزراعة في المسيحية الغربية (والزراعة كانت يومها الشكل الرئيس للنشاط الاقتصادي) من شواطيء حوض المتوسط الغربي في اتجاه شمالي .

إن المنطقة التي يسود فيها مناخ مثل مناخ البحر المتوسط لا يمكن ان تكون ملائمة بشكل خاص للزراعة . باستثناء رقع خصبة مثل السهول الغرينية في اودية النيل ودجلة والفرات والسند . او في المناطق البرية الواقعة الى شمال البحر المتوسط والبحر الاسود. لقد صنع الفلاحون القرطاجيون وخلفاؤهم الرومان من بعدهم كل ما يمكن ان يصنع للافادة من منطقة البحر المتوسط وذلك بتطبيق المبادىء العلمية. والعمل الذي قاموا به لم يخربه العرب لا في شمال غرب افريقية ولا في اسبانية (بعد فتحهم تلك الاقطار) . وفي الناحية الثانية فان الغابات في منطقة البحر المتوسط كانت قد اجتث الكثير من اشجارها اما بسبب الطلب المستمر الذي يقوم به البناؤون وصانعو السفن ومو ردو الوقود لتشغيل الحمامات . واجتثاث الغابات هذا لم يؤد الى نقص في الخشب فحسب . بل ادى الى تعرية التلال والجبال من التربة . فنقصت مساحات الارض الصالحة للزراعة وحتى للرعي . وكانت اوروبة الشمالية لا تزال فيها الغابات الكثيرة ؛ وحتى في حالة قطع الاشجار

هنا فان المناخ وطبيعة الارض الجغرافية تحولان دون التعرية.

ان ضم الامبراطورية الرومانية اولا لحوض البو ثم الاراضي الاوروبية الواسعة الواقعة ما وراء الالب. ادخل في نطاق المدنية الاغريقية-الرومانية مساحات شاسعة من الاراضي العميقة التربة (ذات الامكانات الزراعية) في ما يقع شمال الحوض الغربي للبحر المتوسط. وقبل سقوط الامبراطورية في الغرب كانت قد اتخذت خطوات لتطوير التقنية الصناعية لاستغلال هذه التربة. والامر الرئيس في هذه التقنية كان اختراع محراث اقوى وانفذ بالنسبة لهذه التربة العميقة. من المحراث الذي كان يصلح للتربة الاخف. ولم يكن هذا التطوير قد سار شوطا يكفي ليجعل الزراعة اكبر نتاجا في شمال اوروبة منه في منطقة البحر المتوسط. ان الامر الذي جذب البرابرة الشماليين (وكان الهون يسيرون في اعقابهم) الى اسبانية وشمال غرب افريقية (بعد ان نفذوا عبر الحدود الرومانية على الراين) هو الالق الاقتصادي الذي مثلته حقول القمح وكروم العنب وغابات الزيتون في المتوسط. ولا شك في انهم كانوا (البرابرة) يحتلون الاراضي المروية والاغنى في مصر والعراق لو ان هذه كانت في متناول يدهم. لكن الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الفارسية احتفظتا بالسيطرة عليهما على التوالي حتى القرن السابع حين وقع مصدرا القوة الاقتصادية هذان في ايدي الدولة العربية الاسلامية المتوسعة دوما.

وفي الوقت نفسه كانت بلاد الغال. الى الجنوب من نهر اللوار. تجذب الفرنك بشكل خاص. بحيث ان كل تقسيم لمملكة الفرنك بين افراد الاسرة الميروفنجية (في القرنين السادس والسابع) كان يرافقه الحاح من قبل كل مطالب. بان تكون له شريحة من منطقة ميدي (جنوبي اللوار) بالاضافة الى شريحته من الشمال- مع ان الشمال كان هو مركز الثقل الاصلي لقوة الفرنك. اذ كان المنطقة الرئيسة لاستقرارهم. وفي الوقت ذاته فان وضع التربة العميقة في شمال الغال وجنوب شرق بريطانية واواسطها في اطار الاستثمار الزراعي. الذي كان قد بدأه الرومان. استمر البرابرة التيوتون في تلك الاراضي (الاراضي الرومانية السابقة) يقومون به. واذا كان الفتح العربي او الفتح الجرماني لاراضي الفرس اوالرومان السابقين قد ادى الى تأخر في الزراعة. فهذا كان امرا وقتيا. والاستمرار في فتح التربة في الشمال لم يكن قد اعطى بعد نتائج باهرة. إلا انه كان من الواضح ان ذلك آت. لان هذه كانت ارضا جديدة واسعة وذات امكانات انتاجية ضخمة.

ومركز ثقل التوسع الكنسي ونطاق النفوذ الادبي والسياسي لرومة انتقلا كذلك

شمالا في غرب في هذه الفترة (٦٣٤ - ٧٥٦) . فالفتح العربي الاسلامي لشمال غرب افريقية والجزء الاكبر من شبه جزيرة ايبريا وساحل الغال بين البرانيس ومصب الرون جرد البابوية من سلطانها على رعاياها الكنسيين في هذه المناطق . لكن الامر لم ينته عند هذا الحد . بل ان المسيحية في شمال غرب افريقية . مثل الزرادشتية في ايران . خسرت الكثيرين من اتباعها (في ظل الحكم الاسلامي) الذين اعتنقوا الاسلام . وقد كان اعتناق هؤلاء للاسلام هناك اسرع مما جرى في اسبانية القوطية او في الهلال الخصيب . على كل فان عقبة ازيحت من طريق الاعتراف التام بالسلطة البابوية - ذلك بان الدوناتيين . الذين كانوا قد اختلفوا مع الكاثوليك من قبل . انتهى امرهم الآن . ان المسيحية كانت قد انتشرت وامتدت جذورها في شمال غرب افريقية قبل ان تنتشر وتعرف في المناطق الواقعة شمالي البحر المتوسط . ومن ثم فما دامت الكنيسة في شمال غرب افريقية متحدة ونشيطة فانها لم تكن على استعداد للاعتراف بالسيادة الكنسية لروما .

ومن الناحية الثانية فان الحكومة الامبراطورية الشرقية طعنت البابوية طعنة نجلاء لما نقلت (حول ٧٣٢/٧٣٣) جنوب ايطالية الاقصى وصقلية وجميع اليريا الشرقية من سلطة البابوية الى سلطة اسقفية القسطنطينية . وحولت الضرائب المستحقة من املاك الموقوفة على القديس بطرس في صقلية من الخزينة البابوية الى الخزينة الامبراطورية . كان البابا غريغوريوس الثاني (٧١٥ - ٧٣١) قد تحدى الامبراطور ليو الثالث اذ ايد مناوئيه من رعاياه الغربيين في رفضهم دفع ضريبة اضافية للدفاع عن القسطنطينية ضد الحصار العربي (٧١٧ - ٧١٨) . وفي رفضهم الانصياع الى امر الامبراطور في ان لا يضعوا التماثيل في الكنائس . وغريغوريوس الثاني وخليفته غريغوريوس الثالث (٧٣١ - ٧٤١) حرما . على التوالي . بطريرك القسطنطينية الوديع الذي اقامه ليو في العاصمة . ومن ثم فقد اظهر هذان البابوان استقلالهما الكنسي والسياسي . ومع ذلك فان الامبراطور ليو لم يستطع ان ينالهما بأذى (كما كان قد حدث للبابا مارتن الاول من قبل) . ومع ذلك فان ما خسرته البابوية من الممتلكات التي كانت تابعة للكنيسة وضرائب كان كبيراً بالنسبة الى الاستقلال البابوتي .

على ان البابوية كانت قد عوضت عن الخسارة الآتية حتى قبل حدوثها . ففي سنة ٦٣٤ كانت مملكة نورثمبريا . أقصى دولة خليفة في بريطانية للامبراطورية الرومانية . قد ربحها المبشرون الارلنديون لاسقفية رومه . وقد كسبت ثانية (٦٦٤) . وفي هذه المرة تبع

ذلك خضوع الكنائس القلتيةفي اسكتلاندا وويلز وبريتانية وارلندا (القرن الثامن) . وقد قام الراهب الارثوذكسي اليوناني تيودور الطرسوسي . الذي عينه البابا رئيس اساقفة لكنتربري . باصلاح الكنيسة الرومانية في انكلترا (٦٦٩ – ٦٩٠) . وفي القرن الرابع تجذّرت الرهبنة البندكيتة . وكان من ثمارها ان بِيد الراهب البندكتي وضع كتابه التاريخ الكنسي للشعب الانكليزي (٧٣١) .

وفي سنة ٦٩٠ خرج ويلبرورد – كلمنت الراهب الانكليزي من نورتامبريا الى القارة للتبشير بين سكان فريزيا . وتبعه وينفرد – بونيفاس (٧١٦) الراهب الانكليزي . ليقوم بالتبشير في جنوب المانية الحالية . ومع ان بونيفاس اصلح الكنيسة الفرنكية ونظمها على اسس رومة (٧٤١ – ٧٤٧) فان المتصرفين في شؤون بلاد الفرنك حرصوا . كما حرص اباطرة الامبراطورية الرومانية الشرقية . على ان تكون لهم الكلمة الاخيرة في تسيير شؤون الكنيسة المسيحية في ممتلكاتهم .

وعلى كل فقد اتضح للاسرة الكارولنجية وللباباوية ان كلا منهما بحاجة الى التأييد من الآخر . فقد كان الكارولنجيون يحكمون المملكة الفرنكية في الواقع منذ ٦٧٨ . فارادوا ان يكونوا حكامها شرعا (قانونا) . فطلب ببين الثالث (القصير) من البابا (٧٥٠) فتوى حول الموضوع . ولما حصل على النص البابوي (٧٥١ او ٧٥٢) المؤيد له دعا الشعب الفرنكي الى مؤتمر انتخب فيه ملكا (وخلع آخر الميروفنجيين). وفي سنة ٧٥١ انتزع اللومبارديون رافنا (ايطالية) من الامبراطورية الرومانية الشرقية .

ما كان للرومان الشرقيين ان يستعيدوا رافنا – وهم لم يحاولوا . فقد كان واجب القوات المسلحة من الجيش الاصلي للامبراطورية . هو الدفاع ضد العرب والبلغار . وكان من الواضح ان اللومبارديين كان بامكانهم ان يحتلوا رومه ايضا . ما لم تجد البابوية عوضا للعون العسكري الذي كان يأتي من الامبراطورية الشرقية . والتي اصبحت القسطنطينية عاجزة عن تقديمه . والى ذلك الوقت لم تكن الباباوية قد حاولت الانفصال عن الامبراطورية الرومانية الشرقية . لكن في ٧٥٣ – ٧٥٤ قطع البابا اسطفان الالب ليطلب . من ببين . التدخل عسكريا في ايطالية . وقد (مسح) توج هو نفسه ببين وابنيه شارل وكارلومان (٧٥٤) . وقد قطع ببين الالب (٧٥٥ ثم ٧٥٦) . وتغلب على اللومبارديين (انقذ رومه) وايضا استولى على الممتلكات التي كانت تابعة للامبراطورية الرومانية الشرقية حول رافنا . واعطاها للبابا (رافضا طلب الامبراطور الشرقي اعادتها له) .

٥٣ - اسية الشرقية ٥٨٩ - ٧٦٣

استمتعت الصين لمدة تزيد عن قرن ونصف القرن . بدءا من سنة ٥٨٩ فترة وحدة وقوة وازدهار تختلف تماما عن الفترة التي سبقت ذلك (بدءا من انحلال حكم الهان الشرقية سنة ١٨٥) اذ عرفت بالتمزق والخصومة . في سنة ٥٨٩ توحدت الصين للمرة الاولى بعد هجوم البرابرة الشماليين (٣٠٤) . وهذه الوحدة تبعها اعادة نظام هان وو - تي الذي كان اساسه اختيار الموظفين على اساس امتحان في المؤلفات الكلاسيكية الكونفوشية . وقد انتشرت الصين الموحدة خارج حدودها الاصلية .

ويعود السبب في هذه الاعمال الناجحة الى التعهد الذي قطعه الامبراطور وي هزياو ون - تي بان يملك كل فلاح حدا ادنى من الارض . وقد اتبع خلفاؤه هذا الاصلاح الجذري بانشاء ميليشيات فلاحية . وبهذه الطريقة احتل سوي ون - تي الجنوب وضمه الى الشمال (٥٨٩) . والميليشيات الفلاحية مكنت لتاي تسونغ (حكم ٦٢٦ - ٦٤٩) من احتلال بعض مناطق اسية الوسطى . واسرة وي وخلفاؤها لم يستطيعوا ان يضعوا قيودا للملاكين الكبار . وقد فعلت اسرة سوي ذلك (٥٨٩) . فعين الحد الاقصى للملكية . وكان ذلك يختلف باختلاف الدرجة الاجتماعية للمالك . ولم يحاول لا السوي ولا تانغ نزع الملكية عن الممتلكات الكبيرة . والواقع ان تحديد هذه الملكيات ولا ضمانة حد ادنى من الملكية للفلاح كان مما يقع في عالم المثال . ولم يمكن تطبيقهما تماما ابدا . وعلى كل فما هو مدون نعرف انه في اوائل عهد تانغ كان تقريبا اربعة اخماس الضرائب الامبراطورية كانت تجبى مما هو مفروض على الفلاحين ضريبة رؤوس . ويبدو واضحا ان المصائب التي حلت بالامبراطورية . حول اواسط القرن الثامن . كانت نتيجة فشل الدولة . (خلال النصف الاول من القرن ذاته) في تزويد الفلاحين بالارض من نوع الحد الادنى .

وقد كان لهذا الفشل اسباب عدة . فالسبب الاول كان ازدياد عدد السكان

الفلاحين . وذلك بسبب انتشار الامن والنظام (٦٢٨) . ومع ان الجنوب فتح للعمل ، ومع ان الشماليين اخذوا يهاجرون جنوبا . فان عدد السكان تجاوز امكان منحهم الحد الادنى من ملكية الارض . وثمة سبب ثان وهو احياء نظام الامتحان لاختيار الموظفين . فقد تصرف الموظفون الجدد كما تصرف اسلافهم . اذ انهم افادوا من مناصبهم لتجميع الارضين في ايديهم . وقد اثار هذا خصومة بين طبقة الموظفين الكونفوشيين الجدد وهم من المدبرين – الملاكين في الجنوب والشرق وبين كبار الملاكين الاقدم والاكبر ثراء في الارض (في الشمال الغربي). وقد حاول امبراطور تانغ ، هزوان تسينغ (حكم ٧١٢ – ٧٥٦) ان يوقف هذه التطورات غير المرغوب فيها . وقد اخذت المصائب تنهال على الامبراطورية في سنة ٧٥١ .

كان عمر اسرة سوي . التي اعادت الوحدة الى الصين (٥٨٩) . قصيرا . والامبراطور الثاني من هذه الاسرة يانغ – تي (حكم ٦٠٤ – ٦١٨) كان آية في النشاط ، فكانت ، من ثم ، مطالبه من شعبه ثقيلة الى درجة لا تطاق . بحيث اثارت ثورة اطاحت بالاسرة . وتلا ذلك فترة فوضى وحرب اهلية (٦١٧ – ٦٢٨) قبل ان تعود اسرة تانغ . وقد افادت هذه الاسرة من انجازات اسلافها الزائلين . فقد اعاد حكامها الوحدة من حيث مادتها اصلا . لكنهم كانوا ماهرين في تصرفهم ، بحيث انهم لم يثيروا رد فعل عدائيا ، وهو الذي دفعت الاسرة السابقة ثمنه غاليا .

كان حفر الاقنية بالسخرة اثقل الاعباء واكثرها ايذاء في نظر السكان في عصر اسرة سوي . فقد حفرت القناة الكبرى في ايام حكام هذه الاسرة . وقد بدأت هذه من هانغشو . على الساحل الشرقي . الى جنوبي اليانكتسي . وفي تخطيطها الاصلي كانت تربط نهر يانكتسي بالنهر الاصفر على مقربة من لويانغ . وقد اضاف سوي يانغ – تي فرعا كان يتجه شمالا لنقل الجنود والمؤن والعتاد الى منطقة القتال في شمال كوريا . وقد كان حفر الطرق المائية الصناعية ، قبل ايام السكك الحديدية والطيران ، امرا ضروريا لربط الشمال بالجنوب ربط لحمة . فالانهار الصينية الكبرى تتجه من الغرب الى الشرق . فكان من الضروري ان تحفر الاقنية . كي تنقل المتاجر مائيا من الجنوب الى الشمال . ومن ثم فانه لما انخم بلاط اسرة تانغ والادارة المركزية بالموظفين اصبحت القناة الكبرى (التي حفرتها اسرة سوي) طريقا رئيسا لنقل الارز من الجنوب الى عاصمتهم . تشانغ – ان . وهذه كانت تقوم في حوض واي . احد روافد النهر الاصفر . وهي من بناء سوي !

وقد خدم الفرع الشمالي للقناة الكبرى اسرة تانغ . اذ نجحت هذه بالقضاء على اقصى شمال كوريا (٦٦٠ و ٦٦٨) وذلك بمساعدة سيلا . الا ان هذا اخرج تانغ من المنطقة . ووحد كوريا تحت سلطانه . وهذه قبلت بسيادة صينية اسمية . الا ان توحيدها السياسي كان . في الناحية الاخرى . باعثا للمدنية الصينية على قبولها مدنية كوريا وساعد على انتشار البوذية .

في سنة ٥٥٢ اسس الاتراك (تو - تشوه) امبراطورية سهوبية . على غرار الامبراطورية التي انشأها الهون (القرن الثاني قبل الميلاد) . وبذلك كان الاتراك اسبق في اقامة وحدة بين الشعوب الاوراسية من توحيد الصين . والمهم انه . بقطع النظر عن تقسم الامبراطورية الاوراسية . كان على الصين ان تنظر بحذر (٦٣٧) الى التبتيين والعرب . الذين كانوا يقومون بحملات عسكرية .

كانت التيبت قد توحدت (٦٠٧) وكانت المدنية الهندية قد تغلبت على العناصر المدنية الصينية هناك . واصبحت التيبت الآن تنازع الصين بسبب سيطرة هذه على حوض تاريم . وفي السنوات ٦٦١ - ٦٧١ ضم العرب طخارستان . وهكذا فان الصين . في عهد اسرة تانغ . كان توسعها برا نحو الهند وجنوب غرب اسية . موضع تحد وتحديد . ومع ذلك فان حملة فاشلة قامت بها الصين . فتحت الطريق امام المدنيّة الصينية لتتلقى المؤثرات الآتية من الغرب . والبوذيون الصينيون كانوا لا يزالون على اتصال مع البوذيين الهنود برا وبحرا . والزرادشتية اقامت لها مستقرات في الصين (حول ٥٢٥) ويبدو ان المانوية وصلت الصين قبل نهاية القرن السابع . وثمة ما يدل على وجود جماعات تبشيرية نسطورية في تشانغ - آن في سنة ٦٣٥ . وانتشار الديانات الثلاث التي كانت في الامبراطورية الساسانية (وهي الزرداشتية والمسيحية النسطورية والمانوية) شرقا كان قد شجعه ضم خسرو الاول طخارستان (اواسط القرن السادس) . ثم شجع ذلك الانتشار قضاء العرب على الامبراطورية الساسانية . الامر الذي حمل الكثيرين على ترك البلاد مهاجرين والاتجاه شرقا .

كان اباطرة سوى وتانغ من هواة البوذية . مع التسامح مع اديان اخرى اجنبية الاصل . الا ان احياء الدراسات الكونفوشية من اجل الحصول على موظفين للدولة . اتاح الفرصة لقيام رد فعل كونفوشي ضد جميع الديانات الاجنبية . بما في ذلك البوذية .

كانت تشانغ – آن . في ايام اسرة تانغ . اكثر نزعة عالمية من غيرها في اويكومين العالم القديم . وفي هذا الامر تفوقت تشانغ – آن على القسطنطينية المعاصرة لها . الا ان الفنون المنظورة والشعر . في العصر التانغي المبكر . كانت صينية بشكل متميز . واشكال الاجسام الصغيرة من الجبس تزودنا بلمحات حية للحياة اليومية . وقد كان الشاعران لي بو (٧٠١ – ٧٦٢) وتوفو (٧١٢ – ٧٧٠) معـاصرين للامبراطور هزوان تسنغ . وقد كانت امبراطورية تانغ والمدنية الصينية موضع اعجاب وتقليد لا في كوريا فحسب . بل حتى في اليابان . وقد ارسلت الامبراطورية اليابانية رسلا الى احدى الاسر في الصين الجنوبية في القرن الخامس . ومنذ ٦٠٧ كانت سفارات كثيرة ترسل الى تشانغ – آن . وفي سنة ٦٠٨ رافق سفير من اسرة سوي السفارة اليابانية في طريق عودتها . وقد ادخلت الحكومة الامبراطورية اليابانية (على الاقل على الورق) نظاما اداريا وتوزيعا للاراضي على الفلاحين على غرار ما كان قائما في الصين . وفي سنة ١٠٧ انشأت الحكومة نموذجا لتشانغ – آن في نارا . ان تقليد كل من كوريا واليابان للصين دليل على المنزلة التي كانت الصين تحتلها . الا ان الصين لقيت سلسلة من النكبات منذ اواسط القرن الثامن . فقد انتصر العرب على الصين (٧٥١) في معركة نهر طلس (في اواسط اسية اليوم) الى الشمال من فرغانة . وكان هذا آخر النشاط الصيني العسكري الى الغرب من حوض تاريم . وفي السنة نفسها صدت قوات دولة نان – تشاو (في ولاية يونان الصينية اليوم) هجوما صينيا . ومع ان ولاية نان – تشاو (وهي من التاي) كانت قد قبست المدنية الصينية والنظم الامبراطورية الصينية . فان هذا هو الذي مكن لها من تنظيم امورها . وصد الصين . وفي سنة ٧٥٥ ثار ان لو – شان (وهو قائد تركي) ولم تخمد ثورته إلا في سنة ٧٦٣ . وكانت اثارها مخربة كثيرا . والارقام الموجودة بين ايدينا تدلنا على ان سكان الصين في سنة ٧٦٤ كانوا اقل من ثلث ما كانوا عليه سنة ٧٥٤ .

٥٤–العالم الاسلامي ٧٥٠–٩٤٥

إن ثورة سنة ٧٥٠ غيرت ماهية الدولة الاسلامية. فقد كانت هذه الدولة، من سنة ٦٣٣ الى سنة ٧٥٠، فترة «سيادة» لفئة اسلامية عربية ذات امتيازات خاصة بها، وكانت تسيطر على اعداد كبيرة من الرعايا غير المسلمين واعداد اصغر، لكنها تتزايد كمّا، من الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب. وهذه «السيادة» العربية الاسلامية حلّ محلها الآن «سيادة» اسلامية، التي كانت لا تزال اقلية عددا، وكانت لا تزال تتمتع بامتيازات خاصة، إلا انها اصبحت جماعة من المسلمين بقطع النظر عن العرق او القومية. وقد كانت هذه «الامة»، من حيث امكاناتها، مسكونية. فقد تضم جميع سكان الدولة الاسلامية، بل البشرية جمعاء. وازاحة «السيادة» العربية (٧٥٠) ثُبِت في سنة ٨١٣، لما استولى المأمون (وقد عهد اليه ابوه الرشيد بالجزء الايراني من الامبراطورية) على الجزء الذي كان حصة اخيه الامين (وقد عهد الرشيد به اليه، وهو الذي كان يقيم فيه اكثر العرب من سكان الامبراطورية).

والثمن الذي دفعته الدولة الاسلامية لقاء وضع حد لهوية الامة الاسلامية عربيا، كان تحوّل الحكومة الى اوتوقراطية من النوع الفارسي الساساني. كان يغلب على العرب الميل الى الفوضى –كان هذا يصدق لا على العرب البدو الرعاة فحسب، بل على المستقرين من سكان الواحات في الجزيرة العربية، وعلى «الامصار» التي قام فيها العرب المتصرون. يدعو المؤرخ اليوناني ثيوفانوس (كتب حول سنة ٨١٠–٨١٣) رأس الدولة الاسلامية «رئيس المجلس». هذا الوصف ينطبق على الخلفاء الراشدين؛ ولم يكن خلفاؤهم الامويون اوتوقراطيين في علاقاتهم مع جماعاتهم من العرب، اذ ان قوتهم السياسية والحربية كانت تعتمد على تأييد العرب لهم. ومن الممكن للعرب ان يتحزبوا وان يحسوا بالاذى، لذلك كان على معاوية وخلفائه ان يعاملوا العرب في غاية الحذر. فانتفاض «السيادة» العربية اراح العباسيين من مثل هذا التقيد في ممارستهم لسلطتهم. والمسلمون من غير العرب نالوا حظهم من المساواة بالعرب بالقياس الى غير المسلمين،

لكنهم لم يرثوا درجة الحظوة التي كانت للعرب مع الامويين.

واللغة العربية لم يؤثر فيها ما اصاب الشعب العربي من تدني المنزلة. فقد ظلت اللغة العربية، ايام العباسيين لغة الدولة الاسلامية للشؤون الادارية، كما انها استمرت لغة الشعر، وهذا الشعر، مثل النحو، اسهم فيه عرب وغير عرب. والمأمون (حكم ٨١٣-٨٣٣) اعتمد على الايرانيين مصدرا لتأييده سياسيا وحربيا، لكنه شجع ترجمة الاعمال الفلسفية والعلمية اليونانية الى العربية. وقدنقل بعضها من اليونانية رأسا، ونقل عدد اكبر عن ترجمات سريانية (نقلت عن اليونانية اصلا). لقد ارغم موظفي الدولة الاسلامية من غير العرب ان يكونوا ثنائيي اللغة، وذلك قبل نهاية القرن السابع، ومن هذا الصنف الذي زود المترجمين في القرن التاسع. وقد كانت حران (الرها) في الجزيرة الفراتية احد السبل الذي تم عليه النقل. في هذه المدينة كانت بقايا هيلينية (تعود الى ما قبل المسيحية وما قبل الاسلام) للديانة البابلية محتفظة هناك بتعاليمها الى القرن التاسع. والسبيل الآخر هو جند يشابور في خوزستان (عربستان). أنشأ جند يشابور الامبراطور الساساني شابور الاول (حكم ٢٤١-٢٧٢) لتكون مسكنا للاسرى الذين حملهم من سورية. لكنها اصبحت فيما بعد مركزا لمدرسة الطب النسطورية.

ودفق الترجمة من السريانية واليونانية الى العربية في القرن التاسع يدل على انه كان هناك قراء مثقفون نشطون. وتركزت هذه الحركة في بغداد التي كانت تقع على مسافة قصيرة من اكتيسفون (المدائن) عاصمة الساسانيين السياسية السابقة وعاصمة الغرثيين قبلهم. وقد انشئت بغداد سنة ٧٦٢ عاصمة للخلافة العباسية. وقد اصبحت مدينة «عالمية»، على نحو ما كانت عليه تشانغ-آن (في الصين) في مدة المئة والخمسين سنة السابقة. وتطوير اللغة العربية في المصهر الفكري في بغداد في القرن التاسع جعل منها الالة التي اصبحت اللغة الحضارية الشائعة للعالم الاسلامي بكامله من حوض سيحون وجيحون الى المحيط الاطلسي.

واخذت العربية تحل محل لغات اخرى كانت قائمة في الامبراطورية الاسلامية، لتصبح لغة التخاطب. لكن في هذا المجال لم تنجح العربية في أن تحل محل الفارسية. فالفرس احتفظوا بلغتهم لكنهم كتبوها بالالفباء العربية، واثروها بكلمات اخذت من العربية. وهذه اللغة الجديدة اصبحت فيما بعد اداة للتعبير عن ادب عظيم. وقد كان أيسر على العربية ان تحل مع الزمن محل اختها السامية اللغة السريانية التي كانت لغة التخاطب

في الريف في الهلال الخصيب ايام الفتح العربي. وانتشرت العربية تدريجا على حساب اللغة القبطية في مصر، وبسرعة اكبر في شمال غرب افريقية على حساب بعض اللهجات البربرية. لقد كان البربر متخلفين نسبيا، ومن ثم فقد قبلوا اللغة العربية والاسلام. وفلاحو الهلال الخصيب ومصر الذين حافظوا خلال الفترة التي نتحدث عنها الآن (اي من ٧٥٠ الى ٩٤٥) على المسيحية. فان انتشار العربية فيما بينهم كان قليلا نسبيا.

ومما حفز النشاط العقلي في المجتمع الاسلامي الحاجة الى تزويد الاسلام بالادوات العقلية التي كانت ملكا للأديان التي يتبعها غير المسلمين من رعايا الامبراطورية. فقد كان من الواضح ان الاسلام كان بحاجة الى منظومات قانونية ولاهوتية تتناسب مع الدور القيادي للجماعة في امبراطورية كانت موطنا لعدد من الفلسفات القديمة والناضجة.

كانت الشريعة من اول الامور اللازمة للمجتمع. وكان لا بد من التعمق في درس القرآن الكريم والحديث النبوي لتوضيح الامرين وتصنيف المادة الموجودة فيهما، وملء الفراغات الممكنة على قاعدة القياس والافادة من العرف والعادة المحليّين، اللتين كانتا. في احيان كثيرة (فيما كان جزءا من الامبراطورية الرومانية) تعديلا محليا للقانون الروماني. فيما بين ٧٥٠ و٩٠٠ جمع الحديث وصنف وقامت المذاهب الاربعة. وقد كانت هذه كلها مقبولة. ومن ثم فان اختيار اي من المذاهب الاربعة امر متروك للجماعة نفسها.

كان من الطبيعي ان يتأثر الفكر الاسلامي بما كان في البلاد المفتوحة من لاهوت مسيحي، وبما نقل عن اليونان من فلسفة. لكن وضوح فكرة الوحدانية في الاسلام لم تكن لتسمح للذي حدث في المسيحية من وجوب عقد مجامع مسكونية لصوغ عقيدة او قانون للايمان. والفكرة التي اثارت مشكلات لارتباطها بالحياة السياسية كانت قضية «خلق القرآن» (في ايام المأمون). اما القضية الفلسفية العامة التي نظر فيها الفيلسوفان اللذان ظهرا في المئة سنة المنتهية بسنة ٩٤٥ هي التوفيق بين الاسلام والفلسفة اليونانية. اما الفيلسوفان فهما الكندي (تو ٨٧٣) والفارابي (تو ٩٥٠).

إن ثورة ٧٥٠ رافقها امران: الاول توقف التوسع العربي عن طريق الفتح. والثاني انها كانت بدء النهاية بالنسبة للوحدة السياسية للدولة. في عصر الدولة الاموية، على ما كان بين الزعامة من تناحر. استمر العرب في توسيع رقعة الامبراطورية فتحا حتى قاربت شمس الدولة على المغيب. لكن العباسيين لم يتسلموا حتى الامبراطورية نفسها

كاملة. ففي سنة ٧٥٦ نجح عبد الرحمن الداخل في تكتيل العرب في الاندلس حوله (وكانوا قد رفضوا قبول الدولة العباسية اصلا). وبين ٧٥٧ و٧٨٦ قامت ثلاث دول من الخوارج في بلاد البربر في الجزائر وفي سفوح الاطلس الجنوبية. وفي سنة ٧٨٨ قامت امارة علوية (الادارسة) في شمال المغرب (فاس). وقامت دولة الاغالبة في تونس في سنة ٨٠٠، والتي ظلت تعترف بولاء اسمي للخلافة العباسية حتى حلت الخلافة الفاطمية مكانها (٩٠٩) وهي التي كانت تنكر على العباسيين شرعيتهم (في الخلافة) واملت ان تحل محلهم في العالم الاسلامي بكامله.

وقد كانت الفتن الدينية والسياسية في الممتلكات الايرانية اشد أذى على الخلافة العباسية، بسبب ان ايران كانت مصدر قوتها. ان الايرانيين لم يجدوا في الزرادشتية ما يشفي الغليل، فتحول البعض منهم الى المانوية والمزدكية. وقد كان الايرانيون، على العموم، اسرع في اعتناق الاسلام من معاصريهم من المسيحيين. وكان ابو مسلم اليد اليمنى للعباسيين في وصولهم الى السلطة. ويبدو ان باغتيال ابي مسلم على يد المنصور (حكم ٧٥٤–٧٧٥) بدت بوادر التذمر الايراني، وقامت سلسلة من حوادث العصيان (في السنوات ٧٥٥/٧٥٦ و٧٦٦–٧٦٨ و٧٧٧–٧٨٣/٤ – ثورة المقنع). وبابك الخرمي قاد ثورة في غرب ايران من ٨١٦ الى ٨٣٨. وكانت ثمة ثورة الزنج (٨٦٩– ٨٨٣) في الحوض الادنى للرافدين. وقد انتشر الاسلام الشيعي في ايران بين جبال البرز والساحل الجنوبي لبحر قزوين، مع ان المنطقة لم يفتحها العرب، وحكمتها اسرة شيعية (زيدية) من ٨٦٤ حتى ٩٢٨. وفي سنة ٨٣٢ (وما تلاها) تغلب البويهيون (من شمال غرب ايران اصلا) على غرب ايران، وفي سنة ٩٤٥ احتلوا بغداد واتخذوا من الخلافة العباسية اداة طيعة لاغراضهم.

منذ ان تولى المعتصم الخلافة (حكم ٨٣٣– ٨٤٢) والعباسيون ادوات طيعة في ايدي الجند الرقيق التركي، وهم الذين خلفوا الخراسانيين الذين يسروا للعباسيين الوصول الى الخلافة. (وكان الاتراك، بالرغم من زوال دولتهم في السهوب الاوراسية، لا يزالون يسيطرون على تلك السهوب.) والجند الرقيق التركي كان سنيا في مذهبه. والسامانيون (وهم ايرانيون) الذين حكموا طخارستان وما وراء النهر وخراسان كانوا متحدرين من زرادشتيين اعتنقوا الاسلام السني، وكانوا حريصين على ان يعترفوا بالسيادة الاسمية للخلافة. اما البويهيون الذين دخلوا بغداد (٩٤٥) فكانوا شيعة، وبذلك اتضح ان سلطة

الخلافة لم تعد تشمل عالم السنة. وكان هذا الامر قد برز عمليا لما اعلن عبد الرحمن الناصر الأموي نفسه خليفة في الاندلس (٩٢٩). وهكذا فقد كان في وقت واحد خليفتان سنيان وخليفة فاطمي- كل يحكم جزءا من الامبراطورية الاسلامية.

في الفترة الممتدة من سنة ٧٥٠- ٩٤٥ كانت الانتصارات الاسلامية هي من صنع الدويلات الاسلامية في المغرب او من صنع المغامرين (الاستثناء الوحيد هو انتصار العرب على الصينيين في معركة نهر طلس سنة ٧٥١). الدولة الاموية في الاندلس اخذت تتقلص مساحة. ففي سنة ٨٠٣ خسرت ما كان بيدها شمال جبال البيرانس وقطلونيا الى جنوب الجبال نفسها. إلا ان بعض مسلمي الاندلس الذين اخرجوا منها بعد ثورة الربض، انتزعوا كريت (٨٢٦ او ٨٢٧) من الامبراطورية الرومانية الشرقية. وفي السنوات ٨٢٧- ٩٠٢ انتزع الاغالبة صقلية (باستثناء حصن واحد فيها) من الامبراطورية نفسها. وانحلال امبراطورية شارلمان في القرن التاسع مكن العرب في اسبانية وصقلية من القيام بحملات بحرية ضد ايطالية. وقد تمكنوا من احتلال اجزاء مختلفة من البلاد.

وفي اواسط اسية لم يتراجع الاسلام؛ على العكس فقد انتشر. ففي ايام الخليفة المقتدر (٩٠٨- ٩٣٢)، حين كانت الخلافة العباسية على اضعف ما يكون، بعث بلغار الفولغا (وهم شعب تركي كان يقيم عند ملتقى الفولغا بكاما) الى الخليفة يطلبون منه ان يبعث اليهم من يفقههم بالدين الاسلامي. وقد ارسل الخليفة بعثة اليهم (٩٢٢). وقد اعتنق القارلق (وهم اتراك) الاسلام من جيرانهم في ما وراء النهر- وهم السامانيون. وقد انتشر القارلق الى حوض تاريم وحملوا الاسلام معهم. وهكذا فيما كانت الدولة الاسلامية الواحدة تتمزق، كان الناس يدخلون في الاسلام افواجا- على كل اكثر مما كانوا يعتنقونه ودولته واحدة قوية.

٥٥-مدنية البزنطيين ٧٢٦-٩٢٧/٩٢٨

إذا قيست الامبراطورية البزنطية (التي قاومت حصار العرب لعاصمتها مرتين ٦٧٤- ٦٧٨ و٧١٧- ٧١٨) بجارتها الجنوبية الامبراطورية العربية الاسلامية وبامبراطورية شارلمان (حكم ٧٦٨- ٨١٤) بدت ذات رقعة صغيرة. وقد ظلت الامبراطورية الكارولنجية جارة البزنطيين الشمالية الغربية الى انحلال الامبراطورية خلال القرن التاسع. وكانت الدولة البزنطية حذرة في سياستها الخارجية (بين ٧١٩ و٩٢٥). وقد كانت محاولة الامبراطورة ايريني (٧٨٨) لاخراج الفرنك من لومبارديا فاشلة- وقد كانت هذه مغامرة لا تتفق مع السياسة الخارجية العامة.

خلال الفترة المذكورة حصرت حكومة الامبراطورية الشرقية همها في تتبع هدفين: اولهما الاحتفاظ بما كانت لا تزال تسيطر عليه من الممتلكات. وثانيهما ضم «المستوطنات الصقلبية» التي قامت داخل البلقان. التي كان باستطاعتها انقاذها من البلغاريين. وقد كانت الحروب مع البلغار العبء الاكبر على مصادر القتال في الامبراطورية الشرقية. وبعد ان استولى المسلمون على كريت (٨٢٦ او ٨٢٧). وقامت تحصينات كنديا كأنها خنجر موجه الى قلب الامبراطورية الرومانية الشرقية. قامت هذه بمحاولات متكررة لاسترداد الجزيرة. كما ان الامبراطورية الشرقية ناهضت احتلال الاغالبة لصقلية (٨٢٧- ٩٠٢) ولكن دون جدوى. ولما احتل المسلمون الصقليون راغوزا. اسرع الامبراطور باسيل (حكم ٨٦٧- ٨٨٦) فضم ابوليا الى الامبراطورية (٨٦٨- ٨٧٦).

وهذه كانت سياسة الدفاع التي انتهجتها الامبراطورية الرومانية الشرقية. فقد كان شغل الامبراطورية الشاغل ان تحصل على «عازل» يمنع الاتصال بين المسلمين في شمال غرب افريقية وصقلية في الجهة الواحدة وبين البلغار في الجهة الثانية. عبر البحر الادرياتيكي. وتبدو السياسة الحذرة التي اتبعتها الامبراطورية الشرقية في ان الحملة التي

فقد فيها امير ملطية قواته (٨٦٣). لم تتلها حملة بزنطية. وانما جاءت هذه سنة ٩٢٦. اي بعد ثلاث وستين سنة. والحملة الوحيدة التي ارسلتها الامبراطورية الشرقية في هذه الفترة كانت ضد المسيحيين البولسيين الذين اقاموا لهم حصنا في تفريكه (دفريجي). والذين دامت الحرب بينهم وبين الامبراطورية الشرقية من حول سنة ٨٤٣ الى حول سنة ٨٧٨.

وكانت الحروب البلغارية اشد واكثر جدية. فقد عجز الامبراطور قسطنطين الخامس عن تدمير البلغار في حروب امتدت من ٧٥٥ الى ٧٧٥. وكانت الخصومة تدور حول الاستيلاء على «المستوطنات الصقلبية». وبعد حروب طويلة حددت الحدود (٩٠٤) فمرت حدود البلغار على مسافة ٢٢ كيلو مترا عن تسالونيكا (سلانيك)– وهذه كانت مدينة بالغة الاهمية للامبراطورية الشرقية.

وقد شغلت الامبراطورية الرومانية الشرقية. بين سنة ٧٢٦ وسنة ٨٤٣. بما عرف بمشكلة الايقونات. فمن المعروف ان الخليفة الاموي يزيد (حكم ٧٢٠– ٧٢٤) امر بتحطيم الايقونات في جميع الكنائس المسيحية في الدولة العربية. وفي سنة ٧٢٦ اصدر ليو الثالث الامبراطور البزنطي. امرا شبيها بذلك. وذلك بناء على طلب جنود الحاميات في اسية الصغرى. إلا ان الرعايا التابعين لكنيسة رومه (وهؤلاء كان بينهم يومها سكان جزر الارخبيل وكريت وبعض سكان بلاد اليونان القارية) قاوموا الامر بشدة. فردت حكومة الامبراطورية الشرقية بان نقلت الرعايا اليونان هؤلاء من اسقفية رومه الى اسقفية القسطنطينية.

في سنة ٨٤٣ انتهى هذا النزاع داخل الامبراطورية الرومانية الشرقية الى حل وسط كان في صالح محبي الصور. فقد تقرر ان تحرّم التماثيل لانها ثلاثية الابعاد ويحتفظ بالصور الثنائية الابعاد. لا على انها اشياء للعبادة بالذات. بل على انها رموز لما تمثل من اناس او ملائكة او حتى اشخاص الهية. وقد انهى هذا الحل الخصومة القائمة بين بطريركيتي القسطنطينية ورومه. اذ ان رعايا البابا لم يجمعوا على تأييده. وفي سنة ٧٨٧ ايد المجمع المسكوني السابع (المنعقد في نيقية) موقف الامبراطورية الرومانية الشرقية. كما ان البابا وافق على مقرراته. لكن مجمعا شمل اساقفة الامبراطورية الكارولنجية انعقد في فرانكفورت (٧٩٤) ندد بالقرارات المذكورة.

وقد تلا انتهاء الصراع الداخلي في المسيحية الارثوذكسية الشرقية. نهضة ثقافية

كان محركها الروحي فوتيوس (بطريرك القسطنطينية ٨٥٨- ٨٦٧ و٨٧٧- ٨٨٦). وقد وسع نطاق الاشعاع البزنطي العمل الذي قام به المبشران الاخوان: قسطنطين- سيريل واخو ميثوديوس. وكانت البعثة الاولى التي قام بها قسطنطين الى الخزر. وهم شعب تركي كان من رعايا دولة تركية قامت في السهوب. التي كانت اكثر دولة متمدنة ظهرت في الطرف الغربي للسهوب الاوراسية منذ زوال امبراطورية السكيثيين (في القرن الثالث قبل الميلاد). وقد كان الخزر حلفاء قدماء للامبراطورية الرومانية الشرقية في حروبها ضد الفرس والعرب. وفي سنة ٨٦٠ (وهي السنة التي وصل فيها قسطنطين الى خازاريا) تعرض الحلفاء القدماء (اي الامبراطورية الرومانية الشرقية) لهجوم اسوجي. اذ هاجمت عمارة بحرية القسطنطينية جاءتها من روسيا. ومع ذلك فان بعثة قسطنطين الى الخزر كانت فاشلة. ففي سنة ٨٦٠ كانت اسرة خاقان الخزر قد التزمت باليهودية (وقد اعتنقوا هذه الديانة لانها لم تورطهم في خضم السياسة الذي كان يمكن ان يغوصوا فيه فيما لو اعتنقوا الدين الذي كان قائما اما في الامبراطورية الرومانية الشرقية - المسيحية- او في الخلافة العباسية -الاسلام.) وفي سنة ٨٦٣ لبى الاخوان . قسطنطين- سيريل وميثوديوس. دعوة حاكم مورافيا الكبرى الصقلبية (في تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا الحاليتين) فذهبا الى هذا البلد الصقلبي النائي. حاملين معهما الفباء كان قسطنطين -سيريل قد وضعها لتدوين اللهجة الصقلبية في البلاد الواقعة خلف تسالونيكا .

كانت مورافيا الكبرى تابعة. بما لا يقبل الشك. لاسقفية رومه. وقد كان الاخوان ايضا مواليين للباباوية. وقد وافقت الباباوية على عملهما. لكن الكنيسة الفرنكية كانت مخاصمة له. اذ انها فسرته على انه عمل سياسي القصد من ورائه الاعتداء على املاك امبراطورية الفرنك من قبل الامبراطورية الرومانية الشرقية. وفي هذا التاريخ كانت الامبراطورية الفرنكية في دور انحلال. لكن الكنيسة الفرنكية لم تكن كذلك. وكانت تتبع سياسة خاصة بها. كانت تصطدم مع سياسة اسقفية رومه. وقد نجحت الكنيسة الفرنكية (سنة ٨٨٥) في القضاء على عمل البعثة الصقلبية المورافية. بحيث اصبح بقية رجال الدين منها لاجئين. (كان قسطنطين سيريل قد توفي سنة ٨٦٩ وتوفي اخوه سنة ٨٨٥). وقد وصل بعض هؤلاء اللاجئين الى بلغاريا. وقد عثروا هنا على مجال للعمل التبشيري.

في سنة ٨٦٣ تبدل الموقف في الحروب التي كانت تدور رحاها على الحدود

العربية- البزنطية في اسية الصغرى، وذلك لمصلحة البزنطيين. وتبع ذلك (٨٦٤) اعتناق البلغار للمسيحية الارثوذكسية الشرقية. وفي سنة ٨٧٠ اكد خان البلغار بوريس ميخائيل ولاءه لاسقفية القسطنطينية، بعد ان جرب فيما اذا كان ولاؤه لاسقفية رومه كان يسيء الى استقلال بلغاريا سياسيا. ولما كان بطريرك القسطنطينية من رعايا الامبراطوريه الرومانية الشرقية سياسيا، فقد يفسر الولاء لسيادة هذا البطريرك كنسيا، على انه قبول بالسيادة السياسية للامبراطورية. واذ رحب بوريس (٨٨٥) برجال الدين الصقالبة الميول، تمكن من بناء كنيسة بلغارية وطنية دون ان يؤوي رجال دين من الاجانب- اما من الناطقين باليونانية او من الناطقين باللاتينية.

اصبحت اللغة الصقلبية الآن لغة بلغاريا الوطنية اذ ان توسع بلغاريا جنوبا في غرب زاد عدد السكان المتكلمين باللغة الصقلبية (تحت حكم مؤسسي بلغاريا الاوائل وهم من الاتراك.) وبعد سنة ٨٨٥ وضعت الفباء جديدة (تعرف خطأ باسم الالفباء السيريلية) كانت ابسط من الالفباء التي وضعها قسطنطين- سيريل. واللهجة الصقلبية (التي استعملت في الاجزاء المصاقبة داخليا لتسالونيكا) اصبحت لغة الطقس الديني لا عند البلغار فحسب، بل عند الصقلبة الذين اعتنقوا المسيحية الارثوذكسية الشرقية فيما بعد، وحتى لبعض الصقلبة الذين اعتنقوا المسيحية الرومانية في دلماشيا.

إن اعتناق بلغاريا للمسيحية ادى الى توتر موقت في العلاقات بين القسطنطينية ورومه. لكن وصول الكهنة اللاجئين من مورافيا الكبرى الى بلغاريا (٨٨٥) ختم على ولاء بلغاريا للارثوذكسية الشرقية على الصيغة الخلقدونية.

وسنة ٨٦٣ التي عرفت القضاء على حملة امير ملطية على يد الامبراطور ميخائيل الثالث والتي وصل فيها قسطنطين- سيريل وميثوديوس مورافيا الكبرى، شهدت احياء جامعة القسطنطينية. فالابن الثاني لخان بوريس خان سيمون (الخليفة الثاني) كان قد تلقى علومه في القسطنطينية. وقد اسرته الثقافة اليونانية البزنطية. وقد حاول ان يضم بلغاريا والامبراطورية الرومانية الشرقية تحت حكمه (لان العرش الامبراطوري تولاه ولد سنة ٩١٣). لكنه فشل في الوصول الى ذلك بالاسلوب الدبلوماسي اولا، وعن طريق حرب استمرت من سنة ٩١٣ الى سنة ٩٢٧ (السنة التي توفي فيها سيمون). وظلت اسية الصغرى بعيدة عنه، ولم ينجح في الاستيلاء على اي من المدن الساحلية.

وسويت الامور بين رومانوس (امبراطور القسطنطينية) وخلفاء سيمون. وفي سنة ٩٢٦ بدأ حملته ضد العرب في بلاد الشام. لكن الشتاء القاسي (٩٢٦/٩٢٧) قلب موازين القوى في السياسة الداخلية- في الامبراطورية الرومانية الشرقية- بين الفلاحين وكبار الملاكين والحكومة الامبراطورية. إن السنوات ٩٢٦ - ٩٢٩ كانت فترة لها اثرها في الامبراطورية.

٥٦- المسيحية الغربية ٧٥٦-٩١١

كان المستقبل يبدو باسما بالنسبة الى مملكة الفرنك في سنة ٧٥٦. فقد كان الملك، بيبين الثالث، حصل على اعتراف بانه الملك الشرعي بديلا عن الملك الميروفنجي المخلوع. وفي السنة ذاتها كان بيبين قد قاد حملتين مظفرتين ضد لومبارديا وحمل ملكها على قبول شروطه لاحلال السلم. وفي تلك السنة ايضا اقام عبد الرحمن الداخل امارة اموية في الاندلس مستقلة عن الدولة العربية الاسلامية. في سنة ٧٦٨ خلف ابنا بيبين شارل وكارلومان والدهما على العرش، ولكن الثاني توفي سنة ٧٧١، فاصبح شارلمان سيد المملكة مع حرية التصرف.

في ٧٧٣- ٧٧٤ ضم شارلمان لومبارديا الى ممتلكاته، ووضع منطقة رافنًا، التي احتلت باسم البابوية، تحت اشرافه. وقد قبل الايطاليون الشماليون الوحدة السياسية مع الفرنك (٧٧٣-٧٧٤). فالفرنك واللومبارديون هم ابناء عم، وكان الاولون قد اصبحوا كاثوليكا (خلال القرن السابع) وبذلك توحد الفريقان مذهبيا. ورعايا اللومبارديين من الذين كانوا رعايا الرومان هم ابناء عم لرعايا الفرنك المشاكلين لهم من حيث التبعية السابقة للرومان. ومع ان السكسون، جيران الفرنك الى الشمال، كانوا ابناء عم للفرنك، فقد قاوموا احتلال الفرنك لبلادهم. وقد صرف شارلمان نحو ثلث قرن (٧٧٢-٨٠٤) حتى فتح سكسونيا. على ان المهم هو ان شارلمان اثقل كاهل الشعب والبلاد بسبب الحروب التي شنها والتي كانت على جبهات اربع: ضد سكسونيا وضد العرب في اسبانية وضد الباسك والبريتون (في المنطقة بين فرنسة واسبانية) وضد الافار في سهوب هنغاريا (هنا كان البلغار حلفاء شارلمان في القضاء على الافار.) وقد فتح سكسونيا نهائيا، وكذلك ارغمها على اعتناق المسيحية. إلا ان شارلمان كان يثير الجيران الابعدين في محاولاته احتلال بلاد الاقربين. فاحتلال سكسونيا، مثلا، اثار حفيظة الدانيمركيين. ولعله كان احد الدوافع للتفجر السكاني الاسكندنافي (راجع الفصل التالي).

ومن أهم الاحداث في حياة شارلمان كان ان توّجه البابا ليو الثالث «امبراطورا للرومان» وذلك في كتدرائية القديس بطرس في رومة يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠. ليس ثمة ما يبين تماما فيما اذا كان هذا العمل قد تم بمعرفة مسبقة من شارلمان، ولكن من المؤكد ان تقبل شارلمان للقب الامبراطوري وضع على كاهله عبئا دبلوماسيا ضخما. فمنزلته كانت معرضة دوما للخطر ما دام امبراطور القسطنطينية الروماني لا يعترف به امبراطورا. وامبراطور القسطنطينية كان لا ترقى ريبة الى حقه في المنصب. وقد كان ثمن هذا الاعتراف حل جميع القضايا المعلقة بين الدولتين، وعلى شروط الامبراطورية الشرقية. وقد تمت المفاوضات في ٨١١– ٨١٢، ووفق عليها سنة ٨١٤، بعد وفاة شارلمان.

كان احياء اسم الامبراطورية الرومانية الغربية (وهي مؤسسة كان قد انتهى امرها) امرا اسهل بكثير من احيائها في الواقع. ولم يكن عند شارلمان من المتعلمين، واصحاب الخبرة ما يكفي لادارة امبراطوريته الواسعة. واشرافه الرئيس على امبراطوريته جاء من مؤسسة المفتشين المتنقلين الذين كانوا يطلعونه على الشؤون المحلية فيها ولكن هذا كان صالحا ما دامت الامبراطورية قائمة تحت اشراف سياسي موحد وبادارة رجل نشيط محترم. وقد جاء شارلمان من نورثمبريا رجل من رجال الكنيسة هو ألكوين. والكوين كان من اهل العلم والخبرة والمقدرة. وكان شارلمان محظوظا لان اباه وجده من قبل كانا حاكمين قديرين (وكانت وفاة اخيه كارلومان نعمة سياسية للرجل). لكن ابنه وخليفته، لويس التقي، عجز عن ضبط الامور. وكان الكارولنجيون قد ورثوا عن الميروفنجيين الترتيب الخطر وهو قسمة الامبراطورية بين ابناء الملك بعد وفاته، كما لو كانت ملكا شخصيا. في سنة ٨٤٣ قسمت الامبراطورية بين ابناء لويس التقي الثلاثة. ومع ان توحيدها اعيد في ايام شارل السمين (٨٨١–٨٨٨) فان هذا لم يكن ناجعا. وقد استمرت الاسرة الكارولنجية في فرانسيا الغربية (اي فرنسة) حتى سنة ٩٨٧. إلا ان هؤلاء الملوك لم يكونوا افضل من الملوك الميروفنجيين.

قبل ان ينتهي القرنالتاسع كان الموظفون المحليون الذين كان مفتشو شارلمان يراقبونهم قد اصبحوا في الواقع حكاما بالوراثة، كما عادت الى البابا سلطته على الاملاك البابوية في ايطالية. ولم يتمكن لا الحكام المحليون ولا اسيادهم الكارولنجيون من صد الهجمات البحرية الاسكندنافية، التي كانت قد اذهلت شارلمان نفسه. وفي القرن التاسع كان ثمة تنافس بين المهاجمين البحريين الاكسندنافيين واولئك القادمين من شمال غرب

افريقية في مهاجمة سواحل الامبراطورية الكارولنجية المتفسخة. وقد فشل المهاجمون من افريقية مرتين (٨٤٦ و ٨٤٩) في احتلال رومه (على نحو ما فعل الفندال سنة ٤٥٥). ومع ان لوثر كان الامبراطور المشرف على رومه اسميا (بحسب تقسيم سنة ٨٤٣) فان البابا ليو الرابع هو الذي انقذ رومه اذ حصن (٨٤٩) ارباضها للدفاع عن المدينة.

وقد ظهر، بعد سنة ٨٩٦، منافس جديد للهجمات البحرية الاسكندنافية والاسلامية- هم المجر، الذين كانوا سادة الفرس في هجومهم. (وكان المجر قد ملأوا الفراغ الذي احدثه القضاء على الافار في سهوب هنغاريا.).

كانت الغزوات البربرية الشمالية التي جاءت اوروبة في القرنين التاسع والعاشر اكبر اثراً، بالنسبة الى المسيحية الغربية، من تلك التي جاءت في القرنين الخامس والسادس. إن احياء شارلمان للامبراطورية الغربية اكسبها بريقا خلب لب هؤلاء البرابرة، فانقضوا عليها. وفي سنة ٩١١ اضطر شارل البسيط، ملك فرنسة، الى السماح لجماعة من اهل البحر الاسكندنافيين ان يستقروا نهائيا في المنطقة المعروفة اليوم باسم نورماندي، على شريطة ان يعتنقوا المسيحية. ويبدو ان العمل الحضاري الذي قام به شارلمان كان اثبت على الزمن من محاولته، بناء امبراطورية. فقد اسرت المدنية التي هبط الاسكندنافيون في ارضها قسرا، هؤلاء القادمين الجدد، فاخذوا انفسهم بتعلم اللغة والتدرب على العادات والآداب المحلية، وقبلوا المسيحية- كل ذلك فعلوه بحماس.

في سنة ٩١٠ انشىء دير في كلوني في برغنديا، وهي منطقة تكون نقطة جغرافية مهمته بالنسبة لشبكة المواصلات التي كانت تربط اجزاء العالم المسيحي الغربي. كان انشاء دير كلوني على يد احد خلفاء الكارولنجيين المحليين. (وفي هذه البقعة كان القديس كولومبانوس الارلندي قد انشأ ديرا في لوكسيل قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون.)

كان الانتاج في كل من نورماندي وكلوني بطيئا. ولم يكن ثمة من يمكن ان يرى، في الوقت الذي تم فيه قيامها، ان ذلك كان نقطة تحول بالنسبة الى المسيحية الغربية. فقد كانت هذه المسيحية في النصف الاول من القرن العاشر في ادنى ما وصلت اليه. وخلال المئة سنة التي تلت ذلك اخذ النورمان والكلونيون يظهرون ان المسيحية الغربية كانت تنهض من الوضع الذي اوصلتها اليه سياسة شارلمان الطموحية.

٥٧–الاسكندنافيون ٧٩٣–١٠٠٠

جاء التفجر السكاني الاسكندنافي (٧٩٣) مفاجئا وعنيفا وكانت اسبابه مما يمكن تقصيه. وقد كانت المناسبة المباشرة لذلك حربا كبرى خارج حدود هؤلاء البرابرة وقد خلفت المتقاتلين مضنين، ومن ثم اصبحوا فريسة مغرية لمهاجميهم، كما كان الباعث الخفي هو الصراع الدائم بين الهمجية والمدنية.

كانت اسكندنافيا قد استوطن فيها الانسان منذ نهاية العصر الجليدي، فقد تبع قناصو العصر الحجري المتأخر تراجع الجليد حتى استقروا في البلاد الاسكندنافية. وقبل ان تغرب شمس الالف الثالث قبل الميلاد كان طليعو الثورة الزراعية في الشمال الغربي من اوروبة قد أخذوا يستغلون التربة الخصبة في الدانيمرك وفي جنوب السويد. ولما بدأ تفجر الفيكنغ في التاريخ المذكور، كان جنوب اسكندنافيا قد مرت عليه ثلاثة الاف سنة على الاقل وهو موطن سكان زراعيين مستقرين. ومع انه كانت ثمة هجرات من اسكندنافيا خلال القرنين الاخيرين قبل الميلاد، فان هذا التفجر السابق، مثله مثل تفجر ٩٧٣ – ١٠٦٦، كان فصلا استثنائيا في التاريخ الاسكندنافي. وفي الوقت نفسه كان تأثير انسياب موجات من الحضارة الارفع من الجنوب الى اسكندنافيا تراكميا. وقد كانت التقلبات في علاقات الشعوب الاسكندنافية مع مدنيات الجنوب مزعجة سيكولوجيا بالنسبة الى الاسكندنافيين. وقد بلغت هذه الحالة حدها بسبب تغلب شارلمان على السكسون المقيمين في القارة. فقد وضع هذا الفتح الحدود الشمالية للمسيحية الغربية في حالة تماس مباشر مع اسكندنافيا.

ومع ان اغسطوس تخلى (١٤ م) عن محاولته لايصال حدود الامبراطورية الرومانية الى خط نهر إلبه، فان المدنية اليونانية– الرومانية اثرت جديا في الاسكندنافيين خلال القرون الثلاثة الاولى للميلاد. وقد تعطل هذا الاتصال الثقافي في القرن الخامس لما قضى انسياح الشعوب الجرمانية الشرقية والفرنك على الامبراطورية الرومانية في الغرب.. وعندها عزل السكسون الاسكندنافيين عن الدول الجرمانية المسيحية التي خلفت

الامبراطورية في الغرب ، وحموهم منها. ولكن لما غلب الفرنك السكسون ، وفرضوا عليهم المسيحية ، وجد الاسكندنافيون انفسهم فجأة على اتصال مباشر مع مدنية جنوبية ، وكانت هذه اقرب اليهم من ذي قبل. ويبدو التأثير الذي تركه شخص شارلمان على عقول الاسكندنافيين في شيوع استعمال ماغنوس (ومعناها الكبير) كاسم للرجال في تلك الديار.

كان رد الفعل الاسكندنافي لهذه التجربة المقلقة عدوانيا ، وامتد اعتداؤهم الى منطقة واسعة. في سنة ٨٨٠ وصل الغزاة السويديون الزاوية الجنوبية الشرقية لبحر قزوين ، بعد ان جازوا بحر البلطق وصعدوا في نهر نيفا وانتقلوا عبر خط تقسيم المياه ليسيروا مع نهر الفولغا. وبين حول ٩٨٧ و١٠٢٥ تمكن المستوطنون الاسكندنافيون من الاستيلاء على موطىء قدم على الساحل الشمالي الشرقي لاميركا الشمالية. وقد هبطوا المكان من غرينلاند ، حيث كانوا قد احتلوا الساحل الغربي للجزيرة (٩٨٥-٩٨٦) آتين من ايسلاندا ، وهذه كان قد استقر فيها النورسيون حول ٨٧٤. وسكان فنلاند وغرينلاند من الاسكندنافيين هم ، على التأكيد ، اول الجماعات البشرية المعروفة التي وصلت اميركا من العالم القديم عبر المحيط الاطلسي.

وقد كانت نهايات المتجولين الاسكندنافيين في عصر الفيكنغ مختلفة. فقد كان ثمة غزاة لم يرموا الى الاستيطان في مكان ما. وكان اثر هؤلاء سلبيا ، بالنسبة الى الذين هاجموهم. لكن الغزاة انفسهم تأثروا بالتجربة التي غامروا فيها ، وبالقيمة الاقتصادية والثقافية لما حملوه من الاسلاب. فقد اصابت النكبة ، اول ما اصابت ، الاديرة المسيحية التي كانت تقوم على سواحل امبراطورية شارلمان وسواحل بريطانية. وكان ثمة مستوطنون في الاراضي المسيحية الغربية الذين سمح لهم بالاقامة في مقابل قبولهم بالمسيحية- مثل الاستيطان في نورمانديا (٩١١). وكان الاستيطان في انكلترا (دان لو) قد تم في سنة ٨٧٨ ، وذلك بالاتفاق مع الملك الفرد. وقد فرض المستوطنون الاسكندنافيون انفسهم على سواحل ارلندا دون قيد او شرط ، لكنهم انتهوا بان قبلوا المسيحية. وقد استوطن اسكندنافيون غير اولئك في مناطق كانت مأهولة بالسكان ، لكن السكان كانوا لا يزالون على الوثنية. وكان اهم مجموعة من هؤلاء هم الذين استقروا في روسيا. فقد تمثلهم لغويا رعاياهم الناطقون باللغة السلافية ، وقبلوا المسيحية الارثوذكسية الشرقية على ايدي الذين قهروهم من اهل الامبراطورية الشرقية. واخيرا كان هناك الذين استقروا في ارض خلاء -غرينلاند. اما ايسلاندا فقد سبقهم اليها رهبان ارلنديون مسيحيون. واما في فنلندا فقد

لقوا سكان البلاد الاصليين الذين يبدو انهم اخرجوهم من البلاد قسراً.

ولم يكن لا المسيحيون ولا المسلمون في العالم القديم انداداً عسكريين لمهاجميهم. فقد قبل «الفرد» ان يسمح للمهاجمين ان يستقروا على شروط قبلها شارل البسيط بعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة. وكانت خطة المسيحيين ان يروضوا الاسكندنافيين عن طريق نشر المسيحية بينهم. والمبشرون المسيحيون كانوا جاهزين وشجعانا ونشيطين.

كانت اقدم غزوة مدونة للفيكنغ على ساحل امبراطورية شارلمان في سنة ٧٩٩. وقد عُمد الملك هارالد، المطالب بعرش الدانيمرك سنة ٨٢٦، واخذ معه مبشرا عمل في نشر المسيحية في الدانيمرك سنتين، اذ اخرج هارالد، وذهب المبشر (القديس أنسكر) الى السويد، وسنة ٨٣١ اصبح رئيس اساقفة همبورغ، ولما نهب الفيكنغ همبورغ (٨٤٥) نقلت رئاسة الاسقفية الى بريمن، واصبحت اسكندنافيا تابعة لاسقفية همبورغ– بريمن.

وكان رد فعل الكنيسة في الامبراطورية الشرقية على غزوات الفيكنغ يتسم بطابع المغامرة مثل عمل الفرنك. فقد هاجم الفيكنغ الروس القسطنطينية سنة ٨٦٠، فكان جواب الامبراطورية الشرقية تعيين اسقف ارثوذكسي شرقي (٨٦٧) في كييف وجعله رئيس اساقفة (٨٧٤). وكييف كانت نقطة انطلاق عمليات المهاجمين ضد الامبراطورية. وقد زارت اميرة كييف، اولغا، القسطنطينية (٩٥٧). ومع ان ابنها رفض الدين الجديد، فان الجماعة المسيحية في كييف استمرت. ولما اعتنق فلاديمير المسيحية الارثوذكسية (٩٨٩) تزوج اخت الامبراطور البزنطي.

ملك الدانيمرك اعتنق الكاثوليكية الرومانية (٩٧٤) لما انعقد الصلح بينه وبين الامبراطور (الجرماني) اوتو الثاني. والملك اولاف (حكم ٩٩٥–١٠٠٠) فرض المسيحية الكاثوليكية الرومانية على النروج. وقد لقيت المحاولة مقاومة عنيفة، كما حدث لما فرضت المسيحية ذاتها في السويد. ومع ذلك فان الايسلانديين اعتنقوا المسيحية جماعة (١٠٠٠)، وذلك رغبة منهم في تحقيق وحدة سياسية لجمهوريتهم الفتية.

وكانت الجماعة الايسلاندية، بين الجماعات الاسكندنافية التي اقامت لنفسها مستوطنات في الخارج، في عصر الفيكنغ، ابرزها ثقافة واحفظها لها. فهي التي حافظت على ديوان الشعر الاسكندنافي لما قبل المسيحية، وابطال الملاحم وبطلاتها، يعودون الى ما قبل المسيحية، اي الى الجيل الذي تقبل الدين الجديد. على ان هذا الادب وصلنا على ما

دونه كتاب مسيحيون (من القرنين الثاني عشر والثالث عشر). وقد ظهر في النروج اسلوب شعري جديد. وقد كان الايسلانديون والنروجيون ابرز الشعوب الاسكندنافية ثقافة في عصر الفيكنغ. ومن الناحية السياسية فقد كان للسويد اثر اعمق واثبت على الزمن بالنسبة لتاريخ العالم. فالسويد- الروس الذين استقروا في كييف ونوفغورود هم الذين صنعوا روسيا. ولما قبلت روسيا المسيحية الارثوذكسية (٩٨٩)، اصبحت المسيحية الغربية محدودة بالنسبة الى المسيحية الارثوذكسية الشرقية. وهذه انتشر حولها الاسلام لما اعتنقه بلغاريو الفولغا (قبل ٩٢٢). إلا ان روسيا كانت اثقل وزنا، ومن ثم فان اعتناقها المسيحية الشرقية الارثوذكسية فتح امام هذه الطريق الى شواطىء المحيط المتجمد الشمالي والى سواحل المحيط الهادي.

٥٨ - الهند وجنوب شرق اسية ٦٤٧ - ١٢٠٢

في سنة ٦٤٧ ، وهي تاريخ وفاة الامبراطور هرشا ، كانت المدنية الهندية قد اظهرت مقدرة رائعة في تمثلها الاجانب القادمين الى البلاد . فالآريون انفسهم الذين هاجموا البلاد والذين فرضوا انفسهم ولغتهم على الشمال ، والذين عملوا ، منذ الالف الثاني قبل الميلاد ، على نشر مؤسساتهم عبر شبه القارة لم يسلموا من الاسر الثقافي الذي كان للمتغلبين عليهم من قبلهم . ومثل هذا القدر كان نصيب الفاتحين المتتالين الذين جاءوا الهند من الشمال الغربي - مثل اليونان الذين تغلبوا على امبراطورية ماوريا المضطربة ، والهون العتاة الذين قضوا على امبراطورية غبتا . فقد كان يونانيون قد اعتنقوا البوذية والديانة الهندوية . والهون قد دمجوا في المجتمع الهندي اذ قبلوا في «طبقة» الكشاترية . وفي السباق بين المدنيتين الهندية والصينية للسيطرة الثقافية على جنوب شرق اسية القاري اندونيسيا اسرت المدنية الهندية الرقعة الواسعة باكملها باستثناء ما هو اليوم شمال فيتنام . وفي التنافس بين المدنيتين للاستيلاء على التيبت ثقافيا (خلال النصف الاول من القرن السابع للميلاد) كانت المدنية الهندية هي الرابحة مرة ثانية . وقد كان اكبر انتصار ثقافي للمدنية الهندية كان نشر ديانة هندية ، هي البوذية الماهايانية ، في الصين بالذات ، وعبر الصين ، في كوريا وفي اليابان .

وقد كان المسلمون هم اول جماعة من الجماعات التي هاجمت الهند ، التي لم تتمكن المدنية الهندية من تمثلها . فقد اعتنق بوذيون وهندبون الاسلام ، لكن لم يكن ثمة مسلمون ممن اعتنقوا البوذية او الهندوية . وقد ثبت الاسلام اقدامه في شبه القارة كعنصر مسيطر سياسيا . وقد ظل غريبا على البلاد ، لانه لم يكن مما يمكن تمثله حضاريا . وهذه المسيرة الجديدة لهجوم اجنبي كسر طوق الوحدة الدينية والثقافية لحياة الهند . وهذا الكسر غيّر مساق التاريخ الهندي . صحيح ان الهندوية اظهرت قدرة على البقاء اكبر مما كان للزرادشتية والمسيحية . ودخول الجماعات في الاسلام اقتصر على مناطق تغلب عليها

طبقات معينة من السكان الهندويين. وقد وجد الفاتحون المسلمون انه من المناسب ان يعاملوا الهندويين الذين لم يقبلوا الاسلام كأنهم «اهل كتاب» مع ان الهندويين كانوا مشركين، او، اذا لم يكونوا مشركين فهم على الاقل من الاحديين. ومن ثم فالهندويون لم يكن لهم ان يعاملوا بالتسامح، اذا طبقت الشريعة تماما. ولكن في هذه الحال كان لا بد من التسامح لان السكان الهندويين كانوا كثرة ومتمدنين ولا يمكن الاستغناء عنهم.

وقد تم للمسلمين فتح حوض جمنا – الكنج والبنغال في مدة اقصاها عشر سنوات (١١٩٢ – ١٢٠٢). وقد كانت مسيرة الفتح هنا اسرع منها في جنوب غرب اسية في القرن السابع. ومع ذلك فان الضربة التي اصابت الهند في اواخر القرن الثاني عشر لم تكن مستغربة. ان الاكثر غرابة في الامر هو ان القسم الاكبر من شبه القارة لم يفتحه المسلمون من قبل. وفي الفترة بين ٦٤٧ و ١١٩٢ كانت الهند، ومعها الجزء الاكبر من جنوب شرق اسية القاري واندونسيا ايضا، ظلت يتقاسمها عدد كبير من الدول الصغيرة، كانت تضيع جهودها سدى في اقتتال مستمر لا ينتهي الى نصر قط، وكان يؤدي دوما الى تردي الوحدة السياسية وانتشار الفوضى في العالم الهندي. وحتى محاولات الوقوف صفا واحدا امام هجوم المسلمين (٩٩١ و ١٠٠١ و ١١٩١ – ١١٩٢) كانت تتعثر في اللحظة الاخيرة، فلا تقوى على تجنب الانكسار. والدول الهندوية لم تستجب للاحتلال الاسلامي المستمر للاراضي الهندية باقامة اتحاد سياسي ولا حتى في اطار اقليمي. ومع ذلك فان الفتوحات الاسلامية كانت هينة بشكل واضح.

في سنة ٧١١ كان حوض السند الادنى، بما في ذلك الملتان قد احتلته الدولة الأموية. وكان من الصعب الاحتفاظ بهذا الجزء المعزول، على الارض الهندية، امام هجمة هندية جدية؛ ومع ذلك فان المسلمين لم يُخرجوا منه. وقد استولى سبكتيجين، امير غزنة، على مركز قرب بشاور، فيما وراء المخرج الشرقي لممر خيبر، اذ انتصر (٩٩١) على اتحاد موقت لملوك هندويين. وجاء خليفته محمود فانتصر (١٠٠١) ووسع الحدود الى لاهور. وضم محمود ايضا الجزء الاسلامي الذي كان قد احتل من قبل في حوض السند من الملتان جنوبا الى الساحل. ثم قام بحملات في حوض جمنا – الكنج وفي غوجرات (١١٠١ – ١١٢٤). وكان هذا مقدمة لفتح ما تبقى من شمال الهند الذي قام به الغوريون (الذين انتزعوا الامر من الغزنويين). وهؤلاء هم قبائل من افغانستان الحالية كانوا قد اسلموا سنة ١٠١٠ على يد محمود الغزنوي لما احتل بلادهم.

وقد سهل فتح الاراضي الهندية تدريجا على ايدي المسلمين ما كان بين خصومهم الهنود من نزاع . ففي الشمال كانت قبائل راجبوت واسرة بالا تقتتل باستمرار الى ان قضى المسلمون عليها . ومع ان التشولا ، في الدكن ، كانوا على وشك توحيد العالم الهندي سياسيا (٩٨٣ - ١٠٣٥) ، اذ انهم وضعوا تحت نفوذهم جنوب شرق الهند وضموا كالنغا وتوسعوا في سيلان (سري لانكا) وجزر الملديف واندمان ونيكوبار وفي جزء من سومطرا وشبه جزيرة الملايو ، الا ان هذه الامبراطورية انهارت (١٢١٦) . واصبحت الاجزاء الجنوبية من الهند ، بعد ذلك ، ميدانا مفتوحا امام المسلمين الذين اصبحوا (اعتبارا من ١٢٠٢) سادة الجزء الشمالي باكمله .

وفي اندونيسيا حيل بين امبراطورية سريفيجايا وتوحيد البلاد سياسيا بسبب قيام اسر محلية في انحاء الجزر .

وكان جنوب شرق اسية القاري قد تعرض منذ القرن الثاني للميلاد لغزو حضاري ، ديني وفني ، من الغرب وغزو عنصري من الشمال . وكان هؤلاء الغزاة قد وقعوا اسرى نفوذ حضاري من الهند . اما شمال فيتنام فقد وقعت تحت نفوذ الصين الحضاري .

والتاريخ السياسي والعسكري للمدنية الهندية هو قصة مزعجة . لكننا عندما ننتقل الى المستوى الديني لمدنية الهند في هذه الفترة نجد امامنا تاريخا حريا بالعناية . والظاهرة الواضحة هي تراجع البوذية في حدود شبه القارة . وكانت مملكة بالا في البنغال الموقع الحصين للبوذية . لكن لما احتل الغوريون المسلمون البنغال كان في ذلك نهاية البوذية هناك (١١٩٩ او ١٢٠٢) . ولان البوذية كانت تجتاز دور تأخر خلال قرون ستة او سبعة ، ومن ثم فانها لم تستطع الصمود ، فدمرت اديرتها . اما الجاينية فقد ظلت قائمة في الهند ، لكنها كانت دوما محدودة الانتشار . وقد ظلت البوذية متمركزة في سيلان على ايدي رهبان من اتباع البوذية الترا فادينية . وقد تم للاقلية المسلمة الغريبة اصلا عن البلاد (مع ان عدد المسلمين زاد بسبب اعتناق بعض الهنود للاسلام) ان تحكم الهند . وهكذا فقد حدث لاول مرة في تاريخ الهند ان البلاد والمجتمع عجزا عن تمثل هؤلاء القادمين حضاريا . وقد تم للحكام ولرعايا الدول المحلية المتحاربة ، انجاز الكثير من المستوين الديني والفني في الهند وفي جنوب شرق اسية .

فمملكة بالا نشرت الماهايانا ليس في التيبت (القرن السابع) فحسب . بل في

جاوة (القرن الثامن) . ومع ان الماهانية لا تقوم لها قائمة في جاوة الآن ، فانها خلفت اثارا ثابتة لوجودها السابق ، وبشكل خاص في الحياة الفنية (اساطير ودينا) ، وذلك في بوروبودور بشكل خاص . ومملكة كمبوديا (من القرن السادس حتى سبعينات القرن الحالي) تركت اثارا ضخمة في البناء . فالهيكل الذي بناه الملك سورياڤارما الثاني (١١١٣ – ١١٤٥) يمكنه ان يقارن بالبارثنون الذي اقيم في اثينا (القرن الخامس قبل الميلاد) . وفي جنوب الهند صنع الجاين ما صنعه البوذيون في اواسط جاوة (في بوروبودور) . ففي سرافانا بلغولا تغلب اهل الفن حتى على الطبيعة . فقد ازيلت قمة جبل لاظهار تمثال لبطل روحي (في سرافانا بلغولا) . والتمثال هو جزء من الجبل . وهذا الاثر هو الجبال بعينه ، الا ان الاثر الذي يتركه في نفس الزائر لا يضاهيه اثر آخر . واسرة تشولا حرصت على ان تبلغ العظمة الفنية لبناء الهياكل مداها .

والشخصيتان الاعظم اثرا ، وقد عاشتا في الهند ، كانت من الفلاسفة . فشنكرا (حول ٧٨٨ – ٨٣٨) ورامانوجا (ولد حول ١٠٢٨) كانا من اهل الجنوب . فالاول جاء من كارالا ، والثاني كان من التاميل ، الا ان مجال عملهما كان شبه القارة باكمله . ومع انه في ايامهما كانت ثمة حواجز اجتماعية بين الطبقات ، فانه لم يكن ثمة حواجز جغرافية تحد من نشاط الحكماء والقديسين ، كما ان الحواجز اللغوية لم تحصرهما في نطاق محدود .

وقد اهتم الرجلان بسؤال مهم (كان السؤال قد طرح في شمال الهند في القرن السادس قبل الميلاد) : ما هي طبيعة الحقيقة الروحية في المظاهر التي تقع عليها العين وفي ما وراءها ؟ وما هي العلاقة بين هذه الحقيقة والانسان ؟ لقد كان شنكرا من القائلين بالأحدية دون هوادة . كان يقول بان الكائن البشري مطابق تماما للحقيقة المطلقة ، وان العالم الظاهر هو خداع . فاذا كانت الحقيقة هي فعلا كما يراها القائل بالأحدية ، فان الفردية ، ومن ثم الشخصية يجب اعتبارها من الظواهر الخداعة . فالحقيقة الاحدية الكاملة لا تتسع لا لاله شخصي ، ولا لتابع مؤمن لاله شخصي . وقد انتقد رامانوجا فلسفة شنكرا ، اذ انه كان يقبل فكرة أحدية معدَّلة بحيث تسمح للكائن البشري المسمى رامانوجا ان يشعر بايمان شخصي للاله فشنو .

فلسفة شنكرا تقبل الماورائية (للطبيعة) التي ارتآها البوذيون الماهايانيون وكان فيها تحد لبوذا الذي رفض التأمل الماورائي (للطبيعة) . ومع وجود خلاف بين الفيلسوفين فانهما كانا يتفقان في انهما كانا يمثلان رد فعل هندوياً ضد البوذية . الا ان اياًمن هذين

الفيلسوفين النيوهدويين كان باستطاعته ان يشن حربا ضد البوذية ، لولا ان البوذية هذه قد زودتهما بالذريعة العقلية لمحاربتها .

ان المدنية الصينية ، وحتى اسرة تانغ ، تغلبت على فترة الفوضى الخانقة التي مرت بها الصين بين سنتي ٧٥٥ و ٧٦٣ . وقد كان للخدمة المدنية التي كانت تعتمد الامتحان في الكلاسيكيات الكونفوشية اساسا لاختيار الموظفين ، دور كبير في ذلك . وقد اعادت اسرة سوي مؤسسة الخدمة المدنية الى ما كانت عليه من قبل . وهذه المؤسسة بما كان لافرادها من الحفاظ على روح الجماعة وطموح هؤلاء الافراد قواها تأسيس اكاديمية هان - لين . فالخدمة المدنية متنت المجتمع الصيني وكان ثمن ذلك ان اصبح هذا المجتمع ممتنعا على الاصلاح والانحلال على السواء .

كان احد اسباب سقوط حكم تانغ انهيار نظام الضرائب الذي كان قائما منذ القرن الخامس . فبموجب هذا النظام منحت الحكومة الامبراطورية قطعا من الارض للفلاحين وفرضت عليهم ، مقابل ذلك ، ضرائب شخصية واعمال سخرة . الا انه بدءا من سنة ٧٨٠ اصبحت الضريبة تفرض على الارض لا على الشخص . وقد عجزت الحكومة عن حماية ارض الفلاح من ان تنتقل الى كبار الملاكين . وقد ساءت حال الفلاحين الاقتصادية فاصبحوا مستأجرين ، ولكن الحكومة لم تخسر حصتها من الضرائب .

وقد كانت الارض التي يملكها الملاكون صغيرة المساحة في معدلها ، ومن ثم فان الحكومة استطاعت ان ترغمهم على دفع ما يطلب منهم . والملاكون اصبحوا الآن هم انفسهم الموظفين الكونفوشيين ، وكانوا يعتمدون على المرتبات التي يتقاضونها من العمل الحكومي .ومن هنا جاءت سيطرة الحكومة على الملاك - المديرين .

كان الموظفون الكونفوشيون والطاويون ، والجماعتان كانتا من المتفلسفين والمحبوبين ، يرون من مصلحتهم اضعاف القوة والثروة اللتين كانتا قد اجتمعتا في ايدي الاديرة البوذية

في الصين منذ فترة الهجمات البربرية والتصدع السياسي (٣٠٤ – ٥٨٩) . ولم تكن الكونفوشية الصينية . فيما سبق العهد البوذي . كفؤا للبوذية الماهايانية عقليا . لكن الجيل الذي عقب نكبة ٧٥٥ – ٧٦٣ انتج اول ممثلين للفلسفة الكونفوشية الجديدة : هان يو (٧٦٨ – ٨٢٤) ومعاصره لي او (تو حول ٨٤٤) . وهذان . مثل معاصرهما الهندوي شنكرا . كانا شبه بوذيين . لقد انعشا الكونفوشية بتلقيحها ببذور ماهايانية مستمرة من كتاب مينشيوس وفصل من كتاب الطقوس . وبذلك اخذت الصين تستقل روحيا عن المؤسسات البوذية . وفي السنوات ٨٤٢ – ٨٤٥ اخذت الحكومة الامبراطورية بوجهة نظر النقد الذي تقدم به الكونفوشيون والطاويون لتلك المؤسسات على اسس اقتصادية واجتماعية . وقد جرد رجال الدين ونساؤهمن البوذيين من ثيابهم الكهنوتية باعداد كبيرة . واصبحوا اشخاصا عاديين يتوجب عليهم دفع الضرائب الحكومية . كما صودرت املاك الاديرة البوذية .

لكن هذا الاضطهاد لم يقض على البوذية في الصين . ذلك بان البوذية ارتبطت تماما بالكونفوشية والطاوية لا على المستوى العالي فحسب . بل على المستوى الشعبي – بل انها كانت هنا اقوى ارتباطا . وظلت . وهي في ثوبها الكونفوشي والطاوي . ذات نفوذ روحي وفكري كبير في المجتمع الصيني . وبهذه المناسبة فان الاضطهاد الذي وقع بالبوذية (في الصين) لم يقتصر عليها – فان المانوية والزرادشتية والمسيحية النسطورية تعرضت لمثله . ولم تتغلب عليه . بل قضي عليها . وعلى كل ، فان اثر ذلك في المجتمع الصيني . اقتصاديا واجتماعيا . كان ضئيلا . لان اتباع هذه الديانات كانوا قلة واملاكها كانت قليلة الاهمية .

كانت للمانوية حرمة في الصين بسبب انها الديانة التي اعتنقها الترك اليوغور . الذين كانوا قد اعانوا اسرة تانغ في محنتها (٧٧٥ – ٧٦٣) . الا ان اليوغور اخرجهم الكرغيز من اراضيهم في السهوب الاوراسية فاقصوا الى الصين وحوض تاريم (٨٤٠) . وفي سنة ٨٤٢ اخذت الحكومة الامبراطورية الصينية باضطهاد المانوية .

وقد دام زمن اضطراب اسرة تانغ من ٧٦٣ الى ٨٧٤ . وقد خلف الشاعر الصيني بو تشو – اي (٧٧٢ – ٨٤٦) والسائح الياباني (زار الصين ٨٣٨ – ٨٤٧) وصفا للاضطهاد الذي مني به البوذيون وغيرهم . ولكنهما . مع ذلك . يتحدثان عن حكم قدير انساني في

الصين. لكن الاصلاحات التي كانت رد فعل لنكبة ٧٧٥ – ٧٦٣، لم تحل دون انحلال اسرة تانغ. ومع ان اسرة تانغ انتهت سنة ٩٠٩، واسرة سو (خليفتها) لم تتسلم الحكم الا سنة ٩٦٠، فان فترة انعدام الحكم امتدت من ٨٧٤ الى ٩٧٩. ولما اعيدت الى الامبراطورية وحدتها، كانت قد خسرت بعض الاطراف.

فقد انتزع منها شعب الخيطان المغولي (من شعوب السهوب الاوراسية) الذي كان قد اقام له دولة سيلا (في كوريا) ست عشرة ولاية حدودية جنوبي شرقي سور الصين الكبير (١٠٠٤). وفي سنة ١٠٣٨ انتزع التانغوت (وهم تبتيون) بعض الولايات ايضا. كما انفصلت عن الصين (٩٣٩) فيتنام الشمالية.

كان موحدو الصين من اسرة سونغ في حيرة من امرهم. كان عليهم ان يحموا البلاد من نفوذ كبار الملاكين واطماعهم، وقد نجحوا في ذلك لكنهم اضعفوا قوة الصين الحربية امام جيرانهم من البرابرة. والاصلاح الذي كانت البلاد بحاجة ماسة اليه جاءها على يد موظف هو وانغ ان – شيه (١٠٢١ – ١٠٨٦) الذي ادخل (١٠٦٩ – ١٠٧٦) اصلاحات جذرية هي التي حافظت على الدولة اثناء حكم الامبراطور شن تسونغ (١٠٦٧ – ١٠٨٥) ولكن لما توفي الامبراطور الغيت اصلاحات وانغ باجمعها، مع انها كانت العلاج الشافي لعلة الصين الاجتماعية.

كان السبب الرئيسي لفشل وانغ ان – شيه انه كان صاحب فكر حر ثاقب، وكانت الجماعة التي يعمل بينها محافظة، فتأذت من ارائه ونفرت من حرية فكره. لكن يبدو ان تصرف وانغ ان – شيه نفسه كان فيه ما يثير. فالوزير الذي ألغى قوانينه كان المؤرخ سوما – كوانغ، وهو، على رصانته وعلمه، اثارته تصرفات وانغ.

كان وانغ آن – شيه يرى ان التعليم المعتمد على الكلاسيكيات الكونفوشية (التي كان التلميذ يحفظها ليرضي الفاحص الرسمي) لا قيمة له في تهيئة الموظف للعمل الذي يقوم به. وكان وانغ يرى ضرورة وضع تفسير جديد للكلاسكيات واصلاح نظام الامتحان. ولو ان الامبراطور شن تسونغ عاش مدة اطول لعلَّ اصلاحات وانغ كان يمكن ان تثمر. وعلى كل فقد كان على وانغ ان يعمل مع زملاء هم من نتاج الفلسفة القديمة. ومع ذلك فقد نجح في تنفيذ بعض خططه. فقد رتب للفلاحين قروضا من الحكومة بفائدة اقل بكثير مما كان يتقاضاها المرابون. ومنع السخرة ودفع لهؤلاء العمال اجرا حصَّله من الملاكين من ضرائب فرضت على اساس المحصول لا المساحة. وحمَّل كبار الملاكين قسما

كبيراً من الاجر المطلوب للعمال . هذه الترتيبات كانت احياءً لما قامت به اسرة تانغ بعد ٧٦٣ ، واقامة الميليشيا الفلاحية كان احياء لعمل قامت به اسرة سُوِي لما وحّدت الصين .

جاءت اصلاحات وانغ ان – شيه في وقتها ، وكان الغاؤها على اسس شخصية ضارا بالصين وظهر اثره خلال اربعين سنة ، اذ خسرت امبراطورية سونغ القسم الشمالي من الصين الواقع شمالي حوض يانكتسي .

كان تاريخ الصين الحربي والسياسي بين ٧٥٥ و ١١٢٦ قصة مصائب. لم تنقذ البلادَ لا اصلاحات ٧٨٠ الكونفوشية الجديدة ولا ١٠٦٩ – ٧٦ (وانغ ان – شيه). اما على المستوى الحضاري فان تاريخ الصين في هذا العصر هو قصة انجازات . ان برابرة القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر اسرتهم المدنية الصينية ، فاقبلوا عليها يقبسونها وينشرونها في البلاد الواقعة تحت نفوذهم ، وهم الذين لم يدخلوا ، اطار الامبراطورية الصينية قط وهكذا فان تقلص الامبراطورية الصينية عادله انتشار المدنية الصينية – ولم يتم هذا في الدول – الخليفة المصاقبة للصين فحسب ، بل في كوريا واليابان ايضا .

وقد كانت المدنية الصينية في هذا العصر متعددة الابعاد والنواحي ، ولذلك كانت اكثر جاذبية . فالفلسفة الكونفوشية الجديدة قام بنشرها الاخوان تشِنغ – هاو (١٠٣٢ – ٨٥) وتشِنغ يي (١٠٣٣ – ١١٠٨) وكانا معاصرين لوانغ ان – شيه .

تشنغ – يي انزل الكلاسيكيات القديمة من مكانها (باستثناء فصلين من كتاب الطقوس هما العلم الكبير و «معتقد الوسط» وجعل مكانها ، بالاضافة الى الفصلين ، كتاب منشيوس و «الاجابة» . وهذه اصبحت الاساس للامتحانات لاختيار موظفي الحكومة . ومع ان الميتافيزيقية فيها اعطت الكونفوشية بعدا جديداً ، فانها لم تعط لا الطلاب ولا الفاحصين ولا المديرين الفرصة للتفكير الحر .

ولم يكن صينيو عصر تانغ وسونغ اسرى ماضيهم في الفنون . فقد تقبل الصينيون الفن المنظور اليوناني – الهندي الذي جاء البلاد مع الماهايانية . وقد جعلوا منه فناً صينيًّا مميزا . وطوروا اصنافا خاصة بهم . فقد وصل رسم المناظر الطبيعية (الارض وما عليها) القمة في عصر سونغ . والخزف الملون والقيشاني ايضا بلغا الغاية . وكانا فنيين وطنيين اصليين. وطبع الكتب على قوالب كان من انجازات عصر تانغ . ولعلَّ اعمال بوتشو – إي السقرية طبعت (٨٠٠ – ٨١٠) في ايامه . وقد كان مما شجع طبع الكتب هو الطلب

الكبير على الكتب المقدسة عند البوذيين الماهايانيين – طلب من العامة ومن الرهبان – والكتب الكونفوشية اللازمة للامتحانات الرسمية . وقد نشرت اكاديمية هان – لين نسخة مطبوعة من الكلاسيكيات الكونفوشية مع شروحها في ١٣٠ مجلدا بين ٩٣٢ و ٩٥٣ ، وهو زمن كانت الصين تعاني فيه اضطرابا سياسيا كبيراً . والكتب الدينية للمهايانية والطاوية نشرت في طبعات شملت بضعة الاف من المجلدات او اللغات ، وقد تم طبعها في السنوات الستين الاولى من عصر اسرة سونغ . وقد صدرت مجموعات من هذه الى كوريا والى اليابان .

ان البارود الذي اخترع في القرن السادس لاستعماله في الالعاب النارية ، اصبح ، في القرن الثاني عشر ، يستعمل في الحروب . وكانت الخطوة الاولى في الملاحة والتجارة البحرية تمت على ايدي الهنود والعرب . ولما قام الثوار الصينيون بنهب كنتون (٨٧٩) كان فيها جماعة كبيرة من رجال الاعمال الاجانب الذين خسروا من جراء ذلك ، خسارة كبيرة . ومع ذلك فالتجارة مع العالمين الهندي والاسلامي توقفت مؤقتا . وقد كان للصينيين دور متزايد النشاط في ذلك . واصبح ساحل جنوب الصين باب الصين الامامي . وحل محل قانصو (لما ضمت الصين هذا الجزء الى امبراطوريتها كانت تعتبره آخر الدنيا) . واصبح المحيط اكبر اغراء بالتجارة من السهوب الاوراسية على ما كان فيها من اغراء . وحل مكانها طريق يصل الصين بأويكومين العالم القديم .

عمت الفوضى سيلا ، الدولة الكورية التابعة للصين ، لكن مدتها كانت اقصر منها في الصين (٨٨٩ – ٩٣٦) وعادت الى كوريا وحدتها السياسية على يد اسرة كوريو (قامت ٩١٨) .

اما اليابان فقد نسخت النظام الصيني من اسرة تانغ . لكن اليابان لم يكن فيها العدد الكافي من المتعلمين للحصول على الموظفين اللازمين للادارة ، ولذلك اصبح حكام الولايات تقريبا امراء وراثيين على نحو ما آل اليه الامر في امبراطورية شارلمان المعاصرة لها .

وعلى كل فقد تمتعت اليابان بحقبة من السلم دامت نحو قرنين ونصف القرن بعد سنة ٦٤٦ . وقد تم خلالها للمدنية الصينية ان تتجذر في اليابان ببوذيتها الماهايانية التي وان كان اليابانيون قد عجزوا عن قبولها كما هي ، فانهم قولبوها بحيث اصبحت شيئا يابانيا . كما فعل الصينيون بالبوذية التي كانوا قد استوردوها من الهند .

ومما تم في هذه الفترة نشوء اشارات كتابية يابانية من نوع الفونيم ، منقولة عن الاشارات الصينية (الفكرية) . ومع ان الاولى استعملت . فان الاشارات الصينية استمر استعمالها ، في كتابة اليابانية ، لانها كانت اوضح دلالة ، صوتا ومعنى . بالنسبة الى الكلمات التي استعارتها اليابانية من الصينية . ومع ما كان في هذا النوع من الكتابة من تعقيد فقد دونت فيه في القرن الحادي عشر آداب يابانية رائعة لعل اجملها قصة غنجي (من وضع السيدة موراساكي شيكيبوا) .

وهكذا فلم تهل سنة ١١٢٦ حتى كانت الصين قد اصبحت المملكة المتوسطة . لنصف العالم تقريبا ، وكانت تحيط بها دول تابعة كانت كل منها قد قبست المدنية الصينية . لكن جعلت منها «نوعاً» متميزا يناسبها . ولو انها ظلت في الاطار العام للحضارة الصينية في شرق اسية . (كان الصينيون يعتقدون قبلا ان العالم ليس فيه سوى مدنيتهم) . يضاف الى ذلك ان شرق اسية اصبح الآن على اتصال باجزاء اخرى من اويكومين العالم القديم ، واخذ يتفاعل معها . فديانة هندية الاصل ، مثل البوذية الماهايانية . انتشرت عبر الصين الى اليابان وكوريا وشمال فيتنام ، واصبحت اقطار شرق اسية باجمعها على اتصال بجنوب شرق اسية وبالهند وبالعالم الاسلامي ، برا وبحرا .

٦٠ - مدنيات ميزو اميركا والاندز حول ٩٠٠ - ١٤٢٨

ثمة اتفاق بين علماء الآثار فيما يتعلق بتأريخ الاحداث الميزو- اميركية على اساس سنوات التاريخ الميلادي ، واختلاف فيما يخص تأريخ الاحداث في الاندز . وليس ثمة شك فيما يتعلق بتوالي مراحل التاريخ في الاندز ، لكن تأريخ الاحداث بالذات (بين حول ٤٠٠ ق . م . وحول ١٤٣٨ م) يختلف حوله الباحثون من حيث الاعتماد على اختبار الاشعاع الكربوني او الاعتماد على توالي الطبقات الاثرية . وقد اخذنا في هذا الكتاب بالقياس الكربوني ، لذلك فاننا عالجنا (فصل ٤٨) العصر «المزدهر» من مدنية الأندز على انه انتهى حول سنة ٥٠٠ للميلاد ، وان افق تياهوانكو كان مشرفا على النهاية حول ٩٠٠ م (بحسب التأريخ الطبقي الاثري فان افق تياهوانكو كله يقع بين سنتي ١٠٠٠ و ١٣٠٠م) .

انتهى العصر الكلاسيكي (حول ٣٠٠-٩٠٠) في عالم ميزو-اميركية بالانهيار . اذ هاجمت جماعات بربرية من الصحراء هضبة المكسيك واستولت اولا على تيوتيهواكان (حول ٦٠٠) ثم على شلولا (حول ٨٠٠) وهدمتها . والمدنية الميزو- اميركية التي قامت في منطقة مايا وبلغت الاوج . تخلى اصحابها عنها خلال القرن التاسع . وفي القرن العاشر جاء البرابرة الى المنطقة ، لكنهم لم يكونوا مدمرين مثل الآخرين فقط ، بل انهم اقتبسوا من المدنية الميزو- اميركية ما مكنهم من صنع نوع خاص بهم من هذه المدنية . وقد كانت عاصمتهم تولا تحتوي ابنية وتماثيل متقنة . ولو ان المدنية لم تصل الى مستوى تيوتيهواكان .

كان هؤلاء البرابرة (وهم التُلْتِك) وخلفاؤهم رجال حرب وقتال (في الفترة التابعة للعصر الكلاسيكي) . ولم يكونوا اول اهل حرب في العالم الميزو-اميركي : فقد سبقهم الى ذلك الأُلْمك والمايا (القرن التاسع) . لكن الروح العسكرية في الفترة التابعة للعصر الكلاسيكي سيطرت على الحياة في ميزو- اميركا . وقد شهد الزمن التابع للعصر الكلاسيكي دخول التعدين من عالم الأندز . وقد وصل هذا الى غرب المكسيك بحرا

(لعله من الاكوادور). وقد كان النحاس، ومن المحتمل البرونز ايضا، يستعمل لصنع الاسلحة في عالم الاندز. لكن تلاميذهم في العالم الميزو- اميركي لم يقلدوهم، بل انصرفوا الى صنع الحلى الدقيقة من الذهب والفضة. ان الازاتكة لما قابلوا الاسبان في القرن السادس عشر كانوا يستعملون اسلحة مصنوعة من الحجارة والخشب. انه من العجب العجاب ان شعبا كانت له مثل هذه الروح العسكرية كالازاتكة لم يصنع نصولا للسيوف ولا رؤوسا للرماح من المعدن تقليدا لجيرانه وخصومه التراسكان.

لقد دمرت تولا (في النصف الثاني من القرن الثاني عشر) على نحو ما اصاب سابقاتها شلولا وتيوتيهواكان ولافنتا وسان لورنزو بطريقة العنف. وقد قامت دولة في يوكاتان (حول ٩٨٧) واستمرت حتى حول ١٢٢٤. وفي هذه الدولة كان ثمة مزيج مما عند التُلْتِك والمايا في فن العمارة والفنون المنظورة والديانة والعادات والاخلاق. وروح التُلْدِتك كانت تسيطر عليها تقديم الضحايا البشرية، وقد كانت عاصمة هذه الدولة الجديدة هي تشيشن. لكن لما انقضى امر بناة هذه الدولة وعاصمتها استولت عليها جماعة الاتزا (من المايا) وانشأ زعيمهم (حول ١٢٨٣) دولة اتخذ لها عاصمة جديدة هي مايابان، وهي اقدم مدينة مسورة في منطقة المايا. وقد ظلت عاصمة للدولة حتى حول ١٤٦١ اذ تخلى عنها اصحابها بعد خرابها في حرب اهلية.

وكما حدث في عصر التلتك فان مرحلة الاتزا كانت ايضا زمن تمازج نماذج المايا الحضارية مع عناصر مدنية من الهضبة المكسيكية. وهذه المرحلة من تاريخ الاندز ومدنيتها تقع في المرحلة الزمنية ١٠٠٠- ١٤٣٠. ولم يكن عالم الاندز في تلك الاثناء وحدة سياسية او وحدة حضارية. وقد كان الساحل مقسما سياسيا الى ثلاث دول فقط. فيما كان كل واد، في الفترة السابقة، مركزا لدويلة.

ونحن اذا اردنا مقابلة تاريخ الاندز بالتاريخ الهليني وجدنا ان عصر «الازدهار» في تاريخ الاندز يقابل اربعة قرون من التاريخ الهليني تنتهي سنة ٣٣٤ ق.م.. حيث كانت المدينة- الدولة هي القاعدة السياسية الاساسية في العالم الهليني. وفي عصر الازدهار في الاندز بلغت الفنون الذروة في الجودة. على نحو ما تم في الفترة الكلاسيكية في التاريخ الهليني. والدول الساحلية في الاندز التي قامت بعد عصر تياهواناكو، شبيهة بالدول التي خلفت الامبراطورية التي اقامها المقدونيون بعد القضاء على الامبراطورية الفارسية.

ومـدن ساحل الاندز كانت عواصم امبراطوريات ضمت في كل منها اودية

متعددة واحدها الى الآخر. وقد تمركز السكان في العاصمة، واعيد تنظيم الري واساليبه، وحولت المياه من الاودية المتعددة لري الارض القريبة من المدن الآهلة بالسكان. وقد سمى علماء الآثار هذه الفترة بعصر بناء المدن (بسبب ضخامة شنشان، عاصمة شيمو). ولو ان الفخار المصنوع في هذه الفترة كان دون سابقه اتقانا؛ إلا ان مهارة العصر الفنية كانت تتمثل في صنع الادوات المعدنية.

شنشان كانت صفا من اماكن الاقامة المربعة الشكل يدور بكل منها سور من اللبن. وقد كانت اكبر مدينة في عالم الاندز في عصر بناء المدن (او حتى قبل ذلك وبعده حتى قامت مدنية ليما الحديثة). لكن اقدس مكان تعبدي يعود الى ذلك العصر كان في باشاكامك (كويزمانكو) على اسم الاله الذي كان يعبد هناك. لقد كان باشاكامك الها مسكونيا. وكان بيته يزوره الناس من جميع المناطق.

٦١-العالم الاسلامي ٩٤٥-١١١٠

إن احتلال حكام بني بويه لبغداد (٩٤٥)، وهم مؤسسو واحدة من الدول الخليفة بالنسبة للخلافة العباسية، كان دليلا واضحا على ان تفكك الامبراطورية العباسية، الذي كان قد بدأ في القرن التاسع، لا سبيل الى وقفه. ولم تكن الاسرة البويهية الاولى بين الاسر التي سيطرت ، واقعا، على جزء من املاك الخلافة، دون ان تستأذن الخليفة في ذلك، لكنها كانت الاولى التي احتلت ولاية الدولة الاولى- العراق- والتي سيطرت مباشرة على الخلافة بالذات. كان البويهيون ايرانيين من جيلان (الديلم)، وكان تسلطهم على الخلافة العباسية نهاية للعمل المستمر الذي قام به الايرانيون للوصول الى هذه السيطرة السياسية في الدولة الاسلامية على حساب العرب. لقد اظهرت هذه النزعة نفسها في ثورة ٧٤٧- ٧٥٠ التي مكنت للعباسيين من الوصول الى الخلافة، ثم في انتصار المأمون على الامين (٨١٣). وعلى كل فان البويهيين، فضلا عن كونهم ايرانيين، كانوا شيعة، ويبدو وكأن دخولهم بغداد كان نقضا لعمل الثورة (٧٤٧- ٧٥٠) لا اتماماً لها، من ناحيتها الدينية. لما عمل الشيعة للثورة كانوا يأملون في ان يحلوا محل الامويين في الخلافة. لقد خاب فألهم يومها. والآن، وبعد قرنين من الزمان، فان آمالهم المؤجلة بدت وكأنها على طريق التحقيق.

في سنة ٩٠٩ قضي على الدولة الاغلبية في شمال غرب افريقية؛ وقد تم ذلك على يد اسرة متحدرة من علي وفاطمة. كان الاغالبة عربا وسنيين وكانوا يعترفون للعباسيين بالسيادة اسميا. وقد كان الفاطميون عربا ايضا، لكن جنودهم كانوا من بربر كتامة. وقد كان الفاطميون يطمحون في ان يحلوا محل العباسيين وقد كانت انتصاراتهم انتصارا للبربر وللاسماعيلية (الامامية السبعية) من الفريق الشيعي. وقد جربوا (٩١٤) ان يحتلوا مصر إلا انهم فشلوا، لكنهم نجحوا في ٩٦٩. وخلال ذلك حاول القرامطة (٨٩٠) وهم جماعة شيعية تتبع الاسماعيلية، ان يقيموا لانفسهم دولة في العراق. وقد اخرجهم العباسيون من

الهلال الخصيب لكن القرامطة وجدوا لهم قاعدة آمنة للعمليات في ساحل الجزيرة، في الحسا والبحرين، وقد قاموا من هنا بالهجوم لا على العراق فحسب بل على مكة المكرمة، وحملوا الحجر الاسود من الكعبة (٩٣٠). وكان الزيديون، وهم ايضا فرقة شيعية، الذين حكموا ساحل بحر قزوين في ايران بين ٨٦٤ و٩٢٨، قد اقاموا لهم دولة ثانية في اليمن (٨٩٧). ووضع الشيعة الاسماعيليون الملتان تحت نفوذهم (٩٧٧) وضموا اليهم جزءا من السند (٩٨٥). وقد بدا، حول سنة ٩٨٥، ان الاقسام ذات الاهمية التي ظلت تحت سلطان سني قوي هي الدولة السامانية الايرانية في ما وراء النهر وخراسان والخلافة الاموية في شبه جزيرة ايبريا. وقد بدا يومها وكأن العالم الاسلامي على وشك ان يقسم بين الايرانيين والبربر، وانه في حالة توحيده من جديد، فان الذين سيقومون بذلك هم الفاطميون- من الشيعة الاسماعيلية.

يضاف الى ذلك ان الشيعة الاسماعيلية والايرانيين كانوا يومها في دور الصعود على المستوى الثقافي والسياسي. فالشعار الملحمي الفردوسي (٩٣٤- ١٠٢٠) والفيلسوف ابن سينا (٩٨٠- ١٠٣٧) والعالم النبيه البيروني (٩٧٣- ١٠٤٨) كانوا ايرانيين ومنذ حول سنة ٩٧٠ كان اخوان الصفاء، وهم فئة اسماعيلية كانت تقيم في البصرة، قد اخذوا انفسهم بوضع موسوعة (رسائل اخوان الصفا). وفي ٩٧٣ انشأ الفاطميون الاسماعيليون كلية دينية في جامع الازهر في عاصمتهم الجديدة القاهرة. فمن النظرة العامة كان تمزق الامبراطورية العباسية سياسيا ذا فائدة للادب والفن؛ فتعدد البلاطات المحلية زاد عدد الذين يرعون هذه الامور.

والصيغة الايرانية للحضارة الاسلامية خلدت وجودها في ادب فارسي جديد (فرسي). ولكن قبل ان ينتهي القرن الحادي عشر منيت الامال التي بدت معقولة حول سنة ٩٨٥ بالفشل. في سنة ١٠٨٥ كانت الحكومات السنية صاحبة السلطة في جميع انحاء العالم الاسلامي، باستثناء مصر؛ ومع ان مصر كانت لا تزال تحت حكم فاطمي شيعي، فان رعايا الفاطميين من سكان مصر السنة لم يتقبلوا صيغة الحكم. في سنة ١٠٨٥ كانت الاسرة العباسية لا تزال تتولى الخلافة في بغداد. إلا انه اعتباراً من سنة ١٠٥٥ لم يعد سادتها البويهيين الايرانيين الشيعة، بل اصبحوا الآن الاتراك السلاجقة السنة. لقد حل الاتراك مكان الايرانيين كسادة في كل مكان من الجزء الاسيوي من العالم الاسلامي تقريبا، باستثناء الجزيرة العربية.

لقد فشل الشيعة في اهتبال الفرصة في ٦٥٦- ٦٦١ وفي ٧٤٧- ٧٥٠. وفي ٩٦٩- ١٠٥٥ فشلوا ايضا. ولم يتعاون الفاطميون والقرامطة معا. فمع ان الفريقين كانا شيعة اسماعيلية كان القرامطة معنيين بتحقيق العدالة الاجتماعية، بينما كان اهتمام الفاطميين الرئيس الدفاع عن حقهم الموروث. فلم يكن بين الفريقين تآلف. اما البويهيون فقد تعرفوا على كليهما. فقد كان البويهيون شيعة من غير فئة الاسماعيلية. وقد فضلوا ان يكونوا سادة العباسيين على ان يصبحوا تابعين للفاطميين. والشيعة من غير الاسماعيليين اتفقوا فيما بينهم، ومع اكثرية السنة من الامة الاسلامية، في ان يرفضوا حكم الاسماعيلية. واذ امتعض الاسماعيليون من عجزهم عن الوصول الى السيطرة على العالم الاسلامي ردوا على ذلك بان انشأوا (حول ١٠٩٠) جمعية سرية - «الحشاسون». وقد كان من اول ضحاياهم نظام الملك، الوزير الايراني للسلاجقة الاتراك الذين حلوا محل البويهيين.

وقد كان القرنان العاشر والحادي عشر فترة محنة وبلاء بالنسبة لسكان العالم الاسلامي فتمزق الدولة الاسلامية الواحدة جاء عقبه تحلل في امور النظام والقانون. وقد حسن حكم البويهيين في بغداد والحكم السلجوقي الذي حل محله الامور بعض الشيء، إلا ان هذا كان محليا وموقتا. وقد تعرض العالم الاسلامي لهجوم فئات مسيحية، وشر من ذلك انه تعرض لهجوم برابرة بدو رعاة كانوا قد اعتنقوا الاسلام اسميا.

فقد استولت الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية) على كريت (٩٦١) وطرسوس (٩٦٥) وانطاكية (٩٦٩)، وهي السنة التي احتل فيها الفاطميون مصر، وقد دارت المنافسة بين الرومان الشرقيين (البزنطيين) والفاطميين لامتلاك سورية لمدة مئة سنة، دون ان تنال الواحدة او الاخرى منها وطرها. واخيرا اخرج كلاهما منها على يد السلاجقة الاتراك اولا ثم (١٠٩٨- ٩٩) على يد الصليبيين. وبين ١٠٦٠ و١٠٩٠ احتل النورمان صقلية. كما استولى القشتاليون على طليطلة (توليدو) سنة ١٠٨٥.

على ان التدمير الاكبر والمصائب الاعم جاءت على ايدي البدو- الاتراك والعرب والبربر- الذين انطلقوا من عقالهم. في سنة ٩٩٩ تقسمت دولة السامانيين، وهي واحدة من الدول التي خلفت العباسيين، بين اسرة تركية قامت في غزنه (في افغانستان الحالية) سنة ٩٦٢ والاتراك القارلق الذين كانوا قد قبلوا الاسلام في ٩٦٠ (وكان الحد نهر سيحون). وقد كان الاتراك يحملون افرادا الى العالم الاسلامي ليكونوا جنودا- رقيقا، وكانوا قد تعلموا فن النيل من اسيادهم. في سنة ٩٩٩ جاءت لاول مرة قبيلة تركية

بدوية، هي القارلوق، واستقرت بقضها وقضيضها في بلاد اسلامية. وقد تبع هؤلاء الغز الذين دفعهم القبتشاق غربا وهم الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام السني، وكانوا بقيادة آل سلجوق، فتغلبوا على الغزنويين (١٠٤٠) واحتلوا خراسان. وقد كان مطمح السلاجقة ان يستولوا على الامبراطورية لانفسهم، وهو ما تحقق موقتا لما حلوا محل البويهيين كسادة للعباسيين في بغداد (١٠٥٥). وقد كان اتباع السلاجقة من البدو يرغبون في الحصول على المراعي والغنائم. وقد اتفق السلاجقة مع العرب والايرانيين الذين وقعوا تحت سلطانهم، على ان يسمحوا لهؤلاء الاتباع (التركمان) ان يجتازوا الى ارمينية (١٠٤٦) ومن ثم الى اسية الصغرى (بعد ١٠٧١). إلا ان هؤلاء البدو كانوا قد اوقعوا الخراب بايران وهم في طريقهم الى تلك الاقطار المسيحية.

وقد اطلق الفاطميون قبيلتين من العرب على شمال غرب افريقية تأديباً لنائبهم هناك الذي اعلن الانفصال (١٠٤٧). وفي شمال غرب افريقية كانت غابات الزيتون، التي كانت عماد ثروة المنطقة في العصرين القرطاجي والروماني، قد استمرت في نتاجها خلال الاحتلال الفندالي والفتح العربي. لكن الدمار الذي اصابها خلال هذا الهجوم لم يمكن تعويضه. فهذا لم يكن عملية حربية– لقد كان زحفا بدويا جماعيا. وهؤلاء الزاحفون لم يصلوا المحيط الاطلسي، فقد وقف بدو الصحراء من البربر في طريقهم، وكانوا بقيادة المرابطين، الذين كانوا سنة اصوليين. وقد جاز هؤلاء المرابطون مضيق جبل طارق الى اسبانية (١٠٨٦ و١٠٩٠) وازاحوا وارثي الامويين الاسبان عن السلطة لانهم عجزوا عن وقف تقدم القشتاليين. عندها اكتشف الحكام العرب المسلمون في الاندلس ان مجيء المرابطين لم يحمل لهم الخير.

وقد كان المهاجمون المسيحيون يزيحون حدود الاسلام في حوض المتوسط الغربي وفي بلاد الشام. وفي الوقت ذاته كان هذا الحد يتقدم في الهند وفي اسية الصغرى. فالاتراك الغزنيون احتلوا بلاداً جديدة لم تكن تابعة للسامانيين او للعباسيين قط. فقد استولى محمود الغزنوي على حوض السند بكامله وجعله جزءا من الاسلام السني (فقد صفى الحكم الشيعي الاسماعيلي في الملتان والسند وشن حربا على الهندويين). والسلاجقة، الذين كان حكمهم في ايران والعراق عابرا، انشأوا في اسية الصغرى التي كانت قلب الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية) دولة اسلامية سنية دامت ٢٣١ سنة (١٠٧٧– ١٣٠٨).

لقد دخل الاتراك العالم الاسلامي عبر ايران، ولم يدخلوه جماعات كبيرة إلا بعد ان قامت مدنية اسلامية بارعة ذات صبغة ايرانية. وقد حافظ الاتراك على لغتهم الوطنية لكنهم تقبلوا المدنية الاسلامية في صيغتها الايرانية. وهذا هو الاسلام الذي نشر جنوبا في شرق الى الهند، وشمالا في غرب في بلاد المسيحية الشرقية الارثوذكسية. وانتشار الاسلام على حساب هاتين المدنيتين المجاورتين له خلال القرن الحادي عشر وبعده، كان ابعد مدى من خسارته الدائمة في الغرب، وخسارته الموقتة في بلاد الشام (على ايدي الصليبيين).

وهكذا فان حدود الاسلام كانت تتسع بشكل بين في الوقت الذي كانت الدولة الاسلامية الواحدة تتمزق. ومن الناحية النظرية فان الدولة الواحدة اطار ضروري للدين؛ إلا ان النظرية ابطلتها التجربة فقد اثبتت هذه ان الاسلام بقي وانتشر دون ان تسنده الحكومة الواحدة. ودخول غير المسلمين، من رعايا الدول التي خلفت الدولة الاسلامية الواحدة السابقة، في الاسلام افواجا، يبدو انه مرتبط بهذه الاوضاع.

والباعث السياسي لهذا الاعتناق الجماعي للاسلام ظاهر للعيان. إن الاغلبية غير المسلمة التي كانت رعية الدولة الاسلامية الواحدة، كانت تعيش في حمى السلم الاسلامي. فلما تمزقت الدولة الاسلامية الواحدة، اخذ رعاياها– المسلمون منهم وغير المسلمين على السواء– يبحثون عن ملجأ آخر. وقد ادرك الجميع ان الاسلام كان اكبر قوة وقدرة على الحياة والاستمرار من الدولة الاسلامية، وهذا ما حمل رعايا الدولة المنحلة من غير المسلمين على اعتناق دين حكامهم السابقين. فان يكون المرء مسلما اصبح الآن يزود الفرد بضمانة اكبر من ان يكون رعية سابقة لدولة لم تستطع ان تتلقى الصدمة الكبيرة في زمن المحنة. فالباعث على الدخول في الاسلام اصبح الآن شيئا اكثر من مجرد الحصول على مساواة مالية وسياسية– لقد اصبح اهتماما صميما مرتبطا بالبقاء.

إن الصيغة الاسلامية التي ظهرت قدرتها على الاستمرار هي الاسلام السني. وحتى البويهيون الشيعة اعترفوا بان السنة هي التي تقبلها الجماعات لما تورعوا عن تصفية الخلافة العباسية. فمع ان هذه الخلافة قد فقدت قدرتها على ان تكون حكومة فعالة في دولة اسلامية سنية واحدة، فقد ظلت الرمز المؤسسة للتضامن البسيكولوجي والاجتماعي للامة الاسلامية السنية. يضاف الى ذلك ان السنة، اذا ما قورنت بالصيغة الاسماعيلية، اصبحت اكثر استجابة للحاجات الانسانية. وكان العصر مملوءاً بحركات صوفية، لعلها كانت بينها وبين السنة شيء من الخلاف. وفي خضم هذه الاتجاهات السنية والصوفية

ورغبة المسلم العادي في ان يجد في الله ملجأه الاول والاخير، وضع ابو حامد الغزالي ما يصح ان يشار اليه بانه المنظومة الاسلامية الضرورية.

كان الغزالي (١٠٥٨- ١١١١) استاذا ناجحا في المدرسة النظامية ببغداد، ثم تخلى عن عمله واعتزل العالم احدى عشرة سنة (١٠٩٥- ١١٠٦) ليتعرف الى التصوف تجربة واختبارا من حيث صلة المتصوف بالله. والذي خلص اليه الغزالي هو انه اعاد التصوف الى حظيرة السنة. وبذلك اصابت هذه نفحة صوفية. وقد فعل الغزالي ذلك لانه رفض الشيعة الاسماعيلية والفلسفة العقلية، فاصبح مقبولا لدى المسلمين السنة. فالاسماعيليون كانوا يُجَنَّبون بسبب ثوريتهم السرية والعنيفة. وكان الفلاسفة غير محبوبين لان القوم كانوا يرون في حرية الفكر التي كانوا يدعون اليها، امرا غير مرغوب فيه في ذلك العصر المحفوف بالمخاطر. وهكذا برفضه هذين الشيئين انقذ الغزالي التصوف اذ ادخله حظيرة السنة وفسر السنة تفسيرا فيه روحية جديدة.

٦٢-عالم بزنطية ٩٢٧/٨-١٠٧١

أهم حدثين في هذه الفترة من التاريخ البزنطي هما اعتناق الروس المسيحية (٩٨٩) على الصيغة الارثوذكسية الشرقية، وانكسار الامبراطورية الرومانية الشرقية عسكريا (١٠٧١). وسقوط الامبراطورية كان كارثة بالنسبة لليونان. فالامبراطورية مع احتفاظها بالتسمية «الرومانية»، فهي قد اصبحت، في الواقع، يونانية منذ القرن السابع، ومن ثم فان النكبات التي حلت بها في ١٠٧١ وما بعدها، كانت نكبات للشعب اليوناني ايضا. وعلى كل فانه لما حلت سنة ١٠٧١ لم تعد المدنية البزنطية تعتمد كلياً على الشعب اليوناني وعلى الامبراطورية الرومانية الشرقية. فعند ذلك التاريخ كان المجتمع البزنطي قد ضم اليه- بالاضافة الى اليونان- ثلاثة شعوب سلافية اللغة هي: البلغار والصرب والروس- وكذلك الجورجيون والالان في القفقاس.

إن التقلبات التي عرفها التاريخ الحربي للامبراطورية الرومانية الشرقية في هذه الفترة تبدو متناقضة اذا نظر اليها معزولة عن غيرها من الشؤون، لكنها يمكن تفهمها اذا نظرت بالنسبة الى الوضعين الاقتصادي والاجتماعي. إن التاريخ العسكري للامبراطورية الرومانية الشرقية كان، بين ٩٢٦ و١٠٤٥، هو سجل لانتصارات متتالية، ولو انها لم تكن دوما سهلة. ولكن تحول المجرى في العقد الخامس من القرن الحادي عشر، وانكسارات الامبراطورية المذهلة (سنة ١٠٧١) على جبهتيها الارمنية والابولية (في ايطالية) يمكن تفسيرها على اساس انها نتيجة فشل سلسلة التنظيمات التي صدرت عن الامبراطور لاصلاح الاراضي بدءا من سنة ٩٢٩ (او لعلها سنة ٩٢٢)، والتي كان آخرها (١٠٢٨)، والعصيان الذي قامت به جماعة الامبراطورية من ارستقراطية الريف في اسية الصغرى (في ٩٦٣ و ٩٧٠ و ٩٧٦- ٩ و ٩٨٧- ٩ و ١٠٥٧) يمكن ان ينظر اليها على انها مقدمة لاحتلال رجال الحرب من الاتراك السلاجقة والدانيشمند واتباعهم من البدو، لمناطق في قلب اسية الصغرى كانت اصلا مما كان ارستقراطية الامبراطورية الرومانية الشرقية قد

استولوا عليه على حساب اعضاء الميليشيا الفلاحية في الامبراطورية الرومانية الشرقية.

هذه الميليشيا الفلاحية دافعت عن اسية الصغرى بنجاح ضد هجمات العرب، في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الشرقية تقف موقف الدفاع. فالفلاحون المسلحون كانوا، في الحقيقة، اداة فعالة في الحروب الدفاعية. اذ انهم كانوا يدافعون عن ارض منتجة، كانت املاكهم الخاصة، ومن ثم فقد كان لهم ما يحملهم على القيام بواجبهم العسكري بفعالية. وقد كانت نفقات الخزينة الامبراطورية ضئيلة، لان الفلاحين كانوا ينتجون ما يقوم باودهم من ارضهم، وقد كانوا يدفعون من الضرائب اكثر مما كانوا يقبضونه مرتبات. لكن هذه الميليشيا الفلاحية لم تكن بالمثل أداة صالحة لحرب هجومية، متى كان الغرض منها الفتح والاستقرار الدائمان لبلاد تقع خارج حدود الامبراطورية.

وحتى خلال القرون الثلاثة، المنتهية بسنة ٩٢٦، التي كانت العمليات الحربية من النوع الدفاعي الذي كانت فيه الميليشيا الفلاحية تدافع عن املاكها الخاصة، لم يكن من اليسير حمل المقاتلين من الميليشيا على ان يخصصوا الوقت اللازم للخدمة الفعلية والتدريب. فقد كانت عناية المقاتل الاولى هي استغلال ارضه والاهتمام بحيواناته بحيث يمكنه ان يدفع، من دخله، ما يتوجب عليه من الضرائب، وان يبتاع سلاحه وان يوفر الغذاء الضروري لاسرته. فقد كانت الضرائب عالية، وكان ضباط الضرائب يتعاملون مع الفلاحين بخشونة دائما. فتصرفهم جعل الفلاحين يشعرون بالغبن يلحقهم من الحكومة الامبراطورية. وقد كان احد الاسباب التي قعدت بالعرب عن فتح اسية الصغرى في القرن السابع هو ان السكان المحليين كانوا مستعدين للقتال في سبيل بلادهم. ولكن في سنة ١٠٧١ وما بعدها كان الفلاحون في اسية الصغرى على استعداد لتحمل مهاجم اجنبي او حتى للترحيب به، على نحو ما كان الفلاحون في بلاد الشام ومصر على استعداد لمثل ذلك العمل في ٦٣٣ وما بعدها.

كانت العلاقات بين الفلاحين والارستقراطيين من ملاك الارض الناشئين في شرق اسية الصغرى مملوءة بالمتناقضات. فبسالة الفلاحين الحربية هي التي افسحت المجال امام نمو الثروة الكبيرة عند هؤلاء الملاكين. ومع ان هجمات المسلحين، برا وبحرا، على بلاد الامبراطورية الشرقية لم تتوقف حتى احتلت الامبراطورية الشرقية كريت (٩٦١) وطرسوس (٩٦٣)، فان الرياح سارت لمصلحة الامبراطور سنة ٨٦٣: فقد تحسن الوضع الامني في اسية الصغرى باستمرار. واصبحت الارض مجالا جذابا للاستثمار. وكانت

الضائقة المالية التي حلت بالفلاحين هي الفرصة الملائمة للملاك. فضغط الضرائب فرضت على الفلاح ان يبيع، مع ان الارض التي كانت تحت تصرفه مقابل الخدمة العسكرية لم يكن التخلي عنها جائزا قانونا. والقحط الذي كان نتيجة شتاء قاس فوق العادة (٨/٩٢٧) يسّر للاغنياء ابتياع الاراضي باسعار تدعو الى السخرية. إلا ان هذه الازمة الموقتة ما كان لها ان تستغل الى هذا الحد لولا ان الفلاحين كانوا قد وقعوا في ضائقة مالية شديدة بسبب الضرائب الباهظة.

وقد كانت فضيحة الاستغلال لازمة ٨/٩٢٧ بشعة بحيث ان التشريع الامبراطوري لاصلاح الارضين عاد الى الصدارة، وهو الذي فُشِّل نهائيا سنة ١٠٢٨. ذلك بانه كان ثمة خصومة بين حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية وكبار الملاكين حول الاستيلاء على «فائض» الانتاج عند الفلاحين. كان القسم الاكبر من الدخل القومي للامبراطورية الرومانية الشرقية مصدره انتاج الفلاحين. وقد كانت القضية تتلخص في هل يذهب هذا «الفائض السنوي» للحكومة ضرائب، ام يستولي عليه كبار الملاكين ايجارا: وقد كان كل من الخيارين شرا بالنسبة الى الفلاح. فالفلاح كانت الضرائب الملقاة على عاتقه ثقيلة باعتباره «ملاكا حرا». وبوصفه فلاحا مستأجرا عند ملاك كبير كان ينقل مهمة التعامل مع موظفي الضرائب الامبراطوريين الى مالك الارض، ولكن ثمن هذا كان ان يضع الفلاح نفسه تحت رحمة مالك الارض.

كانت الحكومة ترمي الى حمل كبار الملاكين على التخلي غصبا عن الارض التي استولوا عليها دون حق، وحتى بطريقة غير قانونية احيانا، منذ ٨/٩٢٧. وقد بلغ النزاع غايته في عهد باسيل الثاني (٩٧٦– ١٠٢٥). فقد حمل نبلاء اسية (الصغرى) السلاح ضده في ٩٧٦– ٩ ثم في ٩٨٧–٩. وقد كان رده على ذلك عنيفا. ففي ٤/١٠٠٣ اصدر امره بان الضرائب التي فرضت على اساس المناطق، يجب ان يقوم بدفعها الاغنياء من دافعي الضرائب مجتمعين، وان يعفى الفقراء منها كليا. وقد الغي هذا الامر سنة ١٠٢٨ وذلك بضغط شديد من كبار الملاكين على خليفة باسيل اخيه قسطنطين الثامن. وقد جاء الضغط عن طريق موظفي الدولة الذين كانت مصالحهم الشخصية تقف دوما عائقا في سبيل الاصلاح. وهذا يشبه ما حدث لاصلاحات وانغ ان–شيه في الصين ١٠٨٥–٦ (راجع الفصل التاسع والخمسين).

كان باسيل الثاني في معركة مع النبلاء والموظفين– وقد حاول ان يحمي الفلاحين

من الفريقين. ولو ان هدفه الاول كان تقوية مصلحة الدولة. وكان الموظفون في معركة مع النبلاء الاسيويين لأن الموظفين كانوا هم الذين يحكمون الدولة عندما يتولى العرش امبراطور ضعيف (دون باسيل الثاني مقدرة) فيما كان النبلاء يحاولون انتزاع العرش. او الخروج على الدولة. وكان النبلاء والفلاحون يكرهون موظفي ضرائب الدولة. الاولون لانهم كانوا يرون في الشدة على الفلاحين في جمع الضرائب اضعافا للميليشيا الفلاحية. فيما كانت قوة النبيل الارستقراطي تعتمد على هؤلاء الميليشيات لتوطيد سلطته. التي كانت تعادل حكم الولاية. والفلاحون كانوا يعارضون تصرف النبلاء في الاستيلاء على الارض. لكنهم كانوا ممتنين لهم لانهم كانوا يدفعون عنهم اذى موظفي الضرائب. ومن ثم فقد كان الفلاحون يسيرون في ركاب النبيل لا في حروبه للدفاع عن الامبراطورية فحسب. بل حتى في عصيانه على الدولة. والعصيانات الخمسة التي قامت في اسية الصغرى (بين ٩٦٣ و ١٠٥٧) ما كان لها ان تكون بهذه القوة لولا العون الذي قدمه الفلاحون لها. وقد تقبل الفلاحون هذه العصيانات على انها موجهة ضد موظفي الضرائب. وعصيان ٩٦٣ انتهى بتولي نبيل هو نقفور الثاني (فوكاس) العرش. وعصيان ١٠٥٧ حمل اسحق الاول (كوملنينوس) الى العرش. وفشلت عصيانات ثلاثة منها اثنان في ايام باسيل الثاني. لكنه اضطر الى استخدام المرتزقة للقضاء عليهما (المرة الاولى من جورجيا والثانية من روسيا).

وقد كان استخدام المرتزقة. سواء من اهل البلاد ام من الخارج. مكان ميليشيات الفلاحين احد اسباب سقوط الامبراطورية (١٠٧١). كان جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية يحتوي دوما على جماعة من الجند المحترفين الذين كانوا يعطون كامل وقتهم للخدمة العسكرية وكانوا يقبضون مرتبات بديل ذلك. لكن عددهم كان ضئيلا. وذلك بسبب النفقات الكبيرة اللازمة لذلك. فلما تولى العرش اباطرة ثلاثة محاربون وراغبون في توسيع رقعة المملكة (نقفور الثاني ٩٦٣-٩ ويوحنا ٩٦٩-٧٦ وباسيل الثاني ٩٧٦-١٠٢٥) تغير الوضع. كانت ثمة رغبة في ان يعود الفلاحون الى الارض ليخدموها كل الوقت. ويصبحوا دافعي ضرائب. وكانت ثمة رغبة اصيلة (نقفور) للحفاظ على حياة الفلاحين القائمة. وهناك اهتمام في وقف النبلاء عند حدهم. والرغبة في ان يكون للامبراطور جيش محترف كانت قائمة عند البعض (نقفور مثلا). والذي حدث سنة ١٠٧١ هو ان الامبراطور لسيء الحظ رومانوس الرابع (ديوجينيس) قابل السلاجقة وكان جيشه جيشا مرتزقا. وكان هم الجنود الاكبر ان يحصلوا على مرتباتهم.

انتزع نقفور الثاني كريت وجزءا من كيليكيا من العرب وكان ذلك لمصلحة الامبراطورية. ويوحنا وباسيل الثاني شنا حروبا ضد بلغاريا دامت من ٩٧١– ١٠١٨ انتهت باحتلالها. ولكن الحرب الطويلة اوقعت الامبراطورية في ضائقة مالية واقتصادية وازمة اجتماعية حادة لم تشف منها قط. وقد كان من اعراضها تخفيض قيمة النقد البزنطي الذهبي (نوميزما) الذي كان قد احتفظ بقيمته منذ ان اعاد اليه ديوقلتيان وقسطنطين الاول مكانته. وقد تم تخفيض القيمة بين ١٠٤٢ و١٠٥٥ في ايام قسطنطين التاسع.

تعتبر سنة ١٠٧١ حدا فاصلا في تاريخ الامبراطورية البزنطية في اكثر من ناحية واحدة. فمن ذلك ان الامبراطورية استعادت سيراقوسة (١٠٤٠) ولكن النورمان احتلوا امالفي في ابوليا (١٠٤١). وفي ١٠٤٥ اتمت الامبراطورية احتلال ارمينية تقريبا. لكن السلاجقة اخذوا بالهجوم على ارمينية (١٠٤٦). وفي سنة ١٠٧١ اتم النورمان احتلال ابوليا وكالابريا (احتلوا باري) ولكن الامبراطورية الرومانية الشرقية ادبت البلغار على عصيانهم (١٠٤١) بحيث انهم بعد ١٠٧١ كانوا. مع الصرب، خاضعين للامبراطورية الشرقية. إلا ان الضربة الكبرى التي تلقتها الامبراطورية الرومانية الشرقية سنة ١٠٧١ كانت في انكسار جيوشها في منزركرت (ملازكرد) على ايدي الب ارسلان (١٠٦٣– ١٠٧٢) الذي اسر الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس. فالامبراطورية الشرقية، في تلك السنة، كانت تحكم جزءا من اسية الصغرى فقط، لكن السكان فيه كانوا يونانيين. اما في اوروبة فقد كانت الامبراطورية تحكم جزءا من بلاد البلقان وبلاد الصرب والبلغار.

إلا ان الامبراطورية الشرقية كان لها، ومن ثم لمدنيتها، امتداد آخر ولو انه غير عسكري. في سنة ٩٨٩ اعتنق فلاديمير امير كييف المسيحية الارثوذكسية الشرقية، التي كانت قد عرفتها فئات قليلة في روسيا. وتزوج فلاديمير اخت باسيل الثاني (آنا). والمدنية البزنطية التي دخلت روسيا وصلت اليها عن طريقين– بلغاري ويوناني. ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية كانت النبع الاصلي للمدنية البزنطية، فان البلغار كانت لغتهم ذات اثر اكبر. ان الدولة البلغارية يعود انشاؤها الى الهون وهم شعب تركي اللغة؛ وروسيا اسسها السويديون (الذين كانوا يتكلمون التوتونية). إلا ان اكثرية السكان في البلدين كانت تتكلم لغة صقلبية الاصل. وهي اللغة التي كانت قد سادت في كلا البلدين لما وصلت المسيحية اليهما. فلما اعتنقت روسيا المسيحية استقدم امراؤها فنانين وبنائين يونانيين. لكن الروس اقتبسوا اللهجة الصقلبية (المقدونية) واستعملوها في الطقوس الدينية

وفي الادب. وكانت الكتابة التي دونت بها هذه اللغة هي الالفباء الكيريلّية البلغارية الاصل. اذ كانت ايسر استعمالا من الالفباء الكيريلّية (القسطنطينية المنشأ) المعقدة. وبهذه الواسطة نقل الكثير مما كان قد وضع باليونانية اصلا الى الروس في صيغته البلغارية. ومع ان روسيا كانت في سنة ١٠٧١ تتمزق سياسيا فانها كانت تتسع جغرافيا. وكان هذا الاتساع يحمل معه المدنية البزنطية نحو شواطىء البحر الابيض الروسي (الشمالي). والمسيحية التي انتشرت في روسيا لم تتأثر بحركتين هرطقيتين قامتا في تراقيا وبلغاريا في القرن العاشر.

وخلال فترة القرن ونصف القرن التي مرت على الامبراطورية الرومانية الشرقية قبل ١٠٧١. وهي السنة التي احتل فيها النورمان ابولية وانتصر السلاجقة على الامبراطورية. كانت البنية الاقتصادية والاجتماعية في الامبراطورية تسير سيرا مضطربا. وهذا يبدو واضحا في فشل حكومة الامبراطورية في سياسة اصلاح الارضين. إلا ان الفترة نفسها شهدت احياء التصوف وازدهار الفنون المنظورة في الامبراطورية. فقد كان لسيمون- «اللاهوتي الجديد»- (٩٤٩- ١٠٢٢) اثر في الحياة البزنطية اكبر من اثر معاصره الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦- ١٠٢٥). والفنون المنظورة التي كانت آخذة في الازدهار لم تتأثر بالنكبات الحربية التي وقعت سنة ١٠٧١. فقد برز الفنانون البزنطيون في الفنون والاعمال الدقيقة والصغرى: مثل الفسيفساء والحفر على العاج والمعدن. والاسلوب كان هلينيا في جوهره وهو الاسلوب الذي ملك على اليونان عقولهم في العصر البزنطي. إلا ان الفن البزنطي المنظور الذي صنع في القرنين العاشر والحادي عشر لم يكن تقليدا للجذور الهلينية. لقد اوحى الفن الهليني الى الفنانين البزنطيين ان يصنعوا شيئا هو ما يمكن ان يتميزوا به. ولما انتقل هذا الفن من القسطنطينية الى كييف ونوفغورود اخذ نهجا جديداً في هذه البلاد الجديدة. ففي سنة ١٠٧١ كانت روسيا قد اصبحت ارض الميعاد بالنسبة الى المدنية البزنطية والكنيسة الارثوذكسية الشرقية.

٦٣ - المسيحية الغربية ٩١١ - ١٠٩٩

كانت التقلبات التي شهدتها المسيحية الغربية في هذا العصر على الصعيد الحربي على عكس ما خبرته الامبراطورية الرومانية الشرقية في الفترة ذاتها . فالمسيحية الغربية كانت قد بدأت تتعرض لهجوم بحري من الاسكندنافيين حتى قبل موت شارلمان (٨١٤) ، وقد ظلت في موقف الدفاع حتى انتصر اوتو الأول على المجر (٩٥٥) . وقد بلغت آلام المسيحية الغربية ، على ايدي المهاجمين الغرباء ، حدها الاقصى (٨٩٦ - ٩٥٥) . ذلك لان الفرسان المجر اصابوا المناطق الداخلية التي كانت قد نالها من غزوات المسلمين والاسكندنافيين اقل من غيرها . وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر سار الحظ في ركاب المسيحية الغربية ، في الوقت الذي سار فيه معاكسا للامبراطورية الرومانية الشرقية .

والتبدل الفجائي على الصعيد الحربي يتضح في الحالتين عندما نأخذ بعين الاعتبار التبدلات الاجتماعية والثقافية التي كانت تسير تدريجا قبل ذلك - مثل قبول الاسكندنافيين الذين سكنوا في انكلترا (في الدينلو) وفي فرنسة (في نورماندي) ومثل انتشار اثر دير كلوني في اسلوب اتباع قوانين بندكت في الرهبنة . وتمثُّل المستوطنين الاسكندنافيين كان معناه ان طريقة الحياة التي تزودها المسيحية الغربية لاتباعها اصبحت جذابة للبرابرة (الذين لم يكونوا قد قبلوا دينا سماويا الى يومها) . والاصلاح الكلوني للرهبنة الغربية يظهر لنا لماذا اصبحت المسيحية الغربية جذابة . ان هذا الاصلاح كان دليلا ، على الصعيد الديني ، على وجود حيوية في المجتمع المسيحي الغربي كانت تظهر في مجالات اخرى من النشاط ايضا .

انتشرت المسيحية في بوهيميا ايام بعثة الاخوين قسطنطين (كيريل) وميثوديوس (٨٦٣ - ٨٥) ومورافيا الكبرى ، وقد ظل ، لمدة قرنين من الزمان تقريبا ، طقسان يستعملان جنبا الى جنب في بوهيميا - الواحد كان باللاتينية والآخر بالصقلبية . وقد تغلب الاول على بوهيميا في النهاية ، فيما ادى الطقس الصقلبي الى انتشار المسيحية في بولندا ، على نحو ما حدث في روسيا . وقد قبلت بولندا المسيحية الغربية سنة ٩٦٦ ، والمجر

قبلوها بين ٩٧٠ و ١٠٠٠ والدنيمرك اعتنقتها سنة ٩٧٤ وبقية البلاد الاسكندنافية حول منقلب القرن العاشر الى القرن الحادي عشر. وقد لقي اعتناق المسيحية مقاومة في بعض تلك الاقطار – مثل النروج والسويد والمجر. لكن المقاومة انتهت الى الفشل وذلك لان منزلة المدنية المسيحية الغربية كانت ـ الى ذلك الحين قد ارتفعت في اعين جيرانها الوثنيين.

وقد تم للمسيحية الغربية القيام بفتوح خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر. وذلك على حساب المسيحية الشرقية والاسلام. فبين سنتي ١٠٤١ و ١٠٧١ احتل النورمان المغامرون ابوليا وكالابريا ـ من الامبراطورية الرومانية الشرقية وبين سنتي ١٠٦٠ و ١٠٩٠ احتلوا صقلية من المسلمين. كان سكان ابوليا ايطاليين تابعين للبابوية دينيا ـ ومن ثم فان الفتح النورماني لم يكن غريبا تماما عليهم. اما اليونان من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية المقيمون في كالابريا وصقلية والمسلمون في صقلية فقد اعتبروا الاحتلال النورماني سيادة اجنبية. وفي سنة ١٠٨٥ احتل القشتاليون ـ الذين جاءوا من شمال غرب اسبانية ـ طليطلة (وهي توليدو التي كانت عاصمة القوط الغربيين ومن الفتح العربي لاسبانية). وفي ١٠٩٨ – ٩ قامت حملة عسكرية من الغرب المسيحي باحتلال انطاكية والرها (ادسا) من السلاجقة ـ والقدس من الفاطميين.

وقد كانت هذه الحملة – وهي الحملة الصليبية الاولى – محاولة عجيبة من الناحية المالية والتموينية والاستراتيجية. فقد نجح فريق من مغامري الغرب المسيحي في انجاز ما عجز عنه اباطرة القسطنطينية (باسيل الثاني ويوحنا) مع ما كان لديهم من وسائل الامبراطورية الرومانية الشرقية وثرواتها. والفتح النورماني لانكلترا (١٠٦٦) كان انجازا عسكريا يضاهي الحملة السابقة ـ (ولو انه لم يضف الى رقعة المسيحية الغربية لان انكلترا كانت جزءا منها حتى قبل الاحتلال). الا ان هذه الحملة اظهرت ان فرنسة (فرنسية الغربية) كانت قد سبقت غيرها من مناطق المسيحية الغربية النائية. وقد كانت البسالة العسكرية واحدا من مظاهر التفوق الفرنسي عامة.

والنصف الثاني من القرن الحادي عشر في تاريخ المسيحية الغربية اينعت فيه مدنية بعد ما رقدت مدة طويلة. (وفي ذلك تشبه هذه اليقظة ما اصاب المدنية الهلينية في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد.) وفي هذا العصر اظهرت المدنية المسيحية الغربية نشاطها ورغبتها في ان تنقل عن المدنيات الاغنى منها والمعاصرة لها وان تحيي ماضيها اليوناني – الروماني.

وفي الواقع فان مدونة جستنيان القانونية اكتشفت في سنة ١٠٨٨ واصبحت موضوع درس جدي وحماسي في بولونيا ، المدينة الايطالية التي ظلت تحت سيادة الامبراطورية الرومانية الشرقية حتى سنة ٧٥١ . وقبل نهاية القرن العاشر كانت الترجمة اللاتينية لاعمال ارسطو في المنطق التي تمت على يد بوتيوس تدرس وتفسر في الغرب على يد جربرت من اوريلاك ، بعد ما نامت نحو ٤٥٠ سنة . وطواحين الماء ، التي اخترعت في الهلال الخصيب ، كانت تقام على ضفاف السواقي المتحدرة في غرب اوروبة ما وراء الالب . ويبدو ان استخدام حصان النقل عن طريق استعمال النير والرسن انتقلت الى المسيحية الغربية في القرن العاشر ، وذلك من مكان اختراعها اصلا – اما في الصين او في السهوب الاوراسية . وقد كان بين اسلحة الحملة الصليبية القوس التي كان الصينيون قد استعملوها في حروبهم (٥٠٦ – ٢٢١ ق . م) ، وكانت قد نقلت الى الغرب .

في القرن الحادي عشر تخلى الغرب عن اداة الحرب التيورثها قاهرو الامبراطورية الغربية من البرابرة ، واستعاضوا عنها بالاداة السرماتية الاكثر فعالية ، والتي كان الالان قد حملوها معهم الى بلاد الغال في القرن الخامس . الا ان غربيي القرن الحادي عشر ادخلوا تغييرا عليها (كان الاول من كثرة) . فقد استعاضوا عن الدرع السرماتي المستدير الصغير ، بدرع له شكل طائر يشبه طائرة الورق ، اذ انه كان يزود الفارس بوقاء فعال وعلى ادنى حد من المساحة والوزن . وقد عرف هؤلاء «الفرسان» اهميتهم الى حد انهم انشأوا اخويات علمانية (مدنية) كانوا يدخلون فيها المبتدئين ويدربونهم على فنون الفروسية (اواسط القرن الحادي عشر) .

بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية استمر الشعر يكتب باللاتينية على الاوزان اليونانية الكلاسيكية ، التي كان العروض فيها قائما على التقسيمات الطويلة والقصيرة . الا ان هذا كان من شأنه ان يحد من نشاط اللغة اللاتينية الشعري . وقد أطلق كتاب الترانيم الروحية (الدينية) المسيحيون اللغة اللاتينية من هذا العقال ، اذ صنعوا شعرا لاتينيا ، بحيث انه حول منقلب القرنين الحادي عشر والثاني عشر نظمت ملحمة بلغة رومانسية حية ، هي «انشودة رولان» . فخرجت من تحت القشرة اللاتينية التي ظلت الى ذلك الوقت تخفي تحتها نشوء لغات هي بنات اللغة اللاتينيّة .

على المستوى السياسي شهد القرن العاشر احياء لامبراطورية شارلمان ، على ان سكسونيا ، لا بلاد الفرنج ، كانت نواتها . فقد توج اوتوا الاول ، ملك فرنسيا الشرقية

السكسوني . امبراطوراً في رومة سنة ٩٦٢ (وهو الذي كان قد انتصر على المجر سنة٩٥٥) . وقد ضم برغندية وايطالية الى املاكه الجرمانية . لكن فرنسية الغربية حافظت على استقلالها . وقد قامت هنا اسرة جديدة في القرن العاشر وحلت محل الكارولنجيين الذين فقدوا فعاليتهم . وقد ادخل النورمان ادارة ملكية فعالة في دول كانت على صعيد اصغر من مملكتي فرنسة والمانية . ونجاح النورمان في احتلال انكلترا وابوليا وصقلية . لم يفقه سوى نجاحهم الكبير في تنظيم هذه الممتلكات الجديدة وادارتها .

كانت مملكة صقلية النورمانية تدار ادارة اوتوقراطية . وهي دولة خلفت الامبراطورية الرومانية الشرقية والخلافة الاسلامية . وقد كان قيامها ضربة للمدن – الدول الناشئة في جنوب ايطالية . لكن البندقية (في شمال ايطالية) استقلت واقعاً ، عن الامبراطورية الرومانية الشرقية قبل نهاية القرن الحادي عشر . ومدن لومبارديا . التي كانت لا تزال في مطلع القرن تحت حكم اولئك الامراء الذين ورثوا حكام شارلمان او تحت حكم الاساقفة المحليين . اصبحت لها استقلال ذاتي خلال السنوات المئة التالية . وقد كانت حكومة هذه المدن – الدول اوليغارقية . الا انها كانت جمهورية . وقد اشتركت اثنتان من المدن الدول اللومباردية البحرية . كدولتين مستقلتين . في الحملات التي شنتها المسيحية الغربية في حوض البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن الحادي عشر .

ومن ثم فقد كان هناك . خلال القرن الحادي عشر . صيغتان للتركيبة السياسية تتنافسان في الغرب : صيغة جمهورية على مقياس المدينة – الدولة . وصيغة ملكية على مقياس المملكة – الدولة . وحول سنة ١١٠٠ كانت كلاهما قد برزتا على انهما اكثر فعالية من اي نظام سياسي آخر قام في تلك المنطقة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب .

وصيغة المدينة – الدولة السياسية التي ظهرت في شمال ايطالية في القرن الحادي عشر . ظهرت ايضا في فلاندر في القرن ذاته . فقد عرفت المنطقتان تفجراً سكانيا في زمن واحد . وقد رافق هذا نمو في التجارة والصناعة . فحتى في سنة ٩٩٢ منح باسيل الثاني البنادقة امتيازات تجارية في طول الامبراطورية الرومانية الشرقية وعرضها . لقاء الخدمات البحرية التي قدموها له . وعندها اخذ البنادقة ينقلون التجارة من اليونان الى ايديهم حتى في المياه اليونانية . وبعد انشاء الامارات الصليبية على الساحل الشامي . حصلت المدن – الدول البحرية من شمال ايطالية على امتيازات في ذلك الساحل ايضا . فالنقط التي اقامها الغرب المسيحي «عبر البحار» كانت تعتمد على سفن جنوى وبيزا والبندقية في اتصالها

باوروبة . فقد كان الغرب الآن هو الرابح بالنسبة الى الاسلام والمسيحية الشرقية الارثوذكسية ، ولكن في اطار الغرب نفسه كان الرابح الاول هو الايطاليون الشماليون .

وعلى الصعيد الديني بدت يقظة المسيحية الغربية في سلسلة من المحاولات لادخال اصلاحات بدأت سنة ٩١٠ واستمرت حتى ١٠٩٩ . كانت نقطة انطلاقها انشاء دير كلوني في برغنديا وهو نموذج جديد للدير البندكتي . وقد انتشرت حركة الاصلاح الكلونية في الغرب المسيحي ، والاديرة التي اقتبست الصيغة الكلونية للقوانين البندكتية انضمت في جمعية تحت هيمنة كلوني نفسه . ولكن عند نهاية القرن الحادي عشر اصبح النظام الكلوني نفسه عاجزا عن توفير الحيوية اللازمة . وفي سنة ١٠٩٨ انشىء نموذج جديد في سيتو في برغنديا ايضا . كان القديس بندكت نفسه(على نحو ما رمى اليه باخوم المصري ابو نظام الرهبنة) اراد ان يقيم توازنا بين التعبد والنشاط الاقتصادي للرهبان في ديره . والحركة الكلونية عنيت بالتقيد والطقوس في حياة الدير البندكتي . ومن ثم اصبحت الاديرة التي قبلت النظام الكلوني عبئا على الفلاحين المقيمين في املاك الدير ، لا يقل في ثقله عن العبء الذي يفرضه الجيران من كبار الملاكين المدنيين . اما اتباع دير سيتو (وهم السسترسيون) فقد كان هدفهم ان تكون لهم حياة روحية متقشفة اعمق وانتاج مادي اكبر . فقد استصلحوا الارض البرية لكنهم استخدموا عمالا هم رهبان عاميون . اي اعضاء في المنظمة لكنهم من الدرجة الثانية . (الرهبان المصريون لم يستخدموا عمالا غيرهم في استصلاح الارض) . وقد استخرج السسترسيون الحديد والصوف من البرية . وهم ، اذ قاموا بهذا الانجاز الاقتصادي ، زرعوا بذور النظام الرأسمالي في الانتاج .

ان الاصلاحات الدينية في القرن الحادي عشر في الغرب المسيحي ادخلت ثلاثة امور مستحدثة هناك . لقد فرضت العزوبة على كاهن الرعية (اي رجل الدين الذي لم يكن راهبا) وحاولت منع شراء المناصب الدينية وتنصيب اصحاب المناصب الدينية على ايدي السلطات المدنية . وقد نجحت القضية الاولى ، مع انه لم يكن لها سابقة لا في الغرب المسيحي ولا في اي كنيسة اقليمية . وقضية تنصيب رجال الدين على ايدي السلطات المدنية تم الاتفاق بشأنها (١١٢٢) على شكل مرضي ، لأن الشخصيات الدينية كانت غالبا ما تتولى المناصب المدنية والدينية . وابتياع المناصب الدينية من اصحاب السلطة المدنية المحليين ، تقلص لمصلحة البابوية ، التي تولت امر تعيين رجال الدين في مناصبهم ، ولم تكن تفعل ذلك مجانا . وكانت نتيجة هذه الاصلاحات الدينية في مجموعها ان جعلت من رجال الدين فئة ذات امتيازات خاصة داخل المجتمع المسيحي الغربي وكان

ثمن ذلك اخضاعهم للباباوية بدل ان يكونوا تحت رحمة النبلاء المدنيين.

وقد تولت الباباوية ـ التي نالها الاصلاح ايضا ـ قيادة هذه الحركات الثلاث. لقد كانت الباباوية اهم مؤسسة في المسيحية الغربية. وقد جاء اصلاحها ـ في اواسط القرن الحادي عشر ـ مفاجئا ومدويا. اما نتائجه فقد اختلف فيها ـ كما انه رافقه شيء من التمزق.

كان المركز الجغرافي للغرب المسيحي هو برغنديا ـ حيث تقترب ينابيع انهار السون والسين والموزل بعضها من البعض الآخر ـ وحيث تقترب جميعها من زاوية الراين الجنوبية الغربية ـ وغرب اوروبة ما وراء الالب كان هذا هو مركز المواصلات فيه ـ وفي هذه المنطقة انشىء دير القديس كولومبانوس والنماذج الجديدة لاديرة كلوني وسيتو وبعد ذلك دير كليرفو ـ في مقابل ذلك كانت رومه ـ وهي مركز الكرسي البابوي ـ تقع على الطرف الجنوبي الشرقي للغرب المسيحي. يضاف الى ذلك ان توسع المسيحية وانتشارها كانا يتجهان ـ في نصف القرن الذي تلا سنة ٩٦٦ ـ شمالا في شرق وشمالا. ومن ثم فان الاشراف على الادارة الدينية للمسيحية الغربية من هذا المكان الواقع في واحدة من ابعد زواياها ـ كان امرا في غاية الصعوبة والدقة.

كانت رومة ـ بالنسبة الى المسيحية الغربية ـ الهيكل والموحى والمحجة. لكن رومة كان عليها ـ منذ ان دخل اللومبارديون ايطالية (٥٦٨) ـ ان تدفع الاذى عن نفسها بنفسها (باستثناء فترتين تدخل فيهما بيبين الثالث وشارلمان من بلاد ما وراء الالب). ومن ثم فان نبلاء رومه كانوا يرون ان قدسية رومه ومنزلة البابابوية كانتا حقا مشروعا لهم. اما بقية المسيحية الغربية فكانت تعتبر استغلال هؤلاء النبلاء للمدنية والبابوية امرا إدًّا.

وقد كان الجرمان الذين تولوا العرش الامبراطوري المحدث اول من تولى وجهة نظر المسيحية الغربية. لقد عزل كل من اوتو الاول واوتو الثالث وهنري الثالث البابا الروماني الاصل وعين مكانه رجلا من اختياره من بلاد الواقعة وراء الالب. وقد اختار اوتو الثالث العلامة الفرنسي جربرت (من اوريلاك) الذي تولى باسم البابا سلفستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣). واختار هنري الثالث ابن عمه الالزاسي برونو (البابا ليو التاسع ١٠٤٨ - ٥٤). وقد حشد ليو رجال دين مشهورين في الكوريا البابوية الذين لم يكونوا يمثلون النبلاء الرومان ـ بل «مؤسسة» المسيحية الغربية قاطبة. لكن هؤلاء السادة الجدد في

الكوريا كان رأيهم انهم هم ، لا الامبراطور ، الذين يجب ان تكون لهم الكلمة الاخيرة في شؤون البابا وية .

كان هلدبراند ، الذي اصبح البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ – ٨٦) ، هو الذي اثار الحرب بالنيابة عن الكوريا البابوية المصلحة ، على جبهتين – ضد الامبراطور وضد النبلاء الرومان . ومع انه كان رومانيا ، نشأة لا ولادة ، فانه لم يكن صديقا لهؤلاء النبلاء . اعتبارا من سنة ١٠٥٧ لم يكن تعيين البابا بيد النبلاء او الامبراطور الروماني الغربي . لقد اصبح ينتخب – والهيئة الانتخابية هي مجمع الكرادلة الذين كانوا يقومون بذلك كممثلين للمسيحية الغربية كلياً . (هذه السلطة لمجمع الكرادلة لم تقر نهائيا الا في سنة ١١٧٩ .) والكوريا البابا وية تم قيامها اداة فعالة للحكم بين سنتي ١٠٥٧ و ١٠٩٩ (السنة التي توفي فيها اوربان الثاني) . الا ان الكوريا البابوية المصلحة كانت تتفق مع النبلاء الرومان ومع الاباطرة الرومان الجدد في ان الغاية (عند الجميع) كانت السلطة . وفي سبيل ذلك قطعت العلاقة مع بطريرك القسطنطينية ميشيل (١٠٥٤) ومع الامبراطور هنري الرابع (١٠٧٥) . ان اصلاح البابوية والكنيسة الغربية كان غاية نبيلة ، وقد كان المصلحون انفسهم مخلصين ، لكن النتيجة كانت مأسوية . فهذا الاصلاح لم يؤد الى السلام ، بل الى السيف .

٦٤-العالم الاسلامي ١١١٠-١٢٩١

لقد تغلب الاسلام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على الصعوبات ؛ ليس ذلك فقط ، بل انه استمر في الانتشار . وقد كان هذا انجازا رائعا ، اذا نحن اخذنا بعين الاعتبار ان العالم الاسلامي كان ممزقا سياسيا ، وانه كان يتعرض لهجوم عنيف في حوض البحر المتوسط اولا ، على ايدي المسيحيين الغربيين ، وفي اسية ايضا على ايدي المغول . والربح السياسي الثابت الذي ناله المسيحيون الغربيون كان في شبه جزيرة ايبريا وفي صقلية ، وفي هاتين المنطقتين استمر وجود السكان المسلمين تحت حكم مسيحي . اما فيما يتعلق بالمغول فقد عجزوا عن احتلال بلاد الشام ومصر . وحكام اتباعهم البدو في الدول الثلاث الغربية التي تفرعت عن بيت جنكيزخان ، اعتنقوا الاسلام : القبيلة الذهبية ، في النصف الغربي من السهوب الاوراسية ، في سنة ١٢٥٧ (ثم نهائيا سنة ١٣١٣) ، والايلخانيون في ايران والعراق في ١٢٩٥ ؛ والتشاغاتايون في ما وراء النهر وحوض تاريم وما جاوره من منطقة السهوب في ١٣٢٦ (ولو ان ذلك لم يكن بالاجماع) . وقبل فتح المغول للنصف الغربي من السهوب الاوراسية ، كان السكان هناك من بدو الاتراك الكبتشاك وثنيين . فيما كان بلغار الفولغا جماعة مسلمة معزولة . في ١٢٣٧ نهب المغول بلغار الفولغا في طريقهم الى روسيا والى اوروبة . ولكن الذي ترتب على ذلك هو ان الاسلام لم يقض عليه هنا ، بل على العكس من ذلك انتشر انتشارا واسعا . وقد اشرنا من قبل الى احتلال المسلمين لشمال الهند (من ممر خيبر الى البنغال) بين ٩٩٢ و١٢٠٢ . وفي الغرب فشل المسلمون في استرجاع طليطلة التي كان المسيحيون قد احتلوها في ١٠٨٥ ؛ لكن المرابطين ضموا للاسلام (١٠٨٦) مرتكزا جنوبي الصحراء في ما هو اليوم شمال نيجيريا .

كانت اقامة جسور للغرب المسيحي على الساحل الشامي (١٠٩٨- ١٠٩٩) مع موقع متقدم الى الشرق من نهر الفرات في الرها (ادسا او اورفا) امرا بالغ الخطورة من حيث تهديده للعالم الاسلامي . والمغامرون الذين اسهموا في الحملة الصليبية الاولى كان عددهم ضئيلا (لعلهم كانوا اقل من ٢٠.٠٠٠ رجل) . وبعد احتلال القدس (١٠٩٩)

بقي الاقلون في البلاد التي فتحوها ليدافعوا عنها. ومع ذلك فقد نجحوا في تثبيت ما امتلكوه. وطرابلس، التي صمدت امام هجمات الامبراطورين الرومانيين الشرقيين نقفور الثاني ويوحنا في القرن العاشر، سلمت للفرنج (١١٠٩). ولما احتل بلدوين الاول ملك القدس الفرنجي العقبة (١١١٦) وجزيرة غراي في الخليج نفسه، قطع الاتصال البري بين القسمين الافريقي والاسيوي من العالم الاسلامي.

وقد انقذ الموقف، بالنسبة للعالم الاسلامي، ضابط تركي كان في خدمة السلاجقة، هو عماد الدين زنكي، الذي عين حاكما على الموصل (١١٢٧). وفي سنة ١١٤٤ كان زنكي قد ضم حلب وحمص والموقع الصليبي في الرها. وفي سنة ١١٥٤ احتل ابنه نورالدين دمشق. وفي ١١٦١ - ١١٧٠ نجح في التغلب على ملك القدس اموري اذ سبقه الى السيطرة على مصر الفاطمية. في سنة ١١٧١ صفى صلاح الدين، وهو قائد كردي من قواد نورالدين، الاسرة الفاطمية، واعاد مصر الى حظيرة السنة. وقد تقسمت دولة نورالدين عند وفاته (١١٧٤) إلا ان صلاح الدين استولى عليها لنفسه، وبارك له الخليفة في ذلك. وتغلب صلاح الدين على الفرنجة في معركة حطين (شمال فلسطين) واحتل القدس (١١٨٧). ولم تستطع الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ٩٢) ان تزحزح صلاح الدين، مع ان فردريك الاول وملكي فرنسة وانكلترا كانوا فيها (لكن فردريك غرق في الطريق). وقد عاشت امبراطورية صلاح الدين بعد وفاته (١١٩٣) وحتى بعد القضاء على اسرته (١٢٥٠) -وهي السنة التي فشل فيها الفرنج للمرة الثالثة في تقليد الملك اموري في مشروعه لاحتلال مصر. واصبحت مصر الآن قلعة الاسلام ودار سلاحه.

إن الرقيق التركي الحربي الذي كان يعيش في كنف اسرة صلاح الدين تولى هو -مشتركا- ارث صلاح الدين (١٢٥٠). وقد اصبح الاستخلاف الآن لا ينتقل من اب الى ابن، بل من حاكم مملوك سابق الى مملوك آخر. وكان قد انشىء حكم على هذه الشاكلة في دلهي (١٢٠٦). فمحمود الغوري، الذي احتل شمال الهند الى الجنوب من البنجاب، عين مملوكا - نائبا عنه. والخليفة المملوك الثاني لهذا الحاكم تولى الحكم لما صفى امير خوارزم الاسرة الغورية (١٢١٥).

إن ما وراء النهر وخراسان، اللتين ازدهرتا تحت حكم العباسيين والسامانيين الايرانيين خلفاء الاولين، اصابهما الضر (في العقود الاولى من القرن الحادي عشر) اذ اقتحمها البدو التركمان، بقيادة آل سلجوق. في سنة ١١٤١ احتل المنطقتين فريق من

مهجري الخيطان (القراخيطاي) الذين كانوا قد اجلوا عن شمال الصين ومنشوريا على يد الجورشيد. ولم يكن القراخيطاي قد اعتنقوا الاسلام، لكنهم كانوا جماعة متحضرة. وقد كان تأذي ما وراء النهر من وجودهم اقل من تأذيها من الحكام الخوارزميين المسلمين الذين اخرجوا القراخيطاي من تلك المنطقة (١٢١٠). وقد تعرض الربع الشمالي الشرقي من العالم الاسلامي للخراب ونقص السكان بسبب هجوم المغول بقيادة الزعيم الحربي جنكيزخان، الذين استولوا على املاك الخوارزميين (١٢٢٠– ١).

وقد انقذ تدخل جنكيزخان العراق من شر حملة كانت تهدد العراق على يد خوارزمشاه، والتي كان من الممكن ان تكون مثل حملته وحملة جنكيزخان في تخريبهما لما وراء النهر. ولما قضى خوارزمشاه على الفرع الشرقي من اسياده السلاجقة (١١٩٤) خلا الامر للخليفة الناصر (حكم ١١٨٠– ١٢٢٥) فاستقل بالامر. وقد افاد من حريته فوظفها في محاولة استعادة املاك في جنوب غربي ايران وفي تأييد صلاح الدين وخلفائه وفي جعل «الفتوة» نظاما فروسيا تحت اشراف الخليفة العباسي.

والفتوة كانت واحدا من عدد من المنظمات الاسلامية الجديدة التي مكنت للاسلام من الصمود امام الفتح المغولي. وكان غيرها مجموعة من الطرق الصوفية، واقدمها القادرية التي انشأها عبد القادر الجيلاني (القرن الثاني عشر). وقد جاء اكثر مؤسسي هذه الطرق الصوفية من الربع الشمالي الشرقي من العالم الاسلامي. وقد كان في تعبدهم ما يثير الوجد. وقد ربحوا التركمان الذين اعتنقوا الاسلام الى جانبهم. وقد كان ابرز الذين اسسوا طريقة هو جلال الدين (الرومي) مؤسس الطريقة المولوية. فقد ولد في بلخ (في طخارستان) سنة ١٢٠٧. (قبل هبوب العاصفة الخوارزمية والمغولية على هذه المنطقة) وقضى معظم حياته (١٢٠٧– ٧٣) في قونية، عاصمة سلاجقة الروم. وهنا كتب شعره الصوفي (المثنوي وغيره) باللغة الفارسية الحديثة. وثمة شاعر فارسي آخر هو سعدي الشيرازي (حول ١١٨٤– ١٢٩١) الذي كان دائم التنقل بسبب اضطراب حبل الامن. وقد تخطى المئة من العمر في قرن من اشد القرون اعصارا وعواصف في تاريخ الاسلام.

كانت سلطنة سلاجقة الروم (في اسية الصغرى) اقدر على البقاء من الامبراطورية الام شرقي الفرات. فقد تغلبت على الحملة الصليبية الاولى. وفي سنة ١١٧٦ ردت حملة بزنطية جاءت متأخرة لاستردادها. وتغلبت حتى على انتصار المغول عليها ١٢٤٣ مع انها خضعت لسلطة مغولية شديدة. وقد انشأت هذه السلطنة (في اسية الصغرى) مجتمعا تركيا

تشرب المدنية الاسلامية في صيغتها الايرانية. وقد ارسل سلاطين الروم الى الحدود جماعات من التركمان الذين حملهم السلاجقة معهم وكذلك القبائل التي جاءت في القرن الثالث عشر هاربة امام المغول. وقد تغلب المغول لاحقا على سلطنة الروم السلجوقية (ولكنهم لم يتغلبوا على مماليك مصر والشام) وخضعت لسلطانهم. ولكنها ظلت ملجأ للاسلام في هذه الازمة في التاريخ الاسلامي.

وهكذا فانه لما انتدب الخان الكبير للمغول (مونكه) اخاه هولاكو لاتمام الفتوح التي بدأها جنكيز في العالم الاسلامي. استطاع الاسلام ان يتغلب على تخريب العراق وسقوط بغداد وتدميرها وتصفية الخلافة العباسية– سنة ١٢٥٨.

في سنة ١٢٦١ اثبت المماليك. خلفاء اسرة صلاح الدين. ان المغول ليسوا شعبا لا يغلب. لما قضوا على مقدمة جيش هولاكو المنتصر قبلا. وذلك في معركة عين جالوت في شمال فلسطين. فقد قتل القائد المغولي في المعركة (وكان مسيحيا نسطوريا) وكان الى جانبه في المعركة ملك ارمينية (في كيليكيا) المسيحي، وامير انطاكية المسيحي. لكن الفرنج في عكا منحوا الجيش المملوكي حق المرور. وقد صد المماليك ثلاث غزوات مغولية بقيادة الايلخانيين (من العراق وايران) عن سورية وفي سنة ١٢٩١ استولوا على عكا آخر مركز مسيحي غربي على الساحل الشامي.

كان المسيحيون الغربيون والمسيحيون النساطرة يأملون في ان يعتنق السكان في المملكة الايلخانية المسيحية. ووصل رسل البابوية وفرنسة الى عاصمة الخان المغولي الكبير في قراقورم. قرب النهاية الشرقية للسهوب الاوراسية. ولكن لم ينته الامر الى شيء. وحكام الدويلات الغربية في السهوب الاوراسية اختاروا الاسلام. لا المسيحية. وبعد ما اعتنق الايلخان غازان الاسلام (١٢٩٥) قام اتباعه من المسلمين بايذاء المسيحيين. وفي المنطقة الاسيوية من العالم الاسلامي نجد ان اعتناق افواج من المسيحيين للاسلام الذي بدأ في القرن الحادي عشر مع انسياح التركمان بقيادة السلاجقة. نشط الآن. والجماعات المسيحية من النساطرة واليعاقبة الذين كانوا اكثرية السكان في الهلال الخصيب تناقص عددها بحيث اصبح المسيحيون اقلية ضئيلة. وقد تناقص عدد المسلمين في الطرف المقابل من العالم الاسلامي في المناطق التي احتلها المسيحيون الغربيون. ثم زالوا بالمرة. ولم يتمكن لا البربر المرابطون القادمون من الصحراء ولا البربر الموحدون القادمون من الاطلس. من وقف التقدم العسكري المسيحي في شبه جزيرة ايبريا. وقد سقطت قرطبة سنة ١٢٣٦

واشبيلية ١٢٤٨ . وقد اقتصر الحكم الاسلامي بعد ذلك على حصن طبيعي حول غرناطة. وعلى كل فقد نجح الموحدون في اخراج النورمان الصقليين من الاماكن التي احتلوها على ساحل افريقية بعد سقوط المرابطين في الاربعينات من القرن الثاني عشر. وفي هذه المرحلة لم يقع اي جزء من افريقية تحت حكم المسيحيين الغربيين إلا موقتا.

وعلى كل فان المنطقة التي ازدهرت فيها المدنية الاسلامية بعد ارتداد الموجة في القرن الحادي عشر على الصعيد العسكري. لم تكن افريقية- لقد كانت شبه جزيرة ايبريا.فقد نشأ عن تمزق الخلافة الاموية في قرطبة الاثر الحضاري نفسه الذي نشأ عن تمزق الخلافة العباسية في بغداد على ايران. اذ كان الامران باعثين على التقدم. وفي شبه الجزيرة كان لقيام البلاطات الكثيرة الأثر ذاته من حيث زيادة عدد من يرعى الفنون والآداب. فقد ازدهر الشعر في الدويلات التي نشأت عن زوال الخلافة. وفي الوقت القريب السابق للفتح المسيحي للاندلس نفحت شبه الجزيرة الاسلام بالفيلسوف ابن رشد (١١٢٦ - ٩٨) الذي كان صنو ابن سينا ، وبالصوفي ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٨) الذي كان يرى رأي الغزالي في جعل التصوف عنصرا من عناصر الاسلام السني . وقد كان فضل شبه الجزيرة على الحضارة الاسلامية شبيها بما قدمته افريقية للثقافة المسيحية الغربية . لقد دامتا كلتاهما بعد اقتطاع الجزء الذي نما فيه كل منهما وانبعث ثماره .

٦٥ - عالم بزنطية ١٠٧١ - ١٢٤٠

خلال السنوات العشر التي مرت بين انكسار الامبراطور رومانوس واسره على يد القائد السلجوقي الب ارسلان وتسم الكسيوس الاول كومنينس . الامبراطور الاوتوقراطي الاسيوي الاصل . عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية اهدت هذه المؤسسة . للاتراك في اسية الصغرى قلب الامبراطورية الذي دافع عنه الاسلاف نحو ثلاثة قرون ضد هجمات العرب . في سنة ١٠٨١ كان الاتراك السلاجقة قد تغلبوا على الامبراطورية من الشرق والنورمان من الغرب والبشنغ (البشناق) والغز من الشمال . (والغز كانوا قد ازيحوا عن مواطنهم في السهوب الغربية على يد القبتشاق الى مجاري الدانوب الدنيا) .

حكم الكسيوس الاول (١٠٨١ -١١١٨) وكان حريا بان يكون خليفة ديوقلتيان وهرقل . وقد انقذ الامبراطورية من الخراب مثلهما . كما ان يوحنا الثاني (حكم ١١١٨ - ٤٣) ومانويل الاول (حكم ١١٤٣ - ٨٠) كانا حريين بان يكونا خليفتين لا لكسيوس . ولكن لم يتمكن اي من هؤلاء الاباطرة الثلاثة من الحد من ازدياد قوة النبلاء الملاكين الاقتصادية والسياسية . ولا من السلاجقة والدنشمند الاتراك من اسية الصغرى . لقد كان البدو التركمان يحسنون التهرب . وكان الفلاحون اليونان المسيحيون يحسون بغربة بالنسبة الى الامبراطورية . وقدلقي الفلاحون الاذى الكثير على ايدي البدو ، ولكن حين كان حكام سلطنة الروم السلجوقية يتمكنون من حماية الفلاحين من البدو التابعين للسلاجقة . كان الفلاحون يجدون ان نير السلطان المسلم اخف من نير حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية .

كان على الكسيوس ان يعالج الحملة الصليبية الاولى . كان العالم الاسلامي قد تخلص من التركمان بان قذف بهم الى ارمينية واسية الصغرى من املاك الامبراطورية الشرقية . فرد الكسيوس على ذلك بان قذف بالصليبيين الغربيين الى بلاد الشام . لكن الكسيوس والصليبيين كانوا على خلاف في الرأي . كان الكسيوس يحب ان يستخدم

الصليبيين مرتزقة لاخراج الاتراك من اسية الصغرى . لكن هدف الصليبيين كان القدس ، ولم يكونوا يرغبون في ان يكونوا اعوان الامبراطور الشرقي ولا اتباعه . وفي النهاية فشل الفريقان في الوصول الى الهدف . فالامبراطورية الرومانية الشرقية لم تستعد داخل اسية الصغرى قط . والصليبيون . مع انهم استولوا على القدس ، لم ينجحوا في احتلال داخل بلاد الشام . ومن ثم فان المواطىء الساحلية التي استولوا عليها ظلت بدون حدود داخلية يمكن الدفاع عنها امام البر الاسلامي الواسع . وقد نجح السلاجقة في اقامة سلطنة في اسية الصغرى لها سكان مستقرون . فيما تمكن زنكي ونور الدين وصلاح الدين من الاحاطة بالممتلكات الفرنجية على الساحل الشامي واخراج الفرنجة من القدس .

ان مانويل الاول بدد جهوده وبذر موارد الامبراطورية الرومانية الشرقية المتضائلة بان اتبع سياسة توسع كانت أكثر طموحا من تلك التي تبناها نقفور الثاني ويوحنا الاول وباسيل الثاني – اذ ان تلك المطامع لم تستطع الامبراطورية تحقيقها في الوقت الذي كان قلب اسية الصغرى بعد سليما . ولم تكن الحكومة قد هزمت في نزاعها مع كبار الملاكين للسيطرة على الفلاحين . ولم يتمكن مانويل من السيطرة على صربيا . ومع ذلك فقد شن حربا على هنغاريا (المجر) . وحاول استرجاع ابوليا بان تدخل في الحرب القائمة بين فردريك الاول (بربروسّا) والمدن – الدول في شمال ايطالية . وقد تلا وفاة مانويل (١١٨٠) انهيار انتهى بنكبة هائلة .

كانت العلاقات بين مانويل والمسيحيين الغربيين ودية . لكن ميوله الفرنجية لم تشاركه فيها اكثرية مواطنيه . ان الامتيازات الاقتصادية التي دفعتها الحكومة الرومانية الشرقية للمدن – الدول الايطالية البحرية . خلال القرنين السابقين . مقابل مساعدتها البحرية للامبراطورية . مكنت الايطاليين من انتزاع تجارة الامبراطورية الرومانية الشرقية الداخلية من ايدي اليونان . فحدثت في القسطنطينية (١١٨٢) مذبحة قتل فيها رجال اعمال غربيون. فرد النورمان الصقليون على ذلك بان دخلوا سلانيك (١١٨٦) ونهبوها . في سنة ١١٨٠ نفضت صربيا عن كاهلها سيادة الامبراطورية الرومانية الشرقية . في سنة ١١٨٥ ثار البلغار (الذين كانوا رعايا الامبراطورية الرومانية الشرقية منذ ١٠١٨ على الامبراطورية واسسوا دولة مستقلة . وثورة البلغار هذه لم يقض عليها كما حدث في سنة ١٠٤١ . في سنة ١١٨٥ خرجت قبرص عن الامبراطورية (لكنها وقعت سنة ١١٩١ تحت سلطة الملك الصليبي الغربي ريتشارد الاول ملك انكلترا . الذي اهداها الى غاي دي

لوزينيان (١١٩٢!) ملك القدس الفرنجي ، الذي كان صلاح الدين قد اخرجه من القدس (١١٨٧) والذي لم تستطع الحملة الصليبية التالية ان تعيده الى عرشه ، وذلك تطيباً لخاطره .)

والمصيبة الكبرى حلت بالامبراطورية الرومانية الشرقية في ١٢٠٣ - ٤ . فقد هوجمت القسطنطينية واحتلت مرتين من قبل قوة مشتركة من البنادقة والصليبيين الفرنسيين . في المرة الاولى قام المهاجمون بذلك لحساب مدع للعرش الامبراطوري الروماني الشرقي ، وفي المرة الثانية كان العمل لحساب المهاجمين انفسهم . وكانت هذه هي المرة الاولى التي تمكن فيها اعداء من مهاجمة القسطنطينية واحتلالها منذ انشائها سنة ٣٣٣ . وقد نهبت المدينة بمنتهى الوحشية . واتفق المهاجمون على اقتسام الامبراطورية فيما بينهم . لكنهم اثبتوا انهم عاجزون عن القيام بالمهمة كاملة . ونالت البندقية اكبَر نجاح . فقد اختارت . حصتها من الاسلاب . كريت وجزرا اخرى غيرها . ومواطىء على السواحل ذات قيمة استراتيجية . وقد قامت دول مستقلة هي وريثة للامبراطورية الرومانية الشرقية وذلك في شمال غرب اسية الصغرى . وفي الطرف الشرقي في ساحل اسية الصغرى الشمالي وحول طرابزون وفي ابيروس . وعهد الى صليبي فرنسي امر القسطنطينية ، فاتخذ لنفسه لقب امبراطور .

وقد ظهر نتيجة لذلك ان امتلاك القسطنطينية هو عبء ثقيل . وليس كسبا . فمن الناحية العسكرية كانت قلعة لاترام بين ٣٣٠ و ١٢٠٤ . الا انها اصبحت ايضا كابوسا اجتماعيا واقتصاديا منذ خسارة سورية وفلسطين ومصر (٦٣٣ - ٤٢) . وقد كانت منذ ذلك الحين عاصمة اكبر بكثير مما يلزم لمساحة الامبراطورية الصغيرة . وقد زاد العبء ضغطا منذ خسارة قلب اسية الصغرى في سنة ١٠٧١ وما تلاها . واجزاء الامبراطورية التي وصلت اليها يد الامبراطور الفرنسي (١٢٠٤) كانت عاجزة بالمرة عن الحفاظ على القسطنطينية . ومن سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١ كانت هذه المدينة فراشا من الشوك للاباطرة الفرنسيين الذين جلسوا هناك في تلك المدة - من اولها الى آخرها .

وفي مقابل ذلك اظهرت الدول اليونانية المحلية الوريثة للامبراطورية حيوية اكبر من الحيوية التي اظهرتها الامبراطورية بالذات منذ وفاة باسيل الثاني (١٠٢٥) . فالدولتان اليونانيتان في شمال غرب اسية الصغرى وفي ابيروس كانتا في منافسة فيما بينهما . وكذلك مع الفرنجة . وكانت الدولة الاسيوية هي الرابحة ضد منافسيها من الفرنجة واليونان على السواء . (والامبراطورية اليونانية البعيدة في طرابزون لم تدخل حلبة النزاع .) كانت دعوى

الدولة اليونانية في غرب اسية الصغرى انها هي الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية الشرقية. واتخذ حاكمها اللقب الامبراطوري. واعترف له بالشرعية بطريرك القسطنطينية الارثوذكسي. الذي اتخذ نيقيه مركزا موقتا له. والتي كانت عاصمة الامبراطور اللاجىء. والامبراطورية الرومانية الشرقية النيقية (اي التي كانت نيقية عاصمة لها) كانت اكثر نجاحا في مجابهة سلطنة السلاجقة الرومية من الامبراطورية الرومانية الشرقية القسطنطينية بين سنتي ١٠٩١ و ١١٨٠. فقد وسعت امبراطورية نيقية حدودها شرقا وجنوبا على حساب سلطنة الروم. وقد ازدهرت اقتصاديا وميزت نفسها في ميداني الادب والفن المنظور. وفي سنة ١٢٣٥ احتل امبراطور نيقية يوحنا الثالث (فاتاتزس) مركزا في اوروبة بانتزاعه موطئا بندقيا في غليبولي. في سنة ١٢٣٤ عقد يوحنا محالفة مع البلغار. وفي سنة ١٢٣٥ حاصر يونانيو نيقية بالاشتراك مع البلغار القسطنطينية من جهة البر. ومنذ تلك السنة اصبحت امبراطورية القسطنطينية الفرسية تحيط بها امبراطورية نيقية اليونانية. واصبح طريق المواصلات الوحيد بين القسطنطينية الفرنجية والمسيحية الغربية هو الطريق البحري. والذين يمكن ان يهبوا لمساعدتها من الفرنجة كان عليهم ان يجبهوا الدردنيل (وكان شاطآه الآن في ايدي اليونان النيقيين).

لما حلت سنة ١٢٣٧ كانت البلاد الارثوذكسية الشرقية في جنوب شرق اوروبة في دور التقدم. فالامبراطورية البلغارية المجددة وامبراطورية نيقية اليونانية. كانتا قد اثبتتا انهما اكبر من مجرد قوة مماثلة للامبراطورية الفرنسية في القسطنطينية. وصربيا التي كانت من قبل على هامش المسيحية الشرقية الارثوذكسية. وكانت – في المجال الديني – تتناوبها الكنيستان الشرقية الارثوذكسية والرومانية. اختارت الآن الارثوذكسية الشرقية نهائيا. والحكومة الامبراطورية اليونانية في نيقية اعترفت ببطريكية بلغاريا المجددة وانشأت رئاسة اسقفية مع سيادة ذاتية لصربيا. ومع ذلك فان جماع الدول الارثوذكسية في جنوب شرق اوروبة مع تلك القائمة في القفقاس كانت روسيا تتجاوزها مساحة وحجم سكان. واصبح اليونان والبلغار والكرج (الجورجيون) تتحداهم روسيا حتى في ميادين العمارة والفن المتطور والادب.

ان تاريخ روسيا الديني (من الناحية الادارية) للفترة التي تمتد خمسين سنة بعد اعتناقها المسيحية غامض. وثمة خلاف حول تفسير الدلالة التاريخية. لكن يبدو انه اعتبارا من سنة ١٠٣٩. على اي حال. كانت روسية مطرانية (اسقفية) تابعة للكرسي

البطريركي في القسطنطينية . وضم روسيا الى الكرسي القسطنطيني وسع منطقة نفوذه بشكل كبير . فروسيا كانت واسعة . وكانت تتوسع شمالا في شرق . في سنة ١١٦٩ نقلت عاصمة امير روسيا من كييف (القائمة على الدنيبر) الى فلاديمير الواقعة على كياسما . رافد من روافد الفولغا .

كان الكرج (الجورجيون) والانجاز والالان من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية . لكنهم حافظوا على استقلالهم لما اخضع ابناء دينهم من اليونان جيرانَهم الارمن من اليعاقبة الكرجيين في النصف الاول من القرن الحادي عشر . ولم تشترك جورجيا في نكبة الامبراطورية الرومانية الشرقية سنة ١٠٧١ . وقد صمدت لهجمات السلاجقة . وفي القرن الثاني عشر اقتسمت ارمينيا مع الدول التي كانت وريثة الامبراطورية السلجوقية العابرة . وفي حكم الملكة تمر (١١٨٤ - ١٢١٢) كانت الممتلكات الخاضعة لجورجيا - مباشرة او غير مباشرة - تمتد من ساحل البحر الاسود الى ساحل بحر قزوين القفقاسي .

وقد كان لخروج المغول من السهوب الاوراسية اثار مختلفة على الاجزاء المتباينة من عالم بزنطية . وكانت جورجيا اول بلد ارثوذكسي شرقي يلحق به الضر . فقد انزل بها الدمار الامير الخوارزمي الفار جلال الدين (١٢٢٥) والمغول انفسهم (١٢٣٦) . وفرض هؤلاء سلطتهم عليها . ومر التخريب المغولي بروسيا (١٢٣٧) اثناء سير المغول بطريق بلغار الفولغا الى اوروبة . ثم ثانية لما نهبوا كييف (١٢٤٠) . وقد فرضت السيطرة المغولية على الولايات الروسية الشرقية القصوى . لكن غاليسيا (في الجنوب الغربي) وبسكوف ونوفغورود في الشمال الغربي حافظت على استقلالها . وبدأت نوفغورود تدور حول الامبراطورية وممتلكاتها الروسية اذ اخذت تتوسع . شماليا . الى الشرق عبر جبال اورال . وقد افادت امبراطورية نيقية اليونانية بسبب انتصار المغول على سلطنة الروم السلجوقية (١٢٤٣) واخضاعها لحكمهم .

ان نكبات الامبراطورية الرومانية الشرقية (١١٨٠ - ١٢٠٤) ونكبة روسيا (١٢٣٧ - ٤٠) لم تنكب المدنية البزنطية عن التقدم ولم تمنعها من الانتشار . فقد ربطت صربيا نفسها بالمسيحية الشرقية الارثوذكسية عن طريق بناء كنائسها على الاسلوب البزنطي . وكذلك كانت رسومها الجدرانية . والكنائس التي بنيت في فلاديمير وسزدال في القرن الثاني عشر كانت فيها خصائص ارمنية وكرجية (جيورجية) الى جانب الخصائص اليونانية . وكان نيكِتاس كونياتس . الذي خلف وصفه الحي لنهب

القسطنطينية (١٢٠٤) آخر حلقة في سلسلة المؤرخين الذين دونوا ، بشكل مستمر ، التاريخ الروماني الشرقي من ٩٥٩ - ١٢٠٤ . والفيلسوف ميخائيل بسيلّوس (٩٧٦ - ١٠٧٧) كان يدون حقائقه وتواريخه بشيء من التهاون اكثر من سلفه ليو دياكونوس ، لكنه كان دقيقا في تحليله للشخصية . وقد كان هؤلاء اليونان البزنطيون يكتبون بالكويني الاتيكية ، لكن تاريخ المسيحية الشرقية الارثوذكسية لم يدون باللغة اليونانية وحدها خلال تلك السنين . فالاخبار الرئيس الروسي دون بالصقلبية المقدونية في وقت مبكر من القرن الثاني عشر ، لما كانت هذه بعد لغة حية .

ان براعم المدنية المسيحية الغربية تفتحت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر. وتفتقت عن طاقة وحيوية متعاظمتين خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. لكنها اصابها بعض التوقف في الربع الاول من القرن الرابع عشر. فالتفجر السكاني الذي بدأ في المسيحية الغربية في القرن الحادي عشر توقف ثم تراجع امام نكبة الموت الاسود (١٣٤٨). واستعادة اليونان للقسطنطينية (١٢٦١) واسترجاع العرب المسلمين لعكا(١٢٩١) وضعا حداً للمحاولة التي قامت بها المسيحية الغربية للتدخل في امور المشرق بالقوة. وهي التي بدأت في الحملة الصليبية الاولى. وسيادة البابا على المسيحية الغربية التي كان البابا غريغوريوس السابع قد فتح لهاالباب، قضي عليها. ولو موقتا. لما اعتدى عملاء التاج الفرنسي على البابا بونيفاس الثامن (١٣٠٣).

وقد تميز عصر ازدهار المسيحية الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر باعمال ضخمة. منها السيء والحسن. فما يدخل في عداد الجرائم العامة الغربية احتلال ونهب القسطنطينية الارثوذكسية الشرقية (١٢٠٤) ولَنْغِدوك (١٢٠٨ - ٢٩)؛ واحتلال وتملك بلاد الصقالبة على شواطىء البلطق الجنوبية. الامر الذي تم خلال القرن الثاني عشر؛ ومنها حروب البابوية المريرة ضد فردريك الثاني وخلفائه. ومع ذلك فان هذين القرنين بالذات لمعت فيهما حياة اربعة من اعاظم الرجال: قديس هو فرنسيس الاسيزي (١١٨٢ - ١٢٢٦). وفيلسوف هو توما الأكويني (حول ١٢٢٥ - ٧٤). وشاعر هو دانتي الآليغيري في فلورنسا (١٢٦٥ - ١٣٢١). ورسام هو جوتو بوندوني من ريف فلورنسا (١٢٦٧ - ١٣٣٧). وكان هؤلاء الاربعة ايطاليين. ولكن النحت الغربي بلغ ذروة الاتقان في فرنسة في القرن الثالث عشر. واسلوب البناء الغربي المعروف بالقوطي نماذجه الفخمة لا تزال قائمة على جانبي جبال الالب. وهي التي تعبر احسن تعبير عن المثل المسيحية الغربية احسن تعبير. وهذا الاسلوب في العمارة جاء الغرب في القرن الثاني عشر عن سلاجقة الروم في اسية الصغرى.

والغالب من اجمل ما بني على الاسلوب القوطي – وهي كاتدرائيات مخططة على الخان السلجوقي – موجود شمالي الالب . وليس في الامر غرابة . فان ايطالية . رغم ما مر بها من البلاء في القرن السادس . لم تتعرض الى انقطاع عن ماضيها اليوناني – الروماني . على نحو ما اصاب اجزاء اخرى من المسيحية الغربية . ومن ثم فان اسلوب البناء الرومانسي كان اعمق جذورا . ولم يكن التخلي عنه امرا يسيرا . يضاف الى ذلك انه كان . في رافنا وفي البندقية . اللتين كانتا من قبل مراكز حدية للامبراطورية الرومانية الشرقية . كنائس بناها مهندسون على الاسلوب البزنطي . فكنيسة القديس مرقس الحالية . التي انتهى العمل فيها سنة ١٠٧١ . مصممة على غرار كنيسة الرسل الاقدسين في القسطنطينية . وانه مما يدعو الى الدهشة ان قصر الدوج المجاور لها قد اعيد بناؤه على الاسلوب القوطي . ومما يدعو الى الاستغراب ايضا هو ان يقطع جيوتو صلته بالتقليد البزنطي . ويصبح اب الاسلوب الطبيعي في الرسم في الغرب الحديث .

كان اعتماد دانتي على الوزن الشعري التوسقاني بدل الوزن اللاتيني في كتابة «الكوميدية الالهية» حدثا هاما بالنسبة الى ما اوحي به من الشعر وكتابته في اللغات المحكية في العالم الغربي . كان دانتي يعي انه في عمله هذا كان يسير في خطى شعراء سابقين من شمالي الالب . الا انه بالنسبة الى توسقاني بالذات (اي دانتي) فان التحرر من قيود اللغة والادب اللاتنيين كان اصعب منه لدى شعراء ولدوا اصلا في فرنسية او في جرمانية . كان من الممكن ان يظل الايطاليون . من اهل القرون الوسطى . اسرى اللاتينية لغة الاجداد . ولعله كان من الممكن ان يهتدوا الى حل وسط فيكتبون الشعر اللاتيني الجدي باوزان الشعر الشعبي المعاصر واسلوبه . ولكن ايطاليي القرون الوسطى . بتحررهم من استرقاق لغوي للماضي اليوناني – الروماني بلغوا من النجاح حدا يفوق معاصريهم اليونان (في الامبراطورية الشرقية) ؛ وجرأتهم هذه اتاحت لقدرتهم الخلاقة على العمل الحر . وقد خلقت ايطالية . في عصر دانتي . صيغة اقليمية مبكرة للمدنية الغربية . وقد احتاجت المسيحية الغربية . في بقية اجزائها . قرنين من الزمان قبل الوصول الى المستوى الحضاري الذي بلغته ايطالية سنة ١٣٠٠ .

وخلال القرنين المنتهيين سنة ١٣٠٠ كانت المسيحية الغربية باجمعها تتقدم اقتصاديا . فعدد السكان ازداد . والانتاج نما والتكنولوجية زادت فعاليتها .

ودلائل ازدياد السكان في الغرب ماثلة في توسيع رقعة الارض المستغلة زراعيا .

وفي ازدياد عدد المدن واتساعها وفي استعمار البلاد . وتواريخ بناء الاسوار دليل على اتساع رقعة المدن . في حالات كثيرة نجد ان السور الذي بني حول سنة ١١٠٠ بني آخر بدلا منه . بين حول ١٢٥٠ و ١٣٥٠ . وكان يدور برقعة اوسع . وكانت شمال ايطالية وفلاندر اكثر المناطق مدنا على وجه البسيطة .

وقد سارت فلاندر قدما في صناعة الأقمشة الصوفية خلال القرن الثاني عشر . ولم تستطع فلورنسة من مجاراتها الا حول نهاية القرن الثالث عشر . وقد كان لفلاندر حظ الحصول على المواد الخام من الجيران – في الاراضي المنخفضة نفسها وفي انكلترا . والمدن الايطالية . وخاصة المدن الساحلية . كانت لها فرصة القيام بالتجارة البحرية بين المسيحية الغربية والمشرق . وكان اصحاب الاعمال . من ايطالية وفلاندر . يلتقون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . في الاسواق السنوية الاربع التي كانت تقام في فرنسة .

وازدياد عدد السكان كان . مع قيام المدن واستعمار شواطىء البلطق . عاملا في تبديل التركيبة الاجتماعية للحياة الريفية . في القرنين التاسع والعاشر كان انعدام الامن سببا في نمو الاملاك الواسعة على حساب الممتلكات الصغيرة . وكان ثمة نقص في عدد السكان . ولذلك كانت «القطيعة» تستغل عن طريق تأجير اجزاء منها . على شرط ان يقضي المستأجرون اياما معينة في الاسبوع على «أرض السيد» . وهي الارض التي كانت غلتها للسيد نفسه . وما دام ثمة نقص في الايدي العاملة فان هذه الطريقة كانت الافضل لضمان استغلال الارض . الا ان هذا النظام كان غير فعال اقتصاديا ومجحفا اجتماعيا .

فالرقيق او القن يقوم بالعمل على الحد الادنى اذا قورن بالعامل المأجور . ومن ثم فانه لما ازداد عدد السكان سُرَّ سادة القطائع . لانهم اصبحوا يستخدمون عمالا مأجورين بدل العمال الخادمين (على الأرض) كما ان الاقنان وجدوا ان العمل باجر اكرم من العمل السخرة . يضاف الى ذلك ان الاقنان الذين لم تبدل خدماتهم . كان بامكانهم الهرب الى مدينة حيث كانوا يحصلون على عمل صناعي . او كانوا يهربون الى المناطق المعدة للاستغلال شرقي نهر الالبه (كانت هذه اصلا ارضا تمتلك حرة . مع انها اصبحت . فيما بعد . آخر قلعة اوروبية للاقطاع ونظام الاقنان) .

واستعمار منطقة البلطق كان ريفياً ومدنياً في آن واحد . كانت اول مدينة المانية على شاطىء البلطق هي لوبك التي اسست في ١١٤٣ .

واسست دانزغ حول ١٢٠٠ وريغا ١٢٠١ وريغال ١٢١٩ . وقد اصبح البلطق بحراً المانيا وخلفيته التجارية هي اسكندنافيا وروسيا . وفي القرن الثالث عشر اصبحت الشعوب الاسكندنافية . التي كانت مصدر ذعر للمسيحية الغربية . فريسة للمدن – الدول البحرية الالمانية . على ما نحو ما كانت المدن الايطالية عنصر ازعاج للمسلمين واليونان . وكان البلطق في طريقه لأن يكون الجزء المقابل للبحر المتوسط . ولكن على مقياس اصغر. وفي مدى القرن (بين ١٢٥٠ و ١٣٥٠) كانت مدن فلاندر تستورد حبوبها من حوض البلطق بدلا من المانية وفرنسة.

وقد خفف من ضغط السكان على الارض التقدم في التكنولوجيا . فمع ان اتساع الاراضي المستغلة زراعيا ادى الى نقص في الزبل – السماد . فان تنظيم الدورة الزراعية جعل الانتاج عن طريق تعاقب المزروعات افضل . كما انه قلل المساحة التي كانت تترك بورا . وجعل مواعيد الحرث والزرع اضبط . والمحراث الذي يجره الحصان كان قد اتقن صنعا في ١٢٠٠ . وزاد عدد الطواحين المائية في الغرب المسيحي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كما انه بدىء بتركيب الطواحين الهوائية هناك بين حول ١١٦٢ و ١١٨٠ .

ان المعادن . على العكس من الهواء والماء وقوة العضلات . هي مواد لا يمكن ان تعوض . وقد استهلك المصدر الواحد للمعادن بعد الآخر منذ ان عرف الانسان التعدين في الالف الرابع قبل الميلاد. في القرن العاشر للميلاد اصبحت المانية وبوهيميا المصدر الرئيس للمعادن بالنسبة للمسيحية الغربية . ولكن في القرن الرابع عشر كانت الطبقات السطحية والمناجم القريبة من السطح قد استنزفت . واصبح من الضروري ان يلجأ الى وسائل اكثر تعقيدا واساليب اكبر نفقة وتقنية للوصول الى الطبقات الاعمق من المناجم.

إن الحياة السياسية في المسيحية الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر طغى عليها عودة النزاع بين البابوية والامبراطورية . في الجولة الاولى من هذا النزاع . التي انتهت سنة ١١٢٢ . بالاتفاق حول قضية التنصيب . غطيت سياسة القوة بالمبادىء الخلقية . وفي الجولة الثانية (١١٥٨ – ١٢٦٨) ظهرت سياسة القوة عارية تماما وبدت منافسة بين البابوية والامبراطورية الغربية التي بعثت من جديد – وكانت المنافسة حول السيطرة على ايطالية . التي اصبحت الآن المنطقة – المفتاح للمسيحية الغربية . والرابحان كانا المدن الايطالية وفرنسة . والامبراطورية والبابوية كانتا كلتاهما خاسرتين.

إن الامبراطور فردريك الاول (من اسرة هوهنشتاوفن) جرب ان يفرض حكما

اوتوقراطيا على المدن- الدول اللومبارديا. وفشل (١١٥٨- ٨٣). وقد ناصرت البابوية المدن- الدول ضد الامبراطورية في صراعها للاستقلال. لان المدن- الدول كانت الستار البري للبابوية ضد السلطة الامبراطورية في شمال الالب. ومن ثم فقد تسامحت البابوية مع المدن- الدول في حكمها الذاتي. لا في لومبارديا وتوسقانيا فحسب. بل وفي الممتلكات الايطالية التي كانت منحت للبابوية على يدبيبين الثالث وشارلمان. وقد كان الهدف الابعد للبابوبة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر هو الهيمنة المسكونية على المسيحية جمعاء. وقد جعل هذا المطمح البابويفوق كل دعاوى البابوبة في السلطة المحلية. ولذلك فان البابوبة لم تتسامح في الحكم الذاتي للمدن- الدول في منطقة رافنا (التي كانت تابعة للامبراطورية الشرقية) فحسب. ولكن حتى في دوقية رومة. بما في ذلك رومة بالذات. يضاف الى ذلك ان البابوبة شاركت بعض المدن- الدول الايطالية ماليا وسياسيا. وقد كانت مصارف فلورنسة (١٢٥٠- ١٣٠٠) تقوم بجمع الضرائب البابوبة نيابة عن المؤسسة نفسها.

كان للبابوية حليف آخر هو فرنسة. التي كانت مصلحتها تقضي بان تضعف سلطة الامبراطورية. وفي فترة النزاع بين البابوية والامبراطورية كان البابا الواحد بعد الآخر يجد ملجأ في فرنسة. من اوربان الثاني (١٠٨٨- ٩٩) الى انوسنت الرابع (١٢٤٣ - ٥٤). كان فردريك الاول قد فشل في السيطرة على المدن- الدول الايطالية فجاء ابنهوخليفته هنري السادس يعوض عن ذلك باستيلائه على مملكة الصقليتين. وبهذا تمكنت اسرة هوهِنْشتاوفِن بان تحصر البابوبة والمدن- الدول في شمال ايطالية بين المانية ومملكة الصقليتين. وقد كان فردريك الثاني عبقريا: إذ انه كان يقدر على الاسهام في الحضارة الغربية واليونانية. التي كانت في مملكة الصقليتين. كما كان يشارك في الصيغة الايطالية للثقافة الغربية . لكن عبقرية فردريك تحطمت على صخرة العداء الذي اثاره ووفاته المبكرة.

وكان رد البابوبة على عمل فردريك للاستيلاء على ايطالية ان شنت حرب ابادة ضد اسرة هوهنشتاوفن. وقد نجح اوربان الرابع (١٢٦١- ٤) وكلمنت الرابع (١٢٦٥- ٨) في ذلك. وقدنجحا لانهما اقنعا اميرا فرنسيا- هو شارل انجو- بانتزاع مملكة الصقليتين من خلفاء فردريك. ولكن البابوبة اذ قضت على قوة زمنية واحدة. وضعت نفسها تحت رحمة قوة زمنية اخرى. في سنة ١٣٠٣ وضع التاج الفرنسي حدا للهيمنة البابوبة على

المسيحية الغربية. كما قضت البابوبة من قبل على مكانة الامبراطورية مستعينة على ذلك بفرنسة.

وقد اضاعت الامبراطورية. بسبب هذا النزاع الطويل الخاسر للسيطرة على ايطالية. سلطتها على المانية. التي كانت موطن الامبراطورية. في القرنين العاشر والحادي عشر كانت سلطة التاج الجرماني اكثر فاعلية بين رعاياه من سلطة التاج الافرنسي بين رعاياه. وفي سنة ١٣٠٣ كان فيليب الرابع في وضع يمكنه من الحصول على تأييد النبلاء في مملكته. الدينيين والمدنيين على السواء. في رفضه حجة البابوبة في رغبتها في الهيمنة، التي كان يقول بها بونيفاس الثامن. وكان نبلاء المانية في ذلك الوقت قد اصبحوا حكاما ذوي سيادة وكانوا يرفضون الخضوع للامبراطور.

ومؤسسة الاقطاع وتاريخها الاقليمي تظهر مدى تقدم سلطة التاج في فرنسة وتدهورها في المانية. فالاقطاع. مثل القنية (نسبة الى القن). هو صلة اجتماعية اساسها ان منح استغلال الارض يدفع بدله خدمة شخصية (فالخدمات الاقطاعية عسكرية. اما خدمة القن فهي اقتصادية). فمنح التصرف الاقطاعي معناه ان السلطان ينقص حقه في السيادة لانه يعقد اتفاقية مع احد رعاياه. بدل الحصول على حقوق السلطان كاملة. واذا اصبح التصرف الاقطاعي وراثيا. تصل خسارة السلطان حدها الاقصى. وقد ظهرت الاقطاعات الوراثية في فرنسة (فرنسية الغربية) منذ القرن التاسع. لكن منذ نهاية القرن العاشر اخذ التاج الفرنسي يسترجع سلطته. اما في فرنسية الشرقية (المانية) فقد تأخر الاقطاع الوراثي في الظهور. لكن في القرن الثالث عشر كانت العملية تسير بخطى مسرعة. وكان السبب هو اصرار التاج الالماني. ولكن دون نجاح. في ان يفرض سلطته على مملكة ايطالية. واذ سار نحو هدف كان بعيدا عليه. خسر التاج الالماني سيطرته على موطن الامبراطورية. لقد كان التاج الامبراطوري عبئا اضافيا. وكان هذا كابوسا لم يدع التاج الفرنسي الى الاضطلاع به.

وقد خسر الفريقان المتنازعان. الامبراطورية والبابوبة. السلطة. وكانت خسارة الامبراطورية سياسية؛ واما خسارة البابوبة فكانت ادبية– إلا ان هذه الخسارة الادبية رافقتها خسارة سياسية ايضا. ذلك بان البابوبة. منذ ايام غريغوريوس السابع. جربت ان تنفذ الى السلطة السياسية بطريقة غير مباشرة. اعتماداً على مكانتها الادبية التي انعشت من جديد. وهذا الخلل الادبي في مثالية الهيمنة البابوبة على المسيحية الغربية بدا واضحا في

الطريقة التي قادت البابوبة بها حملتها ضد الامبراطورية.

كانت البابوبة بحاجة الى المال لمحاربة الامبراطورية. وقد اوجدت وسائل مجحفه لجمع المال. فقد اقامت جهازا اداريا فعالا لفرض الضرائب على رجال الدين في المسيحية الغربية باجمعها. وقد كان هذا المصدر دارا للارباح بحيث ان اصحاب النفوذ من السلاطين المدنيين اقتطعوا لهم حصة من هذه الارباح. فيما وجد اصحاب المصارف الايطاليون ان الامر مربح بحيث اصبحوا وكلاء البابوبة الماليين. وكان ثمة مصدر آخر للضرائب البابوبة وهو الرسوم التي كانت الكوريا تتقاضاها بوصفها المحكمة الاستئنائية العليا. وكذلك بوصفها محكمة من الدرجة الاولى في القضايا التي كان المحامون الكنسيون ينقلونها اليها. واكتشاف مدونة جستنيان الاول القانونية. ادى الى وضع ما يقابلها من مجموعة للقوانين الكنيسة. ولما اصر فردريك الاول على حقوقه الملكية بوصفه خليفة لجستنيان. قاومه اثنان من الباباوات هما اسكندر الثالث (١١٥٩- ٨١) ولوسيوس الثالث (١١٨١ - ٥). وكلاهما بدأ حياته كمحام كنسي.

وقد اذهل نهم البابوبة للسلطة. واستخدامها المال والقانون وسيلتين لتحقيق هدفها. اصفى ارواح عرفتها المسيحية الغربية. فالقديس برنارد رئيس دير كليرفو احتج ضد تزمت البابوبة القانوني وضد جشعها. ولم يكن برنارد نفسه خاليا من العيوب. فقد كان يضيق ذرعا بالتحرر الديني حيث كان- لا فرق في ذلك بين الفيلسوف ابلارد ونساك لانغدوك وصقالية البلطق او مسلمي الشرق. وقد ورط نفسه بين المتنافسين على البابوبة. إلا انه لم يطلب لنفسه وظيفا دينيا. ولم يكن ثمة شك في اخلاصه. وقد كان نبيل المحتد إلا انه تخلى عن ذلك كله لينضم الى فرقة الرهبان السسترين وقد ضحى شخصيا في سبيل مبادئه. ومن اجل ذلك كان الاكثر احتراما والابعد نفوذا من ابناء جيله في المسيحية الغربية. فكان انتقاده للبابوبة بسبب خروجها عن السبيل الذي سنته مبادئها المعلنة. كان له سلطان وكان مؤذيا لها.

كان القديس برنارد يتقيد بالاراء الكنسية الصحيحة (الصحيحة بالنسبة للغرب لا بالنسبة للارثوذكسية الشرقية). وقد كان ثمة نقاد آخرون للبابوبة. في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. من الذين اتبعوا نماذج غريبة من المسيحية او حتى نماذج غير مسيحية. وزعماء هذه الحركات. المحتجة ضد البابوبة. تضامنوا فيما بينهم على التطوع نحو الفقر- وهو عمل تطوعي لان هؤلاء لم يكونوا فقراء المولد. فهم. مثل القديس برنارد. كانوا

يضحون شخصيا للاحتجاج على مادية البابوبة واهتمامها بامور الدنيا. واحتجاجا على «مؤسسة رجال الدين» المسيحيين اجمالا.

فالقديس فرنسيس الاسيزي، وهو ابن تاجر اقمشة كبير ناجح، تحدى اباه والتزم بالفقر، وعاش كما عاش السيد المسيح، على ما جاء في الاناجيل. ولما طلب منه تلميذه برنارد (كونتفال) ان ينضم اليه ويعيش مثله، سر بذلك. إلا ان فرنسيس كان متواضعا بالاضافة الى التزامه بالفقر. ولم يكن فرنسيس يفكر في انتقاد البابوبة او تزعم حركة ضدها. كل همه كان ان يسير سيرة المسيح. على ان هذا لم ينقذه من ان يُعَدَّ مع خصومها، لأن التزامه بالفقر كان نقدا عمليا للبابوبة. وقد تنبه البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) والبابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ - ٤١) الى الوضع المشين الذي وجدت الكوريا (البابوية) نفسها فيه بسبب تصرف فرنسيس. وقد احسا، والالم يحز نفسيهما، بالصوت الكبير الذي كان ينتقد الكوريا في انحاء المسيحية. لذلك ارادا ان يفيدا من القديس فرنسيس بدل ان يقضيا عليه. وكان عملهما يدل على ذكاء. لكن الباعث عليه لم يكن خاليا من الدافع الشخصي المصلحي.

لعلّ القديس فرنسيس كان يفضل ان يستشهد في جولته الاولى مع الكوريا، ولا يرى الرهبنة الفرنسيسكانية تصاغ (على يد غريغوريوس، وهو كردينال بعد، والاخ الياس) على شكل لم يعد كما اراده المؤسس. وعلى كل فان فرنسيس كان ملتزما بالفقر والتواضع والالم، النفسي والجسدي، ولذلك فان هذه الرهبنة لا تزال قائمة الى الآن ولا تزال المنظمة تعمل بروح فرنسيس.

والواقع ان اضفاء التنظيم (اي جعل الشيء «مؤسسة») هو ثمن الاستمرار والبقاء. واضفاء «المؤسسة» على شيء له قيمة روحية عظيمة للاجيال التالية اقل شرا من خسارة الروحية فيه. وقد فهم غريغوريوس والياس ذلك وتحملا المسؤولية. وبذلك انقذا كنز فرنسيس.

وقد كانت طريق القديس دومينيك (١١٧٠ - ١٢٢١)، معاصر فرنسيس ومؤسس الرهبنة الدومينيكانية، اسهل. فقد التزم بالفقر، اذ انه كان يحارب الطمع مثل فرنسيس. إلا ان روح القديس دومينيك كانت اسرع قبولا لشكل «المؤسسة». وقد اغتنت المدن الناشئة في المسيحية الغربية روحيا بانشاء الاديرة الفرنسيسكانية والدومينيكانية والمكتبات وقاعات المحاضرات. ولو ان القديس فرنسيس كان يرى في كل هذا ما يعوق

السير على طريقة المسيح. ومع ان الاخ الياس احتفظ ببعض الثقة في عين فرنسيس، فانه كاد يكون له موقف آخر منه لو ان القديس كان رأى الاخ يجمع اموالا ليبني بها كنيسة تكريما للقديس فرنسيس.

القديس فرنسيس ادرك ما الذي يتوجب على مسيحي غربي ان يفعله. وغريغوريوس والياس عرفا ما الذي يجب ان يفعل بالرهبنة الفرنسيسكانية. ولكن في الجيل السابق للقديس فرنسيس تنبأ يواكيم الفيوري (١١٥٤- ١٢٠٢) (وهو نبيل انضم الى الرهبنة) بان السنة ١٢٦٠ ستكون حدا فاصلا في التاريخ. فعصر الابن خلف عصر الاب لما ولد المسيح؛ والآن جاء دور عصر الروح القدس ليَخلف عصر الابن. ومع ان تلك السنة كانت هامة في التاريخ اذ ادركت البابوبة انها لن تستطيع انتزاع مملكة الصقليتين من فردريك الثاني بدون عون عسكري من فرنسة، لكن عصر الروح القدس لم ينبثق فجره.

وقد احدث قيام المدن والثراء غربة في الانسان نحو امه الارض، وهاتان العلتان اخذتا تنتشران في المسيحية الغربية ايام القديس فرنسيس. والاجيال التالية له كانت مدينة له لا لأنه التزم بالفقر فحسب، بل لانه كان يشعر داخليا بالحب لكل مخلوق حي، للنبات والحيوان والطير. وقد بدا هذا في تصرفه، كما بدا فيما خلف من تراث!

٦٧-آسية الشرقية ١١٢٦-١٢٨١

كان سقوط امبراطورية سونغ العسكري (١١٢٦) شائنا . فقد احتل الجورشيد حوض النهر الاصفر (وهو مهد المدنية الصينية) واستولوا على العاصمة (كايفونغ) . وقد انقذ ما تبقى من الامبراطورية مجاري الماء المتعددة في المجاري الدنيا لنهري هواي ويانكتسي والجبال الوعرة خلف ذلك . والعاصمة الجديدة لين - أن كانت ملجأ موقتا ، لكنها ظلت عاصمة ما تبقى من امبراطورية سونغ .

وفي الجزء الجنوبي من الامبراطورية ، الذي حفظته اسرة سونغ من ١١٢٧ - ١٢٧٩ اصبحت لين - أن احدى اكبر واجمل واوقع في النفس من مدن الاويكومين . وكانت بقية الامبراطورية تتمتع بازدياد في السكان وزيادة في الانتاج الزراعي وتمصير المدن والتجارة (الخارجية والداخلية) والتسهيلات المالية . وقد استخدم النقد الورقي في السوق - اولا على ايدي الخاصة ، ثم من قبل الحكومة نفسها . وقد اشرنا الى تقدم الفنون والصناعات الصينية ايام اسرة سونغ (الفصل ٥٩) . وقد كانت هذه الامبراطورية المجزوءة ، خلال المدة من ١١٢٧ الى ١٢٧٩ ، اكثر عدد سكان ، واكبر ثراء ، من امبراطورتي الهان وتانغ ، لما كانت الامبراطورية في اكبر اتساع وقوتها العسكرية على اشدها . الا ان وضع المرأة تأخر في اواخر عصر سونغ . فوضع رجل البنت في قالب من المعدن ، بدأ في ذلك الوقت .

ولم توقف نكبة ١١٢٦ تقدم الفلسفة الكونفوشية الحديثة . وكان على الكونفوشيين الحديثين ، اذا رغبوا في ان يكونوا بديلا عن الماهايانية ، ان يدخلوا عالم ما وراء الطبيعة ، وهنا افترق الاخوان تشنغ . فتشنغ لي كان يرى ان الطبيعة البشرية هي ظاهرة واحدة من الظواهر الغريبة للحقيقية النهائية . وتشنغ هاو كان يرى ان الطبيعة البشرية والحقيقة النهائية هما توأمان . وقد تبنى تشوهسي (١١٣٠ - ١٢٠٠) تشنغ لي ونظم مذهبه ، وبسبب هذا التنظيم اصبح الصيغة الرسمية للكونفوشية بالنسبة الى طلاب الوظائف

والممتحنين. وتولى ليو تشيو – يوان (١١٣٩ – ٩٣) مذهب تشنغ هاو. وهذا المذهب ظل له ممثلوه. اما ما اتفق عليه الكونفوشيون الحديثون فكان بالغ الاهمية: كانوا جميعا، خصوماً للطاوية والبوذية؛ وشعر الجميع ان الاخلاق اكبر اهمية من ما وراء الطبيعة؛ والكل انتقدوا انسحاب عقلاء البوذية من المجتمع.

وقد شهدت اليابان (٩٣٥ – ١١٨٥) انتقالا مستمرا في السلطة والثروة من البلاط الامبراطوري الفخم في كيوتو الى النبلاء الاقليميين والانتقال من السلم الداخلي الى حروب واضطرابات اهلية. وحتى العاصمة نفسها كانت تزعجها هجمات مسلحة يقوم بها الرهبان البوذيون. وقد انتهت حرب اهلية هناك الى قيام دكتاتورية (١١٨٥) على البلاد باجمعها. وعلى كل فالفترة باكملها كانت، من الناحية السياسية فترة اضطراب وثورات وحروب. لكن قيام الدكتاتورية (١١٨٥) ادى الى حكم فعال ناجح، استمر الى ١٢٨٤. فزاد دخلها القومي، ولو ان توزيعه ظل بعيدا عن المساواة. وقد هاجم المغول اليابان (١٢٧٤) وثانية (١٢٨١) بعد ما قضوا على امبراطورية سونغ. وفي المرتين رد اليابانيون، بمساعدة العواصف، الهجوم المغولي.

وقد قدمت هذه الحكومة لليابان خدمات مدنية جلى في الميدانين الديني والفكري. وقد قدمت البوذية الى اليابانيين (في القرنين الثاني عشر والثالث عشر) بشكل مبسط واضح. ومنها بوذية «زِنْ» التي اعجب بها الجنود. وقد كان لهذه المذاهب المبسطة اتباع في اليابان حتى في سبعينات القرن الحالي.

٦٨ - المغول وخلفاؤهم

كان المغول شعبا من البدو الرعاة يقيمون اصلا في الزاوية القصوى شمالا في شرق من السهوب الاوراسية . وفي القرن الثالث عشر خرجوا فجأة من السهوب . في ١٢٤١ وصلت جيوشهم غربا الى نهر الاودر وشاطىء الادرياتيكي الشمالي الشرقي . وفي ١٢٦٠ هاجموا سورية وفي ١٢٧٤ احتلوا بورما العليا . وهذه الفتوح التي حملتهم الى هذه الاصقاع النائية . خططت ونفذت تحت قيادة واحدة منذ ان تولّى تيموشين ١١٦٢ - ١٢٢٧ (الذي صار اسمه جنكيز خان اعتبارا من ١٢٠٦) السلطة حاكما مستقلا . الى وفاة حفيده وخليفته الثالث مُنْغِكِه (١٢٥٩) .

كان خان المغول الكبير يحكم . سنة ١٢٥٩ . رأسا او بالتفويض من عاصمته في قراقورم منطقة تمتد من شاطىء المحيط الهادي الشمالي الغربي الى منابع الفولغا ومجرى الدانوب الادنى . ومن بحيرة بايكال الى شمال فيتنام . وقد ضمت امبراطورية المغول فيما بعد ما تبقى من الصين خارج نفوذها .

وقد ظلت الوحدة السياسية مدة قصيرة (١٢٤١ - ١٢٥٩) . ولكن ادارتها كانت قوية في تلك المدة . وفي هذه الفترة جمعت الامبراطورية بين مدنيات اقليمية كانت تتطور كل لوحدها من قبل ، دون ان تعرف الواحدة بوجود الاخرى .

ومع ان شعوباً من الهون . بـدءاً من القرن الرابع للميلاد . كانت قد خرجت من السهوب وانشأت دولا هنا وهناك . فان امبراطورية المغول كانت المحاولة الوحيدة للهون التي ملكت هذه الرقعة الواسعة . التي كانت سهوبا تحيط بها . من جميع الجهات . بلاد متحضرة . وطوال هذه المدة (١٢٤١ - ٥٩) كانت تنتظم شؤون هذه الامبراطورية منظمة دقيقة هي البريد .

كان الغرض الاول من تنظيم البريد تسهيل حضور زعماء المغول الى العاصمة - قراقورم - على جناح السرعة . الا ان هذا التنظيم نفسه كان ييسر للامراء والرعايا واسرى

الحروب والمغامرين المتطوعين ، للحصول على عمل او وظيفة ، والتجار ان يتنقلوا في الامبراطورية . فملك كيليكيا (في ارمينية) زار قراقورم (١٢٥٤) وكان اخوه قد سبقه اليها (١٢٤٧ – ٨) . وعلى هذه الطرق سار الفرنسيسكاني جوفاني دي كاربيني من ليون الى قراقورم ذهابا وايابا (١٢٤٥ – ٧) ممثلا للبابا انوسنت الرابع . كما سار عليها وليام روبروك (١٢٥٣ – ٥) من عكا الى العاصمة المغولية ممثلا للويس التاسع ملك فرنسة . وكانت الفكرة من هاتين البعثتين احتمال قيام تحالف مغولي اوروبي مع امكانية اعتناق المغول المسيحية . لكن لم يكن لهذه المحاولات نتائج في اي من القضيتين (وفي نهاية المطاف اعتنق المغول الاسلام .)

وكان ثمة نتائج ثقافية لهذه الطرق التي كانت محروسة تماما . يصف وليام روبروك اجتماع المسيحيين في قراقورم في عيد الفصح (١٢٥٤) ، وقد جاءوا من اصقاع مختلفة ، وكانوا من كنائس متنوعة .

في سنة ١٢٧٩ اتم قوبلاي خان (حفيد جنكيز خان وخليفته الرابع) احتلال امبراطورية سونغ الصينية . والمغول لم يحكموا الصين بواسطة الموظفين الكونفوشيين ، بل استعملوا المسيحيين والمسلمين في اعمالهم . فمن ذلك ان عملاء قوبلاي خان في بدء فتحه للصين (١٢٥٣) كانوا مسلمين من اواسط اسية . وفي ١٢٧٤ كان نحو ثلاثين الفا من الالان ، وهم مسيحيون ارثوذكس ، يعملون في جيش قوبلاي خان . وقد عمل ماركوبولو مدبرا في الصين لقوبلاي خان (حول ١٢٧٥ – ٩٢) كما عمل السيد «أجَل» ، من ١٢٧٤ الى ١٢٧٩ ، اذ نظم ولاية يونان الجديدة . وقد وصل الاسلام الى يونان وشمال غرب الصين وبقي هناك . والفن الصيني اثر في الفن الايراني ، لما فتح المغول ايران (١٢٢٠ – ٥٧) .

كان جنود قوبلاي خان ، المسيحيون والمسلمون على السواء ، قد جيء بهم من اماكن نائية . لكن المغول كانوا يستخدمون القادرين من المناطق الاقرب . ذلك بان البدو الرعاة في الاطراف الشرقية للسهوب الاوراسية كانت على اتصال بالمدنية الصينية التي انتقلت اليهم عبر التيبت والخيتان . وكانت القبائل القاطنة في السهوب وجوارها تزحم الواحدة الاخرى فتدفعها الى الهجرة القريبة او البعيدة . وما قيام دولة الجورشيد بقيادة تيموتشين (١٢٠٣) الا مثلا على ذلك . وتيموتشين ، كما عرفنا من قبل ، هو جنكيزخان . وانتصارات جنكيزخان كان يرافقها الافادة من اصحاب المواهب مثل ضمه المسيحيين

النساطرة (بعد انتصاره عليهم) الى حظيرة ملكه. كما انه افاد من التجار المسلمين الذين كانوا في بلاده. وكان جنكيزخان يقبل النصيحة ويستشير دوما.

كان الاوغور شعبا تركيا انتقل من البداوة الى الاستقرار. وقد كان بينهم مانويون (منذ ٧٦٣) ونساطرة وبوذيون. وكانوا يستعملون الالفبا السريانية. التي كتبوا بها لغتهم التركية ودونوا بها الطقوس الدينية المانوية والمسيحية النسطورية. وقد عهد جنكيزخان الى حامل اختامه الاوغوري بان يقتبس الكتابة السريانية للغة المغولية. وذلك لتدوين القانون المغولي العرفي (الياسا).

اعان جنكيزخان في ادارته مهارة مستشاريه من الاوغور والخيتان والمسلمين. والفضائل العسكرية التي كان الجندي المغولي يتمتع بها. وشخصيته الطاغية ومقدرته الدقيقة في اختيار الرجال المحيطين به - للحرب والسلم. وكان حرسه الخاص (وبذلك يشبه حرس الاسكندر) نوعا من كلية للضباط. بحيث كان يختار منهم من خبره وعرفه شخصيا. فالنجاح السياسي والحربي الذي حققه جنكيزخان هو نتيجة شخصيته ومقدرته على التنظيم مع استعداد المغول للقتال والصبغة المدنية التي قبسوها من احتكاكهم بالجيران.

الحروب المغولية كان منها احتلال بغداد وسقوط الخلافة العباسية (١٢٥٨). والرعايا البدو الذين وقعوا تحت الحكم المغولي لم يصبهم ضر لا في انفسهم ولا مراعيهم. كل ما شعروا به هو تبدل في القيادة. لكن يد المغول على الجماعات المستقرة والمتحضرة كانت قوية. والخراب والقتل اللذان تما اثناء حروبهم لا مثيل لهما. وشرها تم في حملات جنكيزخان في دولة خوارزمشاه (١٢٢٠ - ٢١) وحملات باتو في الغرب (١٢٣١ - ٤١) وحملات هولاكو في العراق (١٢٥٨).

عجز المغول عن احتلال اليابان (١٢٧٤ و ١٢٨١) وتحطمت سفنهم لما حاولوا احتلال جاوى (١٢٩٢) كما تغلب عليهم المماليك في عين جالوت بفلسطين (١٢٦٠) كما صدوهم عن سورية ثلاث مرات اخرى (١٢٨١ و ١٩٩- ١٣٠٠ و ١٣٠٣). وقامت حروب اهلية بين شعوبهم (بين الايلخانات في ايران والعراق والقبيلة الذهبية). وقد تحالفت القبيلة الذهبية مع المماليك. وعندها صار التجار البنادقة يصدرون الى مصر الرقيق المتجمع من ممتلكات القبيلة الذهبية. على ان الحروب والخلافات بين الشعوب المغولية كانت كثيرة. وقد حكم المغول الصين منذ اتمام الاحتلال (١٢٧٩) حتى ١٣٦٨ - وقد

نقل قوبلاي خان عاصمته من قراقورم الى بكين ١٢٦٠ – ٧ (وبعد ذلك اتخذ لاسرته لقبا صينيا هو يُوَان) . ولكن المغول لم يفيدوا كثيراً من المدنية الصينية على عكس الخيتان . فلما سقطت اسرة يُوَان الصينية – المغولية (١٣٦٨) اجليت الفرق المغولية فاجتازت سور الصين الكبير مبتعدة عنه . الى مراعي الاجداد . دون ان تحمل معها مدنية صينية . اما الخيتان فانهم لما اصبحوا لاجئين في اواسط اسية حملوا معهم المدنية الصينية واقاموا هناك حكما اسلاميا دام نحو قرن من الزمان .

وقد تم في ايام المغول عمل بناء ضخم في الصين . فقد اتم قوبلاي خان (١٢٨٩) حفر القناة الكبرى الى الشمال من هانغشو (لين – ان) الى بكين . واثناء الحكم المغولي للصين اهمل الادب الكونفوشي الى حد ان نشأت تقاليد ادبية جديدة . في القصة والتمثيلية . واستعملت فيها اللغة الحية المعاصرة . ومع انّ الادب الكونفوشي عاد الى سابق مجده بعد اخراج المغول . فان النوعين الجديدين من الادب ظلا قائمين .

ان حكام الصين من المغول لم ترق لهم لا مدنية الصين ولا الصيغة الروسية للمدنية المسيحية الشرقية . اما المغول الذين اصبحوا سادة العراق وايران وزعماء القبيلة الذهبية (التركية اللغة) فقد اسرهم الاسلام – وهذا نوع من انتصار مدنية المغلوب المستقر على الغالب البدوي .

في النصف الثاني من القرن الرابع عشر تمكن رعايا القبيلة الذهبية وخانات تشاغاتاي من استعادة سلطانهم ضد حكامهم المغول . فاخراج المغول من الصين (١٣٦٨) سبقه القضاء على الايلخانيين في العراق وايران (١٣٣٥) والقضاء على احفاد باتو .
وقد اقام زومان الذين هاجروا من هنغاريا ولايتي ولاخيا وملدانيا . بعد ان ازاحوا حد القبيلة الذهبية الجنوبي الغربي من مجرى الدانوب الادنى الى الضفة الغربية لنهر الدنستر . وقد وصل لتوانيون من غابات البلطق الى ساحل البحر الاسود الشمالي مؤقتا . وفي سنة ١٣٨٦ اعتنقت لتوانيا المسيحية الغربية . واتحدت مع بولاندا . ولكن هذه الدولة الغربية الجديدة كانت مشغولة بوقف تعديات الفرسان التيوتون . لذلك لم تخلف القبيلة الذهبية .

في سنة ١٣٧١ جازف الامراء الروس وامتنعوا عن دفع الضرائب لخان القبيلة الذهبية والخضوع له . وكانت عاصمته في ساراي على الفولغا . وفي سنة ١٣٨٠ تغلب امير موسكو على الخان . لكن الخان الجديد رد الكيل كيلين (١٣٨١) ونهب موسكو .

ولذلك فان الروس لم يتمكنوا من تحرير انفسهم .

لكن الذي خلف القبيلة الذهبية وخانات تشاغاتاي كان تيمور التركي الذي كان يرعى السكان المتحضرين في ما وراء النهر من رعايا القبيلة الذهبية . حرر تيمور ما وراء النهر من خانات تشاغاتاي (١٣٦٢ - ٧) وفي ١٣٦٩ - ٨٠ وثم في ١٣٨٣ - ٤ اغار تيمور على البدو المقاتلين مع خانات تشاغاتاي وعاقبهم . وفي سنة ١٣٨٠ كان قد حرر خوارزم . وفي سنة ١٣٩١ ثم في ١٣٩٥ هاجم تيمور سهوب القِبتشاق . وفي الحملة الثانية هاجم روسيا . وكان تيمور اول زعيم لاقوام متحضرة مستقرة يهاجم النصف الغربي من السهوب الاوراسية في اطمئنان الظافر .

توفي تيمور سنة ١٤٠٥ وهو في طريقه الى الصين . ولو ان تيمور لم يصرف جل طاقته في حروب . صحبتها قسوة على النموذج المغولي . اكان بامكانه . في الغالب . ان يجمع اجزاء الامبراطورية المغولية ويحكمها من سمرقند . وفي القرن الخامس عشر جرب احفاد تيمور ان يعوضوا عن قسوة تيمور بان رعوا اهل القلم والفلكيين . الا انهم كانوا ضعيفين . حربيا وعسكريا . ويبدو واضحا ان خلافة المغول في املاكهم في قلب اويكومين العالم القديم . لم تقرر لا على يد تيمور ولا على خلافائه .

٦٩ - العالم الاسلامي ١٢٩١ - ١٥٥٥

في السنة ١٥٥٥ كان العالم الاسلامي اوسع رقعة عما كان عليه في ١٢٩١ . والقسم الاكبر منه كان الآن مقسما بين ثلاث امبراطوريات كبيرة : الدولة العثمانية (التركية) في المشرق . والامبراطورية الصوفية في ايران ، والامبراطورية التيمورية (المغولية) في الهند . وهذا . ولا شك . امر حري بالاهتمام اذا اعتبرنا المحن التي مرت بالعالم الاسلامي بين ١٢٢٠ (السنة التي هاجم فيها جنكيزخان ما وراء النهر) و ١٤٠٥ (وهي السنة التي توفي فيها تيمور) .

كان حكام شمال الهند المسلمون قد بدأوا يحتلون الدكن سنة ١٢٩٤ . وفي سنة ١٥٥٥ كانت كلها تحت حكم اسلامي . وفي الوقت ذاته كان جنوب شرق اوروبة . باستثناء جزء من هنغاريا . تحت حكم المسلمين . وهذا التوسعان تما حربا . ولم تعتنق اغلبية السكان في المنطقتين الاسلام . اما في قلب العالم الاسلامي فقد كان الاقبال على الاسلام كبيرا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . بحيث اصبح غير المسلمين في هذه المنطقة اقلية . وقد انتشر الاسلام في جهات اخرى عن طريق القبول به دينا . لا عن طريق الفتح .

فالنوبة . مثلا . التي كانت سنة ١٢٩١ قد مر عليها نحو ثمانية قرون وهي تتبع اليعاقبة (القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح) اعتنقت الاسلام تدريجا بسبب تسرب القبائل العربية من مصر اليها في القرن الرابع عشر وما تلاه . وحتى ان النوبيين الذين احتفظوا بلغتهم . اعتنقوا الاسلام . وكان الاسلام يقبل عليه الناس في السودان الغربي منذ القرن الحادي عشر وانتشر الاسلام في الملايو واندونوسيا . في القرن الخامس عشر ، سلما على نحو ما انتشرت الهندوكية والبوذية من قبل . وفي هذه المنطقة لم يحل الاسلام محل الحضارة الهندية تأثيرا . وهي التي كان لها حضور هناك منذ نحو الف سنة . لقد جاء الاسلام بعنصر حضاري جديد . والجماعات الاسلامية في يونان وقانصو في الصين . استمرت بعد زوال

الحكم المغولي العابر . الذي قامت في ايامه .

كانت اقدم الامبراطوريات التي توافقت زمنا سنة ١٥٥٥ الامبراطورية العثمانية . فقد كانت نواتها موجودة في ١٣٠٠ . وفي ١٣٥٣ ثبتت اقدامها في اوروبة . وفي سنة ١٤٠٢ كانت اكثر اقسام الامبراطورية الرومانية الشرقية (قبل ١٠٧١) قد اصبحت تحت حكم الدولة الناشئة . مباشرة او بالواسطة . ومع ان تيمور انزل بالعثمانيين هزيمة منكرة (١٤٠٢) فان السلطان محمد الاول (حكم ١٤٠٢ – ٢١) اعاد تجميع الاملاك الاوروبية والاسيوية . تحت حكمه . وقد ترك اثرا جميلا في بروصة هو الجامع الاخضر . ومحمد الفاتح (حكم ١٤٥١ – ٨١) وضع الامبراطورية ونظمها على اسس ثابتة . وقد غير سليم الاول (حكم ١٥١٢ – ٢٠) معالم الامبراطورية لما اتجه في فتوحه شرقا وجنوبا في شرق. فقد جعل من الامبراطورية العثمانية وريثة للمماليك والامبراطورية الرومانية الشرقية . وفي سنة ١٥٥٥ . ايام سليمان القانوني . وصلت الامبراطورية اوجها . وكانت لا تزال فيه .

وكان قيام الامبراطورية الصفوية (١٥٠٠ – ١٣) كالشهاب . وقد وصلت حدها الاقصى في الشمال الشرقي (١٥١٣) مقابل البدو الازبكيين الذين انتزعوا ما وراء النهر من التيموريين خلال القرن الخامس عشر . كانت الامبراطورية الصفوية خطرا على العثمانيين (١٥١١ – ١٤) . بحيث ان مؤسسها الشاه اسماعيل انذر العثمانيين بمعركة مثل معركة تيمور . لكن لما حصلت معركة شلدران (١٥١٤) كسر الفرس الى حد انهم كانوا (الى سنة ١٥٥٥) لا يزالون يحسون بالضربة . واحتل العثمانيون ديار بكر (١٥١٦) والعراق (١٥٣٤ – ٦) .

في السنة ١٥٥٥ احتل هومايون مملكة دلهي للمرة الثانية . التي كان ابوه بابور قد احتلها من قبل (١٥٢٦) . وكان قد عجز عن احتلال ما وراء النهر . كان بابور قد حالف اسماعيل (١٥١٢ – ١٣) لكن سليم الاول العثماني كان مصدر خوف لاسماعيل شاه . لذلك انسحب بابور الى كابول وانتظر فرصة لاحتلال الهند .

وقد كان قيام كل من هذه الامبراطوريات الثلاث شيئا غير عادي . فالدولة لا تقوم بدون زراع وصناع وتجار يدفعون لها الضرائب ولا بدون جيش مدرب موال لها . لكن العالم الاسلامي . منذ اواسط القرن الحادي عشر . وهو يتعرض لهجوم تلو الآخر يقوم به بدو رعاة . فشمال غرب افريقية والاندلس غزاهما بدو عرب وبربر ؛ والعراق والجزيرة

الفراتية دخلتهما قبائل عربية ايضا . والتركمان دخلوا ما وراء النهر وايران وارمينية واسية الصغرى . (وقد جاء التركمان في موجتين الاولى مع السلاجقة في القرن الحادي عشر . والثانية هربا من المغول في القرن الثالث عشر) . وقد ضعف الانتاج عند الجماعات المستقرة المتحضرة . كما نقص دفع الضرائب بسبب وجود هذه الجماعات البدوية ؛ ونقص الامران بسبب المصائب التي حلت بالعالم الاسلامي على ايدي المغول ثم على ايدي تيمور .

ولم يكن تيمور ولا جنوده بدوا رحلا . بل كانوا جماعة مستقرة . لكن تيمور تصرف بوحشية شبيهة بوحشية المغول . وجميع ضحاياه (باستثناء حملته على روسيا ١٣٩٥) كانــوا من المسـلمين : تشاغاتاي والقبيلة الذهبية . وبغداد (١٣٩٣) ودلهي (١٣٩٨ - ٩) وحلب ودمشق (١٤٠١) والممتلكات الاسيوية العثمانية (١٤٠٢) . كانت اعمال تيمور مخربة وسلبية . وبعد وفاته (١٤٠٥) اخذت امبراطوريته بالذوبان تدريجا . وكان على الايدي البناءة ان تعيد بناء العالم الاسلامي .

حتى مطلع القرن الخامس عشر كانت دولتان مسلمتان فقط «سائرتين» في الطريق - سلطنة المماليك في مصر والشام . والمملكة البهماتية في الدكن . والعراق لم يكن قد صحا بعد من ضربة المغول (١٢٥٨) . وحتى ذلك الوقت كان العراق على مستوى مصر في انتاج المواد الغذائية في اويكومين العالم القديم . لكن نظام الري في العراق تلف يومها . ولم يُعَدْ الى سابق عهده .

وقد نجا شمال الهند من المغول . كما نجت مصر . لكن شمال الهند لم ينج من حملة تيمور المخربة . وقبل ذلك كانت سلطنة دلهي قد تضعضعت . فبعد احتلال المسلمين للدكن . الذي كان قد بدأ سنة ١٢٩٤ . جرب محمد بن طفلق (سلطان دلهي) ان ينقل العاصمة من دلهي الى الدكن . لكنه فشل (١٣٢٧ - ٩) . وبعد ذلك تقسمت مملكته . وفي سنة ١٣٤٧ اصبحت الممتلكات الاسلامية في الدكن تحت حكم الباهمانيين. وبين ١٤٨٢او ١٥١٢ انقسمت هذه المملكة الى خمس دول متخاصمة .

في العقود الاخيرة من القرن السادس عشر كانت الهندوكية . قد انحطت قيمتها على المستوى السياسي في كل مكان في شبه القارة . اما على المستويات الاخرى فقد ظلت في عافية ؛ فاستجابت بطريقة خلاقة للاسلام . فكبير اظهر في شعره بالهندي . الحقيقة النهائية كما فهمها الاسلام والهندوكية . وجاء بعده ناناك (١٤٦٩ - ١٥٣٩) . مؤسس ديانة السيخ وجماعتها. والامبراطور المغولي اكبر (حكم ١٥٥٦ - ١٦٠٥) نظم تُلسي

داس «الرامايانا» بالهندي . وهي لغة اكثرية سكان شمال الهند .

وكانت دولة المماليك لا تزال سالمة سنة ١٤٠٥ . فمع ان المغول وتيمور وصلوا بلاد الشام . قلعة مصر . فانهم لم يتجاوزوها الى مصر بالذات . فظل نظام الري في مصر سليما عاملا . وكانت البلاد آهلة بسكان منتجين وقادرين على دفع الضرائب . وكانت مصر يحميها جيش منتظم مدرب قوامه الجنود المماليك الذين كانـوا اتراكاً أولا ثم شراكسة . وكان السكان يقبلون على اعتناق الاسلام تدريجا . حتى اصبح المسيحيون اقلية . ولكن المسيحيين المصريين استمروا في عصر المماليك . كما كانوا يفعلون في العصور السابقة . يقومون بدور هام في الشؤون العامة كمحصلي الضرائب .

كانت المشكلة في الجزء الاسيوي من العالم الاسلامي (خارج سلطان المماليك والحكام الهنود المسلمين) في سنة ١٣٠٠ وما بعدها هي : كيف يمكن العودة الى بنيان سياسي مستقر مع وجود البدو التركمان في المنطقة . فاولئك المحتمل قيامهم بانشاء دول هم زعماء البدو انفسهم . وشجاعة القبائل في القتال هي اسس قوة الزعماء . وهؤلاء لا بد ان يعتمدوا على القبائل حتى يجدوا عوضا مناسبا لها . والى ان يحين ذلك كان يتوجب على الزعماء ان يطوعوا اتباعهم . او يقودوهم الى اماكن اخرى او باقناعهم اخيرا بان يتخلوا عن تقاليدهم القبلية والاستقرار زراعا وعمالا .

وقد حل سلاجقة الروم هذه المشكلة جزئيا في القرن الثاني عشر . ذلك بانهم اسكنوا اتباعهم بين سلطنتهم وبقايا والامبراطورية الرومانية الشرقية . حيث كانوا يقومون بالجهاد ضد غير المسلمين . والجماعة المستقرة في داخل سلطنتهم كانت تتكون من الفلاحين الذين كانوا مسيحيين وكانوا يتكلمون اليونانية وكانت بينهم فئات هاجرت من ايران . لكن سقوط القسطنطينية بايدي الصليبيين (١٢٠٤) حمل امبراطورية نيقية اليونانية على الضغط على سلطنة الروم السلجوقية . وهجمات المغول الوحشية على السلطنة اضعفتها . ولما عادت القسطنطينية الى اصحابها (١٢٦١) خف الضغط على املاكهم في اسية الصغرى . وعاد التركمان الى السيطرة على تلك المناطق . ولنذكر ان دولة الايلخانات انتهى امرها سنة ١٣٣٥ .

وهكذا فقد اخذ عدد من زعماء التركمان يطمع في ان يخلف سلطنة الروم

السلجوقية والايلخانات . وكانت الجماعة التي كتب لها النجاح هي العثمانيون . فقد اسكنهم سلاجقة الروم (حول اواخر القرن الثالث عشر) مقابل المدن اليونانية الثلاث الهامة نيكوميديا (ازميت) نيقية (ازنك) وبروصه (بروصه) . فاحتل العثمانيون بروصه (١٣٢٦) وازنك (١٣٣١) وازمت (١٣٣٧) . وهذه فتحت الطريق امام العثمانيين للتوسع . فلما استولوا على موطىء قدم على الشاطىء الاوروبي في غليبولي (١٣٥٣) . كانوا يسيرون في خطى اباطرة نيقيه اليونانيين . ولما احتل العثمانيون ادرنه (ادريانوبولي) في سنة ١٣٦١ احكموا الطوق حول القسطنطينية .

كانت قوة العثمانيين ترتكز على تطويع التركمانيين وعلى جماعة من الذين اعتنقوا الاسلام وعلى جماعات من المسيحيين المنتجين عمالا ودافعي ضرائب الذين كانوا يقطنون في المناطق التي انتزعوها من المسيحية . وهؤلاء الرعايا المسيحيون المستقرون كانوا . من حيث العدد . يشبهون الرعايا الهندوكيين المستقرين الذين كانوا في الدولة الاسلامية في الهند . ومثل هذا الوضع لم يكن قائما في الدول الأخرى التي قامت في اسية الصغرى ولا حتى في الدولة الصفوية .

ان ترويض التركمان جاء عن طريق اصحاب الطرق الصوفية . لكن مثل هذا الامر كان خطرا بالنسبة الى المدنيين من بناة الامبراطوريات المسلمين . فالمتصوفة كانوا . في نظر السنة . يبعدون بعض الشيء عن الاسلام السني . ومثل ذلك يقال في «المؤسسة» الصوفية . وفي بعض الاحيان كان اثر المتصوفة بين التركمان اثارتهم بدل ترويضهم . فقد حدث . على سبيل المثال . مثل هذا في ايام محمد الاول . الذي لم يكد يتم تنظيم الدولة بعد انتصار تيمور الساحق عليها . حتى قام بدر الدين . وهو عالم اصلا . وصوفي فيما بعد . ودعا الجميع للثورة على العثمانيين . وقد اتضح ان اكثر العصاة في سنة ١٤١٦ كانوا من التركمان الناقمين . وقد وضع حد لثورته . لكن منظمته استمرت الى القرن لسابع عشر .

وقد كان من التركمان من لم ينتم الى العثمانيين ؛ وهؤلاء لم يرضوا عن خضوعهم ثانية للعثمانيين بعد ان حررهم تيمور . وقد قام التركمان الشيعة (الامامية) بثورة عارمة (١٥١١) كادت ان تعصف بالامبراطورية العثمانية لولا ان قضى عليها سليم الاول في ١٥١٢ — ١٣ بقسوة وشدة . وقد كان جيش اسماعيل شاه مكونا من التركمان الشيعة . ولكن بعد وفاته (١٥٢٤) اصبح هؤلاء . وعلى رأسهم زعماء من المتصوفة . عنصر ازعاج للامبراطورية الصفوية .

ان الدولة العثمانية لم تعتمد على القبائل التركمانية – حتى ولا التي هي منها – اصيلا . لقد كان هؤلاء يشجعون على الانسياح في الممتلكات العثمانية في اوروبة . لكن للمحافظة على ممتلكاتهم وللحصول على الرجال اللازمين لجيوشهم . كان العثمانيون يعتمدون على مصادر اخرى لذلك . لقد كان لديهم فرق من الفرسان الاقطاعيين ينفق عليها من واردات الاقطاعات التي لا تورث . وكان للمستأجرين الذين يدفعون الضرائب والفرسان الذين ينفق عليهم منها . حقوق معروفة تشرف الدولة على تطبيقها . ثم كان عند العثمانيين نظام يقضي بان يكون ثمة جيش من الرقيق . وقد كان هؤلاء اصلا يبتاعون من الخارج او يؤخذون من اسرى الحرب . لكن قبل ان ينتهي القرن الرابع عشر كان العثمانيون قد اخذوا . في سبيل تأمين جنود السلطان . بنظام الدفشرمه . اي اخذ صغار الصبيان (من الصرب والكرواتيين والالبان) وتدريبهم على فنون القتال وتعليمهم الاسلام وعلومه . وقد كان هذا النظام . الذي طوره مراد الثاني (حكم ١٤٢١ – ٥١) . فعالا . على ما قد يتصف به من قسوة .

كان هؤلاء يستخدمون اولا في الجيش . وكانوا يعرفون باسم يني تشاري (ومنها لانكشارية – الكلمة العربية) . الا انهم بعد مدة اخذوا . او بعضهم على الاقل . بنظام تعليمي وسع من الاول واعمق . وذلك كي يتاح للسلطان ان يختار منهم موظفين ومدبرين لمملكته . وقد جاء وقت على الدولة كان فيه العثمانيون الاحرار لا حظ لهم في الحصول على منصب اداري . لان هذه كانت حكرا على عبيد الامبراطور . وهذا النظام بكامله كان احد عوامل نجاح العثمانيين .

كان الجد الاعلى للاسرة الصفوية هو الشيخ صفي الدين اسحق (١٢٥٢ – ١٣٣٤) من اردبيل في اذربيجان . وقد اسس طريقة صوفية وقد كان الاول بين احفاده وخلفائه الذي تشيع هو حفيده الخواجه علي . وكان اماميا (كان الحشاشون من الاسماعيلية قد قضى عليهم هولاكو ١٢٥٧) . وكان اول من عني بالسياسة والحرب من هذه الاسرة الشيخ جنيد . (جد شاه اسماعيل) . فتولى سنة . ١٤٤٧ . وكانت امبراطورية تيمور تتمزق . وتزوج الشيخ جنيد اميرة تركمانية من خلفاء تيمور في اذربيجان ودياربكر . ولما تولى شاه اسماعيل (حكم ١٥٠٢ – ٢٤) فرض الشيعة على الايرانيين الذين قبلوها بسهولة مع انهم الى ايامه كانوا سنة . والشعراء الاربعة الكبار في الادب الفارسي الحديث – الفردوسي وسعدي وحافظ وجامع – كانوا سنة . (الواقع قبل ايام شاه اسماعيل كان وجود الشيعة مقتصرا على العراق وجبل عامل في جنوب لبنان) .

في سنة ١٥٥٥ كان عبيد القصر السلطاني يديرون الامبراطورية . في ايران كان شاه اسماعيل الثاني تحت رحمة الجنود التركمان . وكان هومايون «المغولي» قد فتح شمال الهند ثانية وكان جيشه من المغامرين من انحاء متعددة من العالم الاسلامي . لقد كان هومايون وابوه بابور سنيين . لكن كلا منهما استعان بدوره بالصفويين الشيعة . إن اصحاب السلطة ومن حولهم من المسلمين في الهند كانوا اقلية ضئيلة . لذلك لم يكن في صالحهم ان تقوم بينهم نزاعات دينية اسلامية . ومن ثم كانوا يقبلون العون الاسلامي من أي جهة جاء .

ان قيام دولة شيعية في ايران (١٥٠٠ – ١٥١٣) عزل سنيي المشرق عن سنيي اواسط اسية . وقد استولى العثمانيون على الموانىء الجنوبية في شبه جزيرة القرم (١٤٧٥) وقبلت دولة التتار هناك سلطة العثمانيين . لكن امبراطور روسيا ايفان الرابع (الرهيب) استولى على قازان (١٥٥٢) واسترخان (١٥٥٦) وبذلك فصل بين العثمانيين وخانات ازبك (ما وراء النهر) . وفي ١٥١٦ – ١٧ استولى العثمانيون على مصر وقضوا على دولة المماليك . لكن البرتغاليين كانوا قد سيطروا . بين ١٤٩٨ و ١٥١٥ . على القيادة البحرية للمحيط الهندي . وقد فشل الاتراك . كما فشل المماليك من قبل (١٥٠٨ – ١٧) في انتزاع القوة البحرية من ايدي البرتغاليين . مع انهم كانوا يرتكزون الى الخطوط الداخلية في حروبهم . وقد تخلى العثمانيون اخيرا عن المحاولة (١٥٥١) .

وقد اقتتل جنود برتغاليون وجنود عثمانيون (١٥٤٢) في الحبشة . دفاعا عن مسيحيين ومسلمين محليين . ان الحبشة لم تلعب دورا في السياسة الخارجية منذ قرون . ولما احتل العرب مصر . عزل المسيحيون (المونوفيزيون) في الحبشة والنوبة عن بقية العالم المسيحي . ولكن لما اعتنقت النوبة الاسلام . في القرن الرابع عشر وما بعده . الحبشة على النصرانية . وقد انتشرت اللغة السامية الحبشية في جهات مختلفة من الـا وانتشرت المسيحية معها . لكن المسيحية كان لها منافس هي اليهودية . ومع ان المسيحية سيطرت على اليهود . فان الاسلام انتشر حول الهضبة . وقد استولى المسلمون (من الجنوب الشرقي) على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩ – ٤٢) . وفي المعركة التي دارت رحاها سنة ١٥٤٢ بين الجنود العثمانيين والجنود البرتغاليين قاتل الاولون الى جانب المسلمين والآخرون الى جانب المملكة الحبشية . وقد انتصر الأولون . لكن العثمانيين انسحبوا من الميدان . وفي السنة التالية (١٥٤٣) انتصرت جيوش المملكة بمساعدة الجنود البرتغاليين الموجودين . وقد خرجت الحبشة من القتال وقد اصابها الدمار ونقص سكانها . ثم انتشر

فيها الفالا المتساحون من الجنوب والجنوب الشرقي الى الهضبة .

في سنة ١٥٥٥ كانت الامبراطوريات الاسلامية الثلاث تسيطر على الجزء المتوسط الرئيس من اويكومين العالم القديم – من الجزائر الى شمال الهند . كانت الامبراطورية العثمانية اقدمها وامتنها تركيبا . لكنها لم تتمكن من انقاذ مملكة غرناطة . آخر معقل مسلم في ايبريا . من ان يحتلها الاتحاد المسيحي القشتالي الاراغوني (١٤٩٢) . ولم يتمكن العثمانيون من الاستيلاء على المغرب . وبدل من ان يعيق العثمانيون تقدم البرتغاليين في المحيط الاطلسي . قابلوهم وكسروا على ايديهم في مقابل ساحل غوجيرات . وفشل العثمانيون في ان يسبقوا الروس الى احتلال مجرى الفولغا من قازان الى بحر قزوين . فلم يتح لهم ان يتصلوا بالسنة في ما وراء النهر .

ومع ذلك فالعالم الاسلامي نجح في تخطي الضربات المغولية . وهذا النجاح لم يكن في المجال السياسي فحسب . في الفترة من ١٣٠٠ الى ١٥٥٥ ظهر في ايران اخر شاعرين من الشعراء الفارسيين الاربعة الكبار – حافظ (تو ١٣٨٩) وجامع (١٤١٤ – ٩٢) . وشمال غرب افريقية انتج مفكرا ممتازا بحث تركيب التاريخ البشري هو ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦) . مع العلم ان شمال غرب افريقية كان في ايامه في حال فوضى سياسية . ولنذكر اخيرا انه لم يكن بين هؤلاء الثلاثة الذين يصح اعتبارهم ممثلين للثقافة الاسلامية عثماني واحد ، وان الشاعرين الاخيرين من ايران (حافظ وجامع) عاشا وتوفيا قبل ان يستولي الصفويون على ايران ويحملوها على التشيع .

٧٠ - المسيحية الشرقية الارثوذكسية ١٢٤٠ - ١٥٥٦

ان الجائحة المغولية التي اصابت روسيا (١٢٣٧ - ٤٠) واغرقت سلطنة الروم السلجوقية (١٢٤٣) لم تصب لا امبراطورية نيقية اليونانية ولا دولتي اليونان والصرب الارثوذكسيتين في البلقان. والبلغار هم الشعب الوحيد الذي لحق به الهجوم. لكن في سنة ١٥٥٦ كان الامر عكس ذلك تماما بالنسبة الى جناحي المسيحية الارثوذكسية الشرقية. فقد اصبح العثمانيون سادة على جميع الشعوب الارثوذكسية في الجنوب بما في ذلك الرومان الذين انشأوا امارتي فلاخيا ومردافيا. اما في الجهة المقابلة فان روسيا (في نصفها الشمالي الشرقي) لم تكن حرة فحسب، بل ان حاكم موسكو، الذي كان قد اصبح الدوق الكبير لفلاديمير، قد ضم إليه في ١٥٥٦ امارات شرق روسيا، وفي سنة ١٥٤٧ تلقب بالقيصر. واستولى على قازان (١٥٥٢) واستراخان (١٥٥٦).

كانت امبراطورية نيقية اليونانية. في سنة ١٢٤٠. في دور تقدم. فقد استولت على موطىء قدم في اوروبة (١٢٣٥) وانتصرت (١٢٥٩) على دولتين يونانيتين متحالفتين في مقدونيه وامارة فرنسية في الموره ومملكة الصقليتين. واسترجعت نيقية القسطنطينية من آخر امبراطور فرنسي (١٢٦١). ولكن بعد ذلك بدأ الانحدار. فانتزعت صربيا نصف مقدونية من امبراطورية نيقية اليونانية (١٢٨٢ - ٩٩). وبعد ان وسع اميرها. اسطفان دوشان. رقعة امارته توج نفسه (١٣٤٥) امبراطور الصرب والرومان. وكان ثمن استعادة يونانيي نيقية القسطنطينية (١٢٦١) ان خسروا املاكهم في اسية الصغرى الى القبائل التركمانية التي كان العثمانيون اشدها خطرا. وقد حكم على مستقبل الامبراطورية الرومانية الشرقية المحدثة في سنة ١٣٤٦. وكان السؤال من يخلفها - الصربيون ام العثمانيون.

ان التدهور الذي اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية لم يقض على حيوية الفن البزنطي والتجارب البزنطية الدينية. فالفسيفساء التي تعود الى اوائل القرن الرابع عشر في كنيسة خورا (وهي الآن جامع قاهري) في استانبول جديرة بالمقابلة مع رسوم الفنان المعاصر

جوتو الفلورنسي . وفي الوقت نفسه كانت حركة احياء للتصوف ، في جبل آثوس ، الذي كان يرمي الى الوصول الى الاتحاد بالخالق . وقد اثارت هذه الحركة المعروفة باسم «اسيخيا» خلافا كبيراً . فبينما اقر ارثوذكسيتها مجمع شرقي (١٣٥١) هاجمها الغرب المسيحي (حول ١٣٤٧) .

وقد نشبت حرب اهلية في الامبراطورية الرومانية الشرقية (١٣٤١ – ٤٧) رافقتها ثورة اجتماعية وجدل لاهوتي . فقد بلغت سعة الاملاك الريفية درجة كبيرة كما ساءت حالة الفلاحين الى حد المأساة . وذلك في عهد اسرة بليالوغي (١٢٥٩ – ١٤٥٣) . وقد لقي كبار الملاكين الامرين في انحاء مختلفة من الامبراطورية .

والشعور المضاد للغرب . الذي ظهر واضحا في القرن الرابع عشر في الخلاف حول «الاسخيا» ، كان قد بدأ ظهوره ايام الحملة الصليبية الاولى . وقد احجبه احتلال الغرب المسيحي للقسطنطينية ونهبها (١٢٠٤) وزاد في حدته الاستيلاء التدريجي للجمهوريات الايطالية البحرية على التجارة المحلية في البحار اليونانية الداخلية . وقد ادرك الامبراطور النيقي ميخائيل الثامن . الذي استرجع القسطنطينية . ان الامبراطورية الرومانية الشرقية التي احياها لا يمكن ان تعيش . بدون نظرة ثقة ومساعدة حربية من المسيحية الغربية . كما ادرك ان الثمن الذي سيطلب مقابل ذلك هو اعتراف الكنائس الارثوذكسية الشرقية بحق السيادة الكهنوتية الدينية للبابوية . وقد فعل ذلك ميخائيل الثامن نفسه فاعترف بالسيادة البابوية (١٢٧٤) وهكذا فعل يوحنا الخامس (١٣٦٩) ويوحنا الثامن في مجمع فلورنسة (١٤٣٩) . وقد توفي قسطنطين التاسع (١٤٥٣) آخر الاباطرة الشرقيين وهو متحد مع رومه .

وقد وقع وثيقة الوحدة . في فلورنسة (١٤٣٩) . بالاضافة الى الامبراطور . اعضاء الوفد الارثوذكسي الشرقي الكهنوتي (باستثناء عضو واحد .) لكن المهم هو ان اي اتفاق مع رومه كان يقابل برفض الجمهور الارثوذكسي الشرقي . كهنة وشعبا . وبعد ما احتل العثمانيون ادرنة (١٣٦١) . عزلت القسطنطينية ولم يعد يوصلها بالعالم الخارجي سوى طريق الدردنيل الذي كان معرضا للخطر . اما من ناحية البر فقد كانت المدينة محاصرة باستمرار . واصبح سقوط القسطنطينية بايدي العثمانيين امرا محتما ما لم ينقذها الغرب المسيحي ولكن على شروطه هو . ويبدو ان اليونان اختاروا . وهم واعون . ان يعرضوا انفسهم للسيادة السياسية العثمانية . اذ حسبوها اخف الشرين من خضوعهم دينيا للبابا

وتجاريا لجنوه والبندقية .

ان الحكومات الاسلامية ملزمة . بحسب تعاليم القرآن . بان تسمح للرعايا المسيحيين المسالمين ان يمارسوا شعائر دينهم . ولم يكن من الممكن الوثوق الى ان الدول المسيحية الغربية – باستثناء البندقية – لن تلجأ الى الضغط على رعاياها من الارثوذكس الشرقيين . كي يعترفوا بسيادة البابوية . واليونان . الذين لم يقعوا بعد تحت حكم الغربيين . لم يكونوا على استعداد لدفع مثل هذا الثمن كي يتجنبوا السيادة الاسلامية . وقد كان اليونان ايضا يشكون في ان المسيحية الغربية يمكن ان تقدم العون الحربي اللازم . وفوق كل ذلك . فقد كان اليونان يمتعضون من ان الغربيين . وهم في نظر اليونان دونهم حضارة كما انهم ايضا منشقون . قد فاقوا اليونان ثروة وقوة .

كان بين الذين وقعوا وثيقة الوحدة في فلورنسة (١٤٣٩) ايزيدور . اسقف الكنيسة الارثوذكسية الشرقية في روسيا . وقد كوفىء على ذلك بان جعل كردينالا (رومانيا) . واسقفية روسيا كانت لا تزال تتبع بطريركية القسطنطينية . وكان ايزيدور نفسه يونانيا . وقد انتفض الاساقفة الروس على ايزيدور ورفضوه واختاروا (١٤٤٨) شخصا روسيا اسقفا لروسية – دون ان يحصلوا على موافقة مسبقة من بطريرك القسطنطينية – وذلك بناء على مبادرة من الدوق الكبير لفلاديمير امير موسكو . وبموافقة دوق لتوانيا الكبير والتابع له امير كييف . والمؤسسة الروسية الرسمية لم تختلف مع بطريركية القسطنطينية حول سيادتها على اسقفية روسيا الارثوذكسية الشرقية . وهكذا فقد ظلت روسيا باجمعها . بقطع النظر عن الاوضاع السياسية للامارات الروسية المحلية . خاضعة لسلطة البطريرك الدينية .

كانت القبيلة الذهبية المغولية قد عهدت الى امارة موسكو ان تعاقب القبائل او الامارات التي تثور عليها . ومنها امارة تغر (١٣٢٧) . وقد كافأ المغولُ امير موسكو بان جعلوه دوق فلاديمير الكبير . الذي ظل يقيم في موسكو . وكان اسقف الكنيسة الارثوذكسية الشرقية في روسيا يقيم هناك ايضا . والدوق الكبير اخذ يضم الواحدة بعد الاخرى من الامارات الروسية (اعتبارا من ١٣٢٨) موسعا بذلك سلطانه . الذي كان اوتوقراطيا ، اذا قورن بالنظم المعروفة في امارات روسية اخرى .

خلال القرن الخامس عشر انحلت دولة القبيلة الذهبية وبذلك تحررت روسيا في الواقع . وحول اواسط لقرن تقسمت هذه القبيلة الى اربعة اقسام : ضمت ثلاثة منها

تحت حكم روسيا (كازيموف. ١٤٥٢ وقازان. ١٥٥٢ واستراخان ١٥٥٦. والرابع، القرم، وقع تحت نفوذ العثمانيين).

ظلت بسكوف وتوفغورود الروسيتان مستقلتين. وانضمت الاخيرة الى حلف من الهنسا. وسيطرت على منطقة واسعة الى شمالها الشرقي. كانت تمتد حتى المحيط المتجمد الشمالي. من طرف النروج الشرقي تحت نهر اوب. وقد ضمت موسكو تونغورود (١٤٧٨) وبسكوف (١٥١٠).

كان اللثوانيون قد افادوا من تركيع المغول لروسيا اثناء هجومهم الساحق (١٢٣٧ - ٤٠) وفرضوا سلطانهم على ولايتها الغربية (باستثناء غاليسيا التي ضمت الى بولندا). وقد ترك اللتوانيون للامراء الروس استقلالهم الذاتي. ولم يتدخلوا في دين رعاياهم من الارثوذكس الشرقيين. واتخذوا فلنا. المدينة الارثوذكسية الشرقية. عاصمة لهم. ومن ثم فان الحكم اللثواني الوثني لم يتضايق منه الروس الغربيون. وكانوا يفضلونه على سيطرة القبيلة الذهبية. لكن الوضع تغير لما اختير الامير اللثواني الوثني ملكا لبولندا (١٣٨٦) وهذا اعتنق المسيحية الكاثوليكية الغربية. وعلى كل فان النبلاء الروس الواقعين تحت حكم اللثوانيين والبولنديين اعجبتهم الحرية التي تمتعوا بها تحت هذا الحكم. بالمقابلة مع الحكم الذي يمكن ان يقعوا تحته في روسيا الموسكبية.

ومع ان قيصرية روسيا الموسكوبية لم تكن في ١٥٥٦ تحكم غرب روسيا. فانها كانت قد اصبحت دولة قوية. وكانت تستطيع ان تتوسع شرقا. وبالمقارنة كان اليونان في مأزق خطر يومها. فالقسطنطينية كانت قد سقطت (١٤٥٣) ولما استولى العثمانيون على امبراطورية طرابزون ١٤٦١ اصبحت بلاد اليونان جمعاء اما تحت حكم العثمانيين او تحت حكم المسيحية الغربية. وعلى كل فان فرض الحكم العثماني افاد اليونان على الصعيدين الديني والاقتصادي.

إن الباد شاه محمد الثاني (الفاتح) نظم رعاياه من غير المسلمين على اساس الملل ملة للارثوذكس الشرقيين وملة للارمن الغريغوريين وملة لليهود. وكان يرئس كل ملة رجل دين محترم الذي هو في الوقت ذاته تابع عثماني. وكان يعتبر مسؤولا امام الدولة العثمانية عن اتباع دينه. وكانت منطقة نفوذه تتفق مع حدود الدولة ذاتها. فكان بطريرك القسطنطينية. بحكم منصبه. رأسا لجميع ملة الارثوذكس الشرقيين العثمانيين (ملة الروم

كما كانت تسمى). وترتب على ذلك انه لما احتل سليم الاول بلاد الشام ومصر (١٥١٦- ١٧). فبطريرك القسطنطينية. بوصفه رئيس ملة- عثمانية. كان الرئيس المدني لا لاتباع بطريركيته فقط. بل البطريركيات الارثوذكسية الاخرى- انطاكية والقدس والاسكندرية. وقد كان لبطريرك القسطنطينية اتباع ارثوذكس من غير الرعايا العثمانيين- في جيورجيا الشرقية والانيا وروسيا. والقسم الروسي الذي كان يتبع بطريرك القسطنطينية كان كبيرا. وكان يتسع باستمرار. يضاف الى هذا ان الرابط الوحيد بين الروس المقسمين سياسيا، كان هو ولاؤهم لبطريرك القسطنطينية الارثوذكسي، ومن ثم فقد كان بطريرك القسطنطينية وقيصر المسكوبية قوة هامة في المسيحية الارثوذكسية الشرقية في ١٥٥٦. مع ان البطريرك كان، سياسيا، من رعايا سلطان مسلم.

وفي الوقت ذاته سارت الريح في مصلحة اليونان اقتصاديا في المنافسة بينهم وبين الايطاليين الشماليين. منذ نهاية القرن العاشر الى مطلع القرن الخامس عشر كان الايطاليون يثبتون اقدامهم اقتصاديا في المشرق على حساب اليونان. ولكن الايطاليين خسروا اقتصاديا وسياسيا كذلك بسبب ضم العثمانيين للمستعمرات الجنوبية في بيرا (١٤٥٣) وبسبب الحرب البندقية التركية (١٤٦٣- ٧٩) وفي القرم (١٤٧٥). وقد كان الرابحون اليونان العثمانيين بالرغم من منافسة اليهود اللاجئين من اسبانية. وقد تعاونت الطبقة الجديدة الناجحة من رجال الاعمال اليونان العثمانيين مع بطريرك القسطنطينية و «مؤسسته». وقد كان وضع هذين الفريقين اليونانيين مزعزعا. لكنهما. بتعاونهما اصبحت لهما قوة لا يستهان بها.

٧١-المسيحية الغربية ١٣٢١-١٥٦٣

بين حول ١٠٥٠ و١٣٠٠ حافظت المسيحية الغربية على وحدتها الدينية والثقافية كما تقدمت اقتصاديا- فقد زاد سكانها وزاد انتاجها. وفي وقت مبكر من القرن الرابع عشر. تأخرت ثروتها المادية. ثم جاء الموت الاسود (في ١٣٤٨ وما بعدها) الذي ازهق العديد من السكان وقلّص المساحة المستغلة من الارض. ومن الجهة الأخرى فان المسيحية الغربية كانت. في ١٥٦٣. قد حصلت على قيادة عالمية للقوة البحرية؛ لكن في الوقت نفسه كان حدها البري الجنوبي الشرقي قد ارتد عن الخط الذي كان يجاريه في ١٣٠٠. يضاف الى هذا ان المسيحية الغربية كانت قد اصبحت (١٥٦٣) بيتا منقسما على نفسه. على المستويين الديني والسياسي. وقد قوى هذا الخلاف كون الخطوط الفاصلة بين المستويين كانت متفقة الى درجة كبيرة. وقد اقر حكام الدول (الملكيات والامارات والمدن-الدول) التي كانت قد توزعت المسيحية الغربية. على انه كان من حق الحاكم على رعاياه ولاءهم الديني والسياسي على السواء.

لقد كان ثمة تراجع اقتصادي في المسيحية الغربية قبل ١٣٤٨- إلا ان الموت الاسود حول التأخر الى كارثة. فقد دخل الطاعون الى المسيحية الغربية في مرسيليا بحرا من المراكز التجارية الجنوية في القرم. وقد ظهر اصلا في السهوب الاوراسية او في مكان ابعد من ذلك بكثير. ولم يكن مرضا محليا في الاقطار المسيحية الغربية، فقتل ثلث السكان على اقل تقدير في هجمته الاولى. وعاد مرات وكان يصيب الذين خلصوا منه قبل ان يكسبوا المناعة ضده. ومن المحتمل ان سكان المسيحية الغربية والارض المستغلة لم تعد الى ما كانت عليه حول ١٣٠٠ إلا حول مطلع القرن السادس عشر. وقد كانت النتائج الاقتصادية المترتبة على ذلك ثورية. لقد افاد الفلاحون لان اليد العاملة اصبحت نادرة. ولو ان ذلك لم يكن كما املوا تماما. وحتى هذا لم يكن دائما. والنقص في اليد العاملة الزراعية جاء مع انتشار صناعة الاقمشة الصوفية من فلاندر الى انكلترا وفلورنسة، الامر

الذي ادى الى اختلال التوازن بين اراضي الرعي واراضي الزراعة. لمصلحة الأولى.

وقد شهد القرن الرابع عشر تطورا في التكنولوجيا فكان ان دخلت الاسلحة النارية المسيحية الغربية. وبين حول ١٤٤٠ و١٤٩٠ كانت ثورة تتعلق ببناء السفن الغربية وهيكلها. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت الطباعة قد تقبلتها جميع الاقطار الغربية. والبارود والطباعة هما اختراعان صينيان. وقد استعمل المغول البارود في حروبهم لاحتلال امبراطورية سونغ في القرن الثالث عشر. وقد كانت الطباعة مستعملة في الصين منذ القرن التاسع.

إن الطباعين الصينيين سبقوا الغربيين في استعمال الطباعة المتحركة. لكن كثرة «الاشارات» الصينية الكتابية جعلت الطبع الثابت انسب لغايات الصينيين. ومع ذلك فان الطباعة المتحركة بدأت في كوريا على مقياس واسع في ١٤٠٣. وقد اتخذ الكوريون رسميا كتابة صوتية. فيها عدد صغير من الاشارات. لكتابة لغتهم في ١٤٤٦. لكن هذا الاختراع الذي كان يحمل في طياته الامل الكبير ولد ميتا. فقد خنقته المكانة التقليدية التي كانت للغة الصينية وكتابتها المعقدة. اما الطباعون الغربيون في القرن الخامس عشر فلم يكن يجثم مثل هذا الكابوس على صدورهم. فاللغة اللاتينية واللغات المحكية المختلفة كانت تستعمل الالفباء اللاتينية لكتابتها. وهي تبلغ ستة وعشرين حرفا فقط. والحروف المستعملة كان من اليسير على الطباع ان يستعملها. ولم يلبث الغربيون ان اصبحوا يطبعون كتبا باليونانية والعربية والعبرية. ولسنا ندري فيما اذا كان غوتنبرغ قد اخترع الطباعة مستقلا. ام ان الفكرة جاءته من الصين اخيرا. فالسهوب موصلة. فقد نقلت الى اوروبة. في القرن الرابع عشر. جراثيم الموت الاسود. فمن الممكن ان تكون قد اوصلت فكرة الطباعة بعد ذلك بنحو مئة سنة.

إن اتقان الغربيين للطباعة كان امرا محليا. اما اتقانهم لاستعمال الاسلحة النارية واختراعهم لنوع جديد من السفن كانا قضيتين عالميتين. (موضع البحث عن فتح سفن الغرب العالمي في القرن الخامس عشر هو الفصل الخامس والسبعون.) فامتلاك الاسلحة النارية وضع المغامرين الغربيين في مركز متفوق قطعاً بالنسبة الى الشعوب غير الغربية التي كانت في متناول هؤلاء الغربيين من البحر. وهي الشعوب التي لم يكن عندها اسلحة نارية او لم تحصل عليها في الوقت المناسب. الصينيون كانوا يمتلكون الاسلحة النارية ؛ وقد حصل عليها العثمانيون والموسكوبيون والتيموريون (المغول) الذين فتحوا شمال الهند في الوقت

المناسب. اما الازاتكة والانكا فقد سلموا (لانهم لم يعرفوا الاسلحة النارية).

ان استعمال المطبعة في المسيحية الغربية في القرن الخامس عشر دفع بالازدهار الثقافي الذي كان قد بدأ في شمال ايطالية في القرن الرابع عشر، الى الامام. وهو الذي انتشر في بقية المسيحية الغربية في القرن السادس عشر. ان شمال ايطالية تمتع، بين ١٢٦٦ و ١٤٩٤، بفترة استراحة من الغزوات الاجنبية التي استمرت نحو الف سنة منتهية بسنة ١٢٦٦. وقد اوجد شمال ايطالية، في هذه الفترة (١٢٦٦ – ١٤٩٤) حضارة اقليمية خاصة به في اطار المسيحية الغربية. وقد عرفت المسيحية الغربية ثلاث موجات من التقدم الحضاري: الاولى في القرن الثامن جاءت من نورثمبريا (في بريطانية) والثانية جاءت في القرن الثاني عشر من فرنسة. وفي القرن الرابع عشر كانت القيادة لايطالية. وهذه هي الموجة الثالثة.

ومن الممكن التعرف على الهوة التي كانت بين الحضارة الايطالية وحضارة شمالي الالب، عند منقلب القرن الخامس عشر الى السادس عشر. من كنيسة الملك هنري السابع في دير وستمنستر. فاذا تنبهنا الى الفرق بين حفر الفنان الفلورنسي توريجانو (١٤٧٢ – ١٥٢٢) والفن المحلي في العقود والتماثيل المنحوتة فوقها. وجدنا ان الفنين (او المدرستين) على مستوى رفيع فنيا. لكنهما، مع كونهما متعاصرين، يبعدان عن بعض كثيراً في الروح.

والفرق المنظور في ذلك يعود الى احياء الاسلوب اليوناني الروماني في القرن الرابع عشر. ولم يكن هذا الاحياء في الحفر والبناء فحسب. بل حتى في الرسم والادب. فالنحاتون والرسامون والمعماريون قولبوا اعمالهم على ما كان باقيا من صنع المدنية اليونانية – الرومانية. والكتاب باللاتينية جربوا ان يقلدوا لغة شيشرون. لا لغة القديس جيروم او لغة توما الاكويني. وفي القرن الرابع عشر اخذ الايطاليون الشماليون انفسهم باتقان اللغة اليونانية والادب اليوناني على ما كانا في العصر الهليني. الذي كان قد انزوى في الغرب بين القرنين الثالث والسادس للميلاد. فبترارك (١٣٠٤ – ٧٤) وبوكاشيو (١٣١٣ – ٧٥) تعلما اليونانية ولكن دون ان يتقناها. لكن لما جاء وفد يوناني الى فلورنسة (١٤٣٩) لحضور مجمع ديني. لقي اعضاؤه علماء من شمال ايطالية الذين كانوا يحرفون اللغة اليونانية الى حد انهم ناقشوهم في الادب اليوناني والفلسفة اليونانية العائدين الى قبل الميلاد. ومن هنا فان ازدهار الحضارة الايطالية سمي في القرن السادس عشر «الانبعاث». اذ كان معنى

ذلك «الولادة الثانية» للمدنية اليونانية – الرومانية . وكان العاملون فيها يسمون «الانسانيين» لأنهم كانوا من المعجبين بالمدنية اليونانية – الرومانية السابقة للميلاد . بالمقارنة لاولئك الذين كانوا طلابا ومعجبين باللاهوت المسيحي الغربي .

ومع ذلك فان هذه التسمية – الانبعاث – خاطئة . ذلك بان احياء الاسلوب اليوناني الروماني لم يكن سوى امر ملازم ونتيجة لازدهار حضاري ثان . يختلف عن ذلك الذي عرف في القرن الحادي عشر . فالازدهار الثاني لم يبدأ لما كتب ارازمس (١٤٦٦ – ١٥٣٦) ما كتبه باسلوب شيشروني لا تشوبه شائبة ، وانما بدأ لما قرر دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١) ان يكتب الكوميديا الالهية . بلغته التوسقانية التي استعملها لاشعاره من قبل . كان دانتي يسير في خطى اسلافه في شمالي الالب الذين كتبوا باللغة المحكية .

ان الصلة بين الغربيين المحدثين المبكرين والمدنية اليونانية – الرومانية صلة ذات وجهين . فاذا اثار النموذج اليوناني الروماني «المحدثين» فصنعوا شيئا حديثا . هو انجاز بالنسبة الى اسلوب الحياة الغربية المعاصرة . فان الصلة تكون دافعا الى الامام . ولكن المدنية اليونانية – الرومانية نفسها . متى حملت «المحدثين» على مجرد تقليد «القدامى» تكون عندها موهنة للهمم . فان فيليبو برونليشي (١٣٧٧ – ١٤٤٦) بنى قبته في فلورنسة (١٤٢٠ – ٣٤) بعد ان درس القبة الموجودة في مجمع هدريان برومة . وكان اثر ذلك انه اضاف ثروة فنية الى عالمه . (لكنه لم يتمكن من دراسة الجامع الاخضر في بروصه) . ومثل ذلك حدث على يد اندريا بلاديو (١٥١٨ – ٨٠) اذ اضاف ثروة جديدة للعالم الحديث لما اوجد اسلوبا كلاسيكيا خاصا به بعد ما درس آثار رومه وكتاب فتروفيوس عن فن العمارة . وفي مقابل ذلك فان سِفِسْموند مالاتستا (١٤١٧ – ٦٨) حول كنيسة في (ريميني) الى مدخل لهيكل يوناني – وكان ذلك خطأ فاحشا . ونيكولو مكيافلي (١٤٦٩ – ١٥٢٧) درس ليفي المؤرخ اللاتيني وافاد من ذلك في وضع دليل لادارة شؤون السياسة والحرب في عالمه . وارازمس استخدم لغة شيشرون اللاتينية لما كتب لقرائه (باللاتينية) عن القضايا الرئيسة الخلقية والاجتماعية والسياسية والفكرية . وكلاهما – مكيافلي وارازمس اغنيا الفكر والحياة . اما اولئك «الانسانيون» الذين كتبوا بلاتينية متقعرة وكانوا يفتقرون الى عبقرية ارازمس . فهم سخرية الادب والادباء .

ان مفكري الغرب في العصور الوسطى كانوا يتصرفون تصرفا جيدا . فانهم لم يتأخروا قط في وضع الكلمات الجديدة لارائهم ، وفي هذا كانوا يتبعون شيشرون نفسه .

ولوثر . الثائر الديني وخصم «الانسانيين» كان اقرب الى دانتي (وبترارك وبوكاشيو) منه الى ارازمس «الانساني» (الشيشروني) . لما خاطب (لوثر) بلغة محكية جمهورا اكبر (من اي جمهور وصل اليه ارازمس) . وترجمة لوثر للكتاب المقدس الى الالمانية كان بالنسبة الى الازدهار الحضاري الغربي الحديث عملا مثل الذي قام به دانتي لما كتب الكوميديا الالهية باللغة التوسقانية .

حتى اواسط القرن الخامس عشر كانت بؤرة الانبعاث (الرنسانس) الاوروبي الحديث شمال ايطالية . وهنا توسقانية . وفي هذه فلورنسة . ودورها يشبه دور اثينا ٤٨٠ ق .م. فمن اهل الفكر والفن الفلورنسيين هناك : دانتي وبترارك وبرونليستي وفيشينو ولور نزو دي مديشي ١٤٤٩ - ١٤٩٢ (صاحب مصر . طاغية . راع للفن والعلماء) ومكيافلي وتوريجانو . اما الآخرون الذين لمعوا في فلورنسة فهم : بوكاشيو (فلورنسي وفرنسي الاصل) وليوناردو (١٤٥٢ - ١٥١٩ ولد في بلدة كانت قد ضمت الى فلورنسة قبل ذلك بقرن) . وبراشيوليني الاثري من اريزو التي كانت قد ضمت الى فلورنسة . ومثلها مكان ولادة مايكل انجلو (١٤٧٥-١٥٦٤) وقد استقطب لورنزو الى فلورنسة عدداً من العلماء من اماكن مختلفة . والوحيد بين هؤلاء العظماء الذين لم يكن فلورنسا هو رفائيل (١٤٨٣-١٥٢٠) .

ومع ذلك فلا فلورنسة ولا حتى شمال ايطالية كان البؤرة الوحيدة للازدهار الحضاري الغربي الحديث . فقد كان نفلاندر دور لا يقل عن دور تلك - حضاريا واقتصاديا . ففان إيك (١٣٩٠ - ١٤٤١) كان ندا لانجيليكو الايطالي . وارازمس كان ندا لاي ايطالي كتب باللاتينية . وبين ايطالية والاراضي المنخفضة كانت ثمة محطات . مثل مدرسة البندقية في الرسم فروبوشي (١٥١٨ - ٩٤) وبولس الفيرونيزي (١٥٢٨ - ٨٨) كان لهما ندين في فلاندر . وفي تورنبرغ كان البرت دورر (١٤٧١ - ١٥٢٨) ندا لاي فنان ايطالي باستثناء العمالقة الاربعة .

كانت المدن - الدول في بلاد شمالي الالب . كما في ايطالية . هي مهد الازدهار الحضاري الغربي الحديث . لكن في سنة ١٥٦٣ كانت شعوب الدول - الممالك اخذت بالمساهمة الثامنة في هذه الحركة . وازدياد عدد الجامعات يعطينا فكرة عن ذلك . فبين ١٣٥٠ و ١٥٠٠ زاد عدد الجامعات في المسيحية الغربية اكثر من الضعف . وفي هذه الفترة انشئت ثلاث وعشرون جامعة في اوروبة الوسطى (واقدم الجامعات الثلاث والعشرين هي جامعة براغ التي انشئت ١٣٤٧) .

كان فردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) ملك الصقليتين يطمح الى الاستيلاء على ايطالية باجمعها وبعد ذلك (احتمالا) البلاد الواقعة شمالي الالب . وقد فشل فردريك في ذلك . لكن طموحه حمل آخرين على القيام بتجربة ولو على مقياس اصغر . وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قامت امارات يحكمها حكام مستبدون بدل المدن - الدول . وحتى البندقية . التي ظلت جمهورية . انشأت امبراطورية بان ضمت اليها مدنا كانت من قبل مستقلة . ولذلك فقد نقص عدد الدول المستقلة في ايطالية وزاد معدل مساحتها . ومع ذلك فان الدول الايطالية التي استقرت في نهاية القرن الخامس عشر (مثل ميلان والبندقية وفلورنسة والدولة البابوية) كانت صغيرة وضعيفة بالنسبة الى الممالك - الدول التي كانت تزين الخارطة السياسية (خارج ايطالية) في سنة ١٥٦٣ . وهذه كانت تشمل مملكتي فرنسة وانكلترا (قامتا في القرن العاشر) ومملكة قشتالة وارغون المتحدة (١٤٧٤ - ٧٩) ومملكة هابسبورغ (ظهرت سنة ١٥٢٦ باتحاد املاك هابسبورغ النمسوية مع تاجي هنغاريا وبوهيميا) . وهذه الممالك الغربية كانت تفوق امارات شمال ايطالية وجمهورياته . ان الممالك المذكورة عرفت سياسيين من نوع لويس الحادي عشر الفرنسي . حكم ١٤٦١ - ٨٣ - وفرديناند وازابلا - حكما ١٤٧٩ - ١٥٠٤ - وهنري السابع - حكم ١٤٨٥ - ١٥٠٩ .

ولكن الدول الجمهورية لم تكن قد اختفت من الخارطة السياسية الاوروبية سنة ١٥٦٣ . فقد كانت البندقية لا تزال دولة ذات سيادة . ولها امبراطورية في البر الايطالي وفي المشرق . وجنوى كانت تحكم الرفييرا الايطالية وكورسيكا . وكانت سويسرا اتحادا من جمهوريات . والمدن الدول الالمانية كانت ذات سيادة الا بالاسم . وكانت اثنتان منها . نورنبرغ واوغسبورغ مركزين عالميين للتجارة والمال . فدولة هابسبورغ اعانتها اوغسبورغ ماليا . وقد ساعدت البروتستانتية في الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية مدينتان المانيتان هما اوغسبورغ وشتوتغارت وثلاث مدن - دول سويسرية هي زوريخ وبرن وبازل . ومدينة جنيف التي كانت حليفة للاتحاد السويسري .

وفي مقابل ذلك فان قيام اتحاد الدول الاسكندنافية (١٣٩٧) كرد فعل على سيطرة اتحاد مدن الهنسا . انحل بانفصال السويد (١٥١٢ - ٢٣) واتحاد لتوانيا مع بولندا (بدأ ١٣٨٦ ثم قوّي ١٥٠١ و ١٥٦٩) . وقد اتضح خلال القرن الرابع عشر ان الشكل الغالب على الدولة في الغرب هو المملكة - الدولة . لا المدينة - الدولة ولا اتحاد المدن بقطع النظر عن شكل الاتحاد .

والذي يجب ان يتذكر دائما انه اصبح (منذ القرن الخامس عشر) من المتعذر ان يوحد الغرب المسيحي سياسيا . فالعوامل المحلية كانت تحول دون ذلك . وشارل الخامس (حكم ١٥١٩ - ٥٦) الذي كان يسيطر على القسم الاكبر من اوروبة الغربية باعتباره امبراطورا للامبراطورية الرومانية (بكل اقسامها) وملكا لاسبانيا ، اعتزل العرش ١٥٥٦ يائسا من تحقيق الوحدة .

ولم يكن تحقيق هذه الوحدة منتظرا في سنة ١٥٦٣ . فالدول الاوروبية ، كبيرها وصغيرها ، كانت تحول دون ذلك ، اذ ان كلا منها كانت تمنع الاخرى من العمل . وهذه الدول العلمانية هي التي كانت تقرر امور المسيحية الغربية منذ سنة ١٣٠٣ ، وهي السنة التي اذل فيها فيليب الرابع ، ملك فرنسة ، البابا بونيفاس الثامن .

ان البابوات اقاموا في افينيون (١٣٠٩ - ١٣٧٨) لان التاج الفرنسي اراد ان يكون البابا عند مدخل فرنسة ، ومن ثم يكون تحت سلطانها . وخلال الانقسام الكبير (١٣٧٨ - ١٤١٧) لم تكن القضية اخلاقية او عقائدية : ان الخلاف كان فيما اذا كانت البابوية يجب ان تظل في بيضة القبان الفرنسي ام تعود الى القبان الايطالي . ان السلطات المدنية والبابوية كانت طامعة ، على السواء ، في الحصول على اموال الضرائب . وقد نظمت الكوريا البابوية ، منذ القرن الثالث عشر ، اساليب فرض الضرائب . وفي الوقت ذاته اخذت الحكومات المدنية تحجز حصة متزايدة القيمة من الضرائب البابوية التي تفرض في ممتلكاتها على ان هذا كان شرطا - يسمح بموجبه للكوريا بان تأخذ الباقي .

ان فضيحة الانقسام الكبير ادت الى عقد مجمعين في كونستانس (١٤١٤ - ١٨) وفي بازل (١٤٣١ - ٤٩) . وقد حاول المجمعان ، لكنهما فشلا ، في ان يطوروا البابوية من ملكية مطلقة الى ملكية دستورية تكون فيها الكلمة الاخيرة للاساقفة (ومساعديهم) والاديرة وممثلي الجامعات . ولان القوى المدنية المحلية لم تؤيدها ، فشلت المحاولة . ذلك بان اكثر هذه القوى شعرت ان مثل هذا التطوير قد يقوي سلطة البابوية ، وبعضها كان قد انتزع من البابوية كل ما يبغيه ، والبعض الآخر كان يحسب ان ينتفع من الوضع القائم ، لان القوة الحقيقية في الدول اصبحت ، منذ ١٣٠٣ ، في ايديهم .

وبين ١٣٠٣ و ١٣٦٣ مرت المسيحية الغربية بتطور اساسي من ناحية تمركز السلطة السياسية ، اذ ان السلطة مع الضرائب انتقلت من البابوية ومن المؤسسات الكنسية الغربية الاخرى (كالاديرة) الى الحكومات المدنية المحلية . فقد تقلصت البابوية الى واحدة من

الامارات الصغيرة في العالم الغربي ، بعد ان كانت تسيطر عليه وتنظمه . وفي قتالها المستمر مع الامارات الاخرى فقدت حقها في السيادة الروحية . وقد عاصر فترة نفي الباباوات الى افينيون ثلاثة من الذين خاصموا البابوية : جون وكليف (١٣٢٩ - ٨٤) ووليام اوكام (١٣٠٣ - ٤٩) ومارسيليو بادوا (١٢٩٠ - ١٣٤٣) . اما جون هص (١٣٦٩ - ١٤١٥) فكان معاصرا للانقسام الكبير.

واسماء لوتر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) وزونْغلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) وكلفن (١٥٠٦ - ٦٤) تذكرنا بان الامراء المحليين كانوا من العوامل التي مكنت للثورات الدينية ان تقوم بحمايتهم لها . فقد كان هؤلاء «افرادا» ولولا تأييد الشعب ، وكذلك تأييد الامراء والطغاة (الاوليغارخيين) لكانت حركاتهم قد فشلت . ولما تحدى فيليب الرابع ، ملك فرنسة ، وهنري الثامن ، ملك انكلترا ، البابوية ، كان كل منهما سيد دولة محلية قوية وكان قد حظي بتأييد الشعب وحتى رجال الدين المحليين . وكان لا بد لفرد ما من الشجاعة الشيء الكثير ، كي يتحدى البابوية ، وهذا ما اظهره لوثر في جامعة وتنبرغ (١٥١٧) اولا ، (وكان عمر الجامعة خمس عشرة سنة فقط) ، ثم امام مجمع ورمز (١٥٢١) ثانيا - وكان لذلك فعل الكهرباء في النفوس . وسر النجاح في هذا الوضع هو ان الوسائل التي ارسل فيها «المنفصلون» تياراتهم كانت موصلة . فجماعة هص كانوا ضد البابوية وضد الالمان . وجماعة لوثر الالمان اتبعوه لانهم كانوا خصوما للبابوية . وقد انتشرت اللوثرية حتى داخل ممتلكات هابسبورغ قبل ان يرتد التيار بتأثير حركة الاصلاح الرومانية الكاثوليكية . والوطنية المدينية في زوريخ وستراسبرغ وجنيف هي التي فتحت المجال امام زونغلي وبوسر (١٤٩١-١٥٥١) وكلفن.

كان لوثر الرائد . ولو لم يسر في الطليعة كان من المحتمل ان لا يقوم زملاؤه بالانفصال التام عن البابوية . والبروتستانية توزعت مناطق اوروبية على الشكل التالي : اللوثرية ظلت في المانية واسكندنافيا . والكلفنية (التي لم تنجح في فرنسة) انتشرت في منطقة واسعة من جنيف . وبعد اتحادها مع الزونغلية (زوريخ) انتشرت شرقا الى هنغاريا وبولندا والى هولاندا وغرب المانية شمالا في غرب . الا ان حركة الاصلاح الكاثوليكية انتصرت عليها في هنغاريا وفي بولندا - لاتفيا . وبقيت في الاماكن الاخرى.

جاءت الثورة البروتستانتية الدينية بعدد من الثورات . فقد اكدت ، واقعيا ، الاستقلال ذا السيادة للامراء المحليين والمدن - الدول في المانية (ولو ان هذه كانت ، رسميا

تابعة للامبراطورية الرومانية للشعب الجرماني) . ولكن لم ترافقها ثورة اجتماعية . لقد قامت ثورات مجهضة في المسيحية الغربية بعد وفادة الموت الاسود (١٣٤٨) : ثار الفلاحون في فرنسة وانكلترا والعمال الصناعيون في مدن فلاندر ومدن الراين وقامت ثورة فلاحية في المانية . وقد كان لوثر ضد هذه الثورات متفقا في ذلك مع السلطات المدنية السياسية ، البروتستانتية والكاثوليكية على السواء . وقد اعلن (١٥٢٥) انه يقف الى جانب الامراء ضد الفلاحين .

كان لوثر يرى ، مبدئيا ، ان الكنيسة اللوثرية يجب ان تمتنع عن التدخل في السياسة ، اذ ان هذه عمل السلطات المدنية في الدول اللوثرية . فما كان رأي كلفن ، بالمقارنة ، من حيث العلاقة بين الكنيسة والدولة اقرب الى رأي غريغوريوس السابع او حتى بونيفاس الثامن . كان موقف كلفن هو ان حكومة المدينة – الدولة جنيف يتوجب عليها ان تقنع الكنيسة الكلفنية بان الحكومة تتبع القواعد الكنسية في ادارتها . وقد جرب ذلك سنتين نفي على اثرهما كلفن من جنيف (١٥٣٨) . الا انه اعيد بعد ثلاث سنوات معززا ، وكان له ما شاء في ادارة جنيف حتى وفاته (١٥٦٤) .

في ١٤٩٤ – ٥ طلب الحكم الجمهوري في فلورنسة من سافوناروﻻ ، الراهب الدومنيكي ، ان يصلح اخلاق الناس في البلد . فعمل ، ولكن سنة ١٤٩٨ احرق على السفود . ومع ان شمال ايطالية في القرن الخامس كان مبكرا في سيره فان مهمة سافوناروﻻ كانت سابقة لاوانها . وكان العقاب عليها وحشيا . وعلى كل فقبل ان يعلن لوثر مساوىء البابوية (١٥١٧) قامت فئة من رجال الدين والمدنيين الايطاليين ، بقيادة المطران كرافا بقصد اصلاح الكنيسة البابوية من الداخل . ولم يكن هؤلاء ثوريين ، ولا اضرموا حقد البابوية ضدهم . وفي الواقع لقد انتخب كرافا بابا (بولس الرابع ، ١٥٥٥ – ٩) .

ان آباء الكنيسة البروتستانتية كانوا ثوريين في الحملة على البابوية ومعارضتها وفي الانفصال عن الكنيسة البابوية . لكنهم ، مثل سابقيهم من الرومان الكاثوليك ، كانوا يحبون السلطة ولم يكونوا متسامحين . وقد تصرفوا افرادا بمقتضى حكمتهم وتبعا لضميرهم في موقفهم ضد البابوية ، فانهم لم يكونوا اكثر تساهلا من الكاثوليك في السماح للافراد بان يسيروا بمقتضى ضمائرهم وحريتهم في الدول التي قبل حكامها البروتستانتية . لقد اعلن الثوار ان الكتاب المقدس فوق ارادة البابا ، والمجامع . (وقد ترجم لوثر الكتاب المقدس الى الالمانية كي يتمكن كل الماني من قراءته .) كان لكل مسيحي ان يفسر ما جاء في

الكتاب المقدس لنفسه، ولوثر وزونغلي وكلفن فعلوا ذلك في صياغتهم لارائهم اللاهوتية. إلا انهم لم يسمحوا لاتباعهم مثل هذه الحرية في التفسير.

في القرن السادس عشر اتفق رجال الدين والحكومات البروتستانت والكاثوليك على السواء. على انه من حق الحكومة المحلية ان تفرض على رعاياها المذهب الذي تختار. والمخالفون عليهم ان يهاجروا، او انهم قد يتعرضون لخطر الموت. الدولتان الغربيتان الوحيدتان في القرن السادس عشر اللتان كانتا تسمحان للرعايا باتباع الدين الذي يريدون هما البندقية وبولندا – لاتفيا. وكان مسيحيو هنغاريا (تحت الحكم العثماني) يتمتعون كذلك بالتسامح، وترانسلفانيا.

ان الحرب المريرة بين البابوية وفردريك الثاني وخلفائه ادت الى تغرب الكثيرين من المسيحيين في الغرب عن «المؤسسة» البابوية الدينية. وقد حول بعض المسيحيين الغربيين. خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر في نشاطاتهم الروحية من مجال المشاركة في الدين المنتظم الى العلاقة بين الله والفرد.

وكان احد هؤلاء المتصوفة (الميستيك) الدومنيكاني الالماني إكّارت (حول ١٢٦٠ – ١٣٢٧) الذي رأى في نفسه الحقيقة الروحية النهائية. وقد اوقعه هذا في مشاكل مع السلطات الدينية الغربية. والحركة الايسيخية (في جبل اتوس) المعاصرة لقيت العنت على ايدي اللاهوتيين الغربيين (مع انها اقرها مجمع ارثوذكسي شرقي ١٣٥١). وكان من هؤلاء في الغرب اتباع غروت الهولاندي (١٣٤٠ – ٨٤). ومن رجالهم فيما بعد توما كمبيس (١٣٧٩ – ١٤٧١) مؤلف «التشبه بالمسيح».

كان المسيحيون الغربيون في القرن السادس عشر يركبهم هاجس الموت. وكانوا معجبين بالالم الجثماني الذي بدا في المسيح على الصليب. فرسامو الغرب وحفاروه ونقاشوه المعاصرون – وبخاصة شمالي الالب – بذلوا جهدهم الفني ليظهروا هذه الافكار بواقعية قاسية. وهذا الجو السقيم هو الذي حمل لوثر على الوقوف عند شعوره بالخطيئة وعند يأسه من التغلب عليها بجهده الخاص. فلجأ الى الايمان بالقوة الخلاصية القائمة في تضحية المسيح لله الأب. فنقل المسؤولية الروحية للخلاص عن عاتق الفرد والقائها على عاتق المسيح اظهر لوثر شبها بتتزل. خصمه الدومينكاني. الذي كان يرفع المسؤولية عن عاتق الفرد ويضعها على عاتق البابا – لكن الباعث على ذلك كان طمعا ماليا. كلاهما ترك التشبه بالمسيح الى القاء العبء على عاتق المسيح. وذلك في سبيل الخلاص.

فيليب الرابع ملك فرنسة استولى على املاك فرقة الهيكليين في مملكته واضطهد اعضاءها بقسوة (١٣٠٧ - ١٤١٤) وادوارد . ملك انكلترا . تبعه . (وقد منعت الصور والتماثيل في المسيحية الارثوذكسية الشرقية في القرنين الثامن والتاسع .) ونظام العزوبة الذي فرضته الكنيسة الغربية على كهنة الرعايا في القرن الحادي عشر اعفى منه (١٤٣٩) في مجمع فلورنسة لكهنة الرعايا في الكنائس المنضمة الى الباباوية . اذ كان كهنتهم من قبل لا يتقيدون بالعزوبة . واختلف زعماء البروتستانتية على قضية جسد المسيح ودمه بالنسبة الى القربان .

وكان ثمة خلاف بين لوثر (والذين قبلوا رأيه من البروتستانت) و«الانسانيين» حول القول بالجبرية . فارازمس والقديس توماس مور لم يقبلا باراء لوثر. وكان كثيرون يرون ان اراءه فيها رجعية بالنسبة الى ارازمس وتوما الاكويني. ولكن . باستثناء لوثر . فان اباء البروتستانتية كانوا من علماء الكلاسيكيات . ومع ذلك فان لوثر تغلبت اراؤه في النهاية وقبل لاهوته على اساس الجبرية. وترك لوثر على كل . اثرا خالدا في ترجمته الكتاب المقدس الى الالمانية .

والذين اسهموا في الحركة الاصلاحية الكاثوليكية كانوا ممن قبل «الانسانيات» بكل حماسة : اغناطيوس ليولا (١٤٩١ - ١٥٥٦) دخل الجامعة ليعد نفسه لعمله . وجمعيته اليسوعيين (التي نظمها سنة ١٥٤٠) كانت تؤمن بالتعليم . ولا تزال . وعلى كل فليولا كان جنديا في مطلع حياته . ولذلك فان حب النظام هو الغالب على الجمعية . كما انها وضعت نفسها في خدمة البابوية. وفي القرن السادس عشر (كما حدث في القرنين الثالث عشر والحادي عشر من قبل) انقذ رجل عظيم البابوية من عثراتها . القديس فرنسيس كان يختلف عن غريغوريوس السابع وليولا طبعا وتصرفا (لعلّه اصح ان يقال انه كان عكسها تماما) . ولكن البابوية افادت من هؤلاء الثلاثة (غريغوريوس السابع في القرن الحادي عشر والقديس فرنسيس في القرن الثالث عشر واغناطيوس ليولا في القرن السادس عشر) لأن الولاء المطلق المؤمن كان الصفة البارزة لهؤلاء الثلاثة . كان مجمع ترنت منعقدا . ولو بصورة متقطعة . من ١٥٤٥ الى ١٥٦٣ . وهذا المجمع منح البابا حكما ملكيا على ما تبقى من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . كما انه صحح بعض الاخطاء الكنسية. من الممكن لو ان هذه الاصلاحات ادخلت بين ١٤١٤ و ١٥١٧ . لما كان ثمة مجال لان يقوم لوثر بخطوته الهائلة ضد البابوية .

٧٢ - جنوب شرق اسية ١١٩٠ - ١٥١١

شهد جنوب شرق اسية . خلال القرون الثلاثة (بين ١١٩٠ و ١٥١١) . تبدلا سياسيا واثنيا (عرقيا) ودينيا كبيراً : فشل الهجوم المغولي ؛ وانتشار شعوب تتكلم لغات جنوب اسيوية قارية احادية المقطع واستقرارها وسيطرتها - خصوصا الثاي ؛ وانتشار البوذية الترافادية (السيلانية) والاسلام ؛ ووصول الملاحين من المسيحية الغربية - البرتغاليين .

محاولات المغول البرية والبحرية . بالنسبة الى جنوب شرق اسية . باءت بالفشل (١٢٥٧ و ١٢٨٥ و ١٢٨٧) . وحتى الجزء الذي احتلوه من بورما (١٢٨٧) اضطروا الى اخلائه في ١٣٠٣ . والواقع ان المغول هنا . كان وضعهم مثل وضعهم في سورية (١٢٦١ - ١٣٠٣) - كانوا بعيدين عن قاعدتهم في الاجزاء القصوى من السهوب الاوراسية . يضاف الى هذا انهم قوبلوا باصرار على المقاومة في الميدانين . (حملة المغول البحرية على جاوه ١٢٩٢ انتهت بانكسار مثل هجومهم على اليابان ١٢٧٤ و ١٢٨١) .

في العقود الاخيرة من القرن الثالث عشر كانت تقوم في اندونيسيا امبراطورية في سومطرة واخرى في جاوه . وحوالي سنة ١٢٩٥ دخل الاسلام اندونيسيا (في الجزء الشمالي الغربي من سومطرة) .

في سنة ١٤٠٣ انشأ امير سومطري (بَرا مسافرا) دولة ملقا على البر القاري للمضيق الذي يحمل الاسم نفسه . في سنة ١٤١٤ كان برامسفارا قد اسلم وتسمى محمد اسكندر شاه . ومن هنا اخذ الاسلام ينتشر في اندونيسيا . وكانت الصين . واماكن على الطريق . قد اعتادت منذ القرن الثامن على التجار العرب والايرانيين الذين كانوا يتاجرون بين الخليج العربي وما اليه والصين . لكن انشاء دولة ملقا كان باعثا هاما على نشر الاسلام في اندونيسيا . والذي يجب ان يذكر ان الاسلام انتشر في جنوب شرق اسية لأن الحكام

المحليين كانوا يعتنقونه طوعا ، لا بقوة السيف. وقد قبل الاندونوسيون الاسلام واحتفظوا بالثقافة الهندية التي كان قد مر عليها نحو الف سنة وهي تتجذر هناك.

دخلت البوذية الترفادية (السيلانية) الى بورما سنة ١١٩٠ ، ومنها انتشرت في المنطقة وامتزجت بالثقافات الموجودة. وقد ظلت مناطق واسعة . مع ذلك . في فلك الحضارة الهندية .

في العقود المبكرة من القرن السادس عشر كانت منطقة جنوب شرق اسية قد تغيرت اثنيًا (عرقيا) . فالبرميون تغلبوا على حوض ايراوادي الاسفل . والفتناميون تغلغلوا في شمال فيتنام الى حول ١٠٠٠ ثم اتجهوا جنوبا ايضا . الى دلتا نهر ميكونغ .

وفي هذه الفترة ، وبخاصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، انتشرت البوذية (الترافادية) بين التايين . كما انتشر الاسلام في يونان الصينية وفي بعض دلتا ميكونغ وفي الملايو .

وهكذا لما استولى البرتغاليون (١٥١١) على الملقاكان جنوب شرق اسية قد توزعته اربع ديانات – منها اثنتان حديثتان البوذية والاسلام . على ما ذكرنا . وفي جزيرة بالي كان الدين الهندوكي هو المنتشر . وفي بورنو كان الناس مسلمين على الساحل . لكنهم وثنيون في الداخل .

٧٣ - شرق اسية ١٢٨١ - ١٦٤٤

لاول مرة في تاريخها وقعت الصين بكاملها تحت حكم اجنبي (١٢٧٩) . والولاية الوحيدة التي ظلت فيها مدنية صينية هي شمال فيتنام . الا ان هذه كانت قد اختطت لنفسها سبيلا خاصا . فالصين (١٢٧٩) والهند (١٥٦٥) كانتا في وضع متشابه - كل خسرت استقلالها. الا ان احتلال المغول للصين جاء دفعة واحدة (١٢٠٥ - ٧٩) وكان كاملا . اما احتلال المسلمين للهند طال امده حتى تم (١٢٠٢ - ١٥٦٥) .

اليابان صدت الهجوم المغولي (برا وبحرا) في ١٢٨١ . الا انها عانت فوضى ١٢٨١ - ١٦١٤ لم تعرف لها مثيلا في تاريخها . اما احتلال المغول للصين (١٢٧٩) فاعطاها وحدة سياسية استمرت حتى سنة ١٩١١ . ولو ان الحكم فيها كان وطنيا من حول سنة ١٣٨٢ الى حول سنة ١٦٣١ في الواقع . وتوحيد الصين سياسيا تحت الحكم المغولي جعل منها مركز الثقل للامبراطورية المغولية الواسعة . قوبلاي خان (حكم ١٢٦٠ - ٩٤) نقل عاصمته من قراقورم الى بكين (١٢٦٧) واتم القناة الكبرى (١٢٨٩) . وعندها اصبح من الممكن ان تحمل حاجة بكين من الارز من الجنوب بطريق نهري .

كانت اسرة الايلخانات في العراق وايران في الغرب الاقرب الى الصين . وهذا يفسر الاثر الثابت والمستمر للفن الصيني على الفن الايراني المنظور والفخار . في ما قبل المغول ارسلت الصين صناعة الورق الى الغرب . حتى وصلت المسيحية الغربية . والعصر المغولي بعث بالطباعة والبارود الى الغرب اللذين قبلا هناك حالا .

وقد ظل الحكام المغول ورعاياهم الصينيون على شيء من الجفاء . والمغول استخدموا المسلمين والمسيحيين في الاعمال الادارية . والعلماء الكونفوشيون العاطلون عن العمل نفحوا الادب الصيني بالتمثيلية والقصة . ولم يكن ثمة مجال لتواصل ثقافي بين الشعبين المغولي والصيني. ومن ثم فان حكم المغول للصين كان عابرا . وقامت ثورات

ضد المغول بدءاً من اربعينات القرن الرابع عشر. وكان الاكبر نجاحا تشو يوان- تشانغ (١٣٢٨-٩٨) الذي وحد الصين واسس اسرة مِنغ (١٣٦٨) وتسمى الامبراطور هونغ- وو. وفي سنة ١٣٨٢ كان قد اخرج المغول من الصين وقضى على جميع منافسيه. واحتفظ بالعاصمة في نانكين، لكن احد خلفائه اعادها الى بكين، في الشمال، لانه اراد ان يكون على استعداد لدفع المغول فيما لو عادوا ثانية.

ذلك ان المغول كانوا لا يزالون في السهوب. ومن الممكن ان يهاجموا الصين ثانية. ولذلك قام اباطرة منغ بالهجوم على السهوب. لكنهم لم يظفروا بالمغول. حتى كسرهم هؤلاء كسرة شنيعة (١٤٤٩) لكنها لم تكن بالغة الخطورة بالنسبة الى البلاد جمعاء.

عاد الى الكلاسيكيات الكونفوشية دورها اذ اختار حكام منغ موظفيهم على اساس الامتحانات في هذه الآداب. (يعود هذا النظام اصلا الى القرن الاول ق. م. واعيد اليه اعتباره في القرن السادس الميلادي.) والنظام الذي عاد الى الحياة في ايام منغ ظل قائما في البلاد الى ١٩١١. سنة الغاء الامتحانات العامة. والموظفون الرئيسيون كانوا يختارون على هذا الاساس. اما في الولايات فقد كان الكتاب من غير المتعلمين على غير النظام الكونفوشي، وكانوا يقومون بعملهم مجانا. بوصفهم من اصحاب الاملاك.

والواقع ان اجتياز الامتحان العام. والحصول على الشهادة الكونفوشية. كان يضع الناجح في منزلة اجتماعية مرموقة. ويجعله ملزما ان يقوم بخدمة عامة. بالاجر او بالمجان.

وكانت اسرة منغ اكثر وعيا لماضي الصين الثقافي من الذين سبقوها. في سنة ١٤٠٣ - ٧ رعى الامبراطور يونغ - لو تأليف موسوعة كانت تحتوي (في نسختها المنقحة) ٢٢٨٧٧. كتابا (في ٩٥. ١١٠ مجلدا) وستين كتابا هي فهرس المحتويات. وهذه الموسوعة ظلت مخطوطة. فحتى الصين لم يكن باستطاعتها ان تطبعها. لا تكنولوجيا ولا ماليا.

ومع ان الموسوعة كانت تعنى بالماضي. فان الفلسفة والادب الصينيين كانا لا يزالان حيين في عصر منغ. ولكن كان ثمة مجال للاختلاف الجزئي الذي كان قد

بدأ في القرن الحادي عشر. كان وانغ يانغ - منغ (١٤٧٢ - ١٥٢٩) يرى ان عقل الكائن البشري وحصيلة الحقيقة النهائية صنوان. ولكن المدرسة الاخرى. مثل مدرسة وانغ. كانت متأثرة بالبوذية الى درجة ما. والخلاف كان حول قضايا ميتافيزيقية. ويمكن القول اجمالا بان الفلاسفة الصينيين كانوا. في جميع فترات التاريخ. يعنون بالاخلاق والعمل اكثر من عنايتهم بالميتافيزيقيات والتأملات - هذا باستثناء الطاويين. وقد كان وانغ آخر فيلسوف صيني كبير الذي تأثرت اراؤه بالبوذية فقط وليس بالفلسفة الغربية. وقد وصل البرتغاليون الاوائل الى الصين سنة ١٥١٤. اي قبل وفاة وانغ بخمس عشرة سنة.

بين الاجانب الذين احتلوا الصين كان المغول ابعد ما يمكن. والمنشو اقرب ما يمكن. لاسلوب الحياة الكونفوشي. ومن ثم فالاولون لم يتقبلوا الموظفين الصينيين العلماء. والآخرون تقبلوهم بسرور. وقد ضم يونغ - لو (حكم ١٤٠٣ - ٢٤) منشوريا الى الصين.

وقد اخذ المنشو يتقبلون المدنية الصينية منذ اواخر القرن السادس عشر. فقد اقتبس نورها شي (١٥٥٩ - ١٦٢٦) صيغة مغولية من الفباء سريانية لكتابة لغة قومه (المنشوية). وترجمت بعد ذلك الكلاسيكيات الصينية الى المنشوية.

في سنة ١٦٤٤ حاصر ثائر صيني اخر اباطرة منغ في العاصمة. فانتحر الامبراطور. وفي السنة نفسها احتل المنشو بكين ثم استولوا على الصين.

ذكرنا ان اليابان مرت بعصر فوضى سياسية عنيفة بين ١٢٨١ و ١٦١٤. (وبخاصة بين ١٣٣٨ و ١٥٧٣). لكنه كان يرافقها حيوية اقتصادية وفنية كبيرة. ومع ان الحكومة الصينية كانت قد فرضت حدودا معينة لحجم التجارة الصينية اليابانية (في القرن الخامس عشر) فان التجار - القرصان اليابانيين تجاهلوا ذلك. واعانهم بعض الصينيين. وقد شهدت اليابان. داخليا. ازديادا في النشاط الاقتصادي وارتفاعا في مستوى المعيشة وتقوى دور المشاة في الحروب الاهلية (الامر الذي اضعف احتكار القوة من قبل) وقيام اتحادات (طوائف) صناعية وتجارية ونشوء المدن الحرة. (وظهرت ايضا طبقة من المنبوذين).

ولم يكن ثمة اهتمام بالزِن (وهي صيغة بوذية ماهايانية) فحسب. بل

ظهرت «طقسية الشاي» . وهي عادة اجتماعية للتخفيف من الحدة التي كان المتقاتلون يبدونها . وازدهر رسم الطبيعة على الاسلوب الصيني . والعناية بالحدائق (وهو فن ياباني مميز) . وثمة انجاز ثقافي اهم هو خلق صنف من التمثيلية اسمه «نو» (حول ١٣٥٠ – ١٤٥٠) . وقد اتخذ كل شيء فيها اسلوبا معينا ثابتا – اللباس والتمثيل والكلام والنطق والغناء والموسيقى . (تصح مقارنته بالتمثيلية الديونيسية اليونانية الاتيكية في القرن الرابع ق . م .) .

اخذت احوال اليابان تتحسن قليلا بعد ١٥٣٤ . اذ قلت الحروب الاهلية وحل التوحيد السياسي محلها . وفي ١٥٤٢ (او ١٥٤٣) ادخل البرتغاليون الاسلحة النارية الى اليابان . وفي غضون عشرين سنة كان استعمالها قد شاع !

وكان الرجل الذي انتهت اليه مقاليد الامور هو «ايازو» (١٥٤٣ – ١٦١٦) . الذي حكم فعلا في ظل امبراطور صوري كان يقيم في كيوتو . اما ايازو فقد اتخذ ايدو عاصمة لادارته – وهي طوكيو الحالية .

٧٤ - المدنية في ميزو اميركة والاندز ١٤٢٨ - ١٥١٩

في القرن الخامس عشر . وفي الوقت ذاته تقريبا . انشأ مجتمعا ميزو - اميركة والاندز . كل في محيطه . امبراطورية شملت القسم الاكبر من المنطقة . فالازاتكة (وهم المكسيكيون) كانوا اول من انشأ امبراطورية في عالم ميزو- اميركة وكان الانكا ، على الارجح ، هم ايضا الاوائل.

وقد اعان الازاتكة على بناء امبراطوريتهم وجود عدد من المدن - الدول المستقلة في منطقة البحيرات في المكسيك . كانت نتيجة . انهيار امبراطورية تولا (القرن الثاني عشر) واستقرار جماعات مختلفة في تلك المنطقة . وكان يربط بين هذه المدن - الدول لغة واحدة هي ناهوتال . وكان الازاتكة برابرة هبطوا منطقة البحيرات في وقت لم يكن لهم فيها مكان . فاستقروا في جزر في بحيرة توكسيكوكو . وجعلوا من المنطقة جنة زراعية بسبب حاجتهم ومهارتهم . كما انهم مهروا في تخطيط المدن وفي التجارة والحرب . وجمع الازاتكة بين معتقداتهم الدينية وما حصلوا عليه من الجيران واعتقدوا بان «الزمن» هو تعاقب «فترات» طويلة المدى الزمني. واخترعوا كتابةً صورية وفونيمية وكتبوا شعرا لطيفا. لكنهم ظلوا محتفظين بتقديم الضحايا البشرية. فلما وصل الاسبان الى تلك البلاد واحتلوها اوقفوا هذا العمل الوحشي . الا ان هؤلاء الاسبان عذبوا اسرى الحرب من الازاتكة والانكا . لما وصلوا الى بلادهم . كي يحصلوا منهم على المعلومات المفيدة لهم . للوصول الى الكنوز المخفية .

في سنة ١٢٤٨ استولى الازاتكة على امبراطورية تيبانك في منطقة البحيرات . وهي الامبراطورية التي عمل الازاتكة من قبل كمرتزقة لانشائها . وكان تلاكالل هو منفذ الفكرة. وجمع السلطة بيده مكنت الازاتكة من انشاء امبراطورية كانت تمتد عبر ميزو- اميركة من المحيط الهادي الى المحيط الاطلسي. وضمت ايضا ساحل المحيط الهادي الى الحد الحالي بين مكسيكو وغواتيمالا. وقد بلغت

هذه السعة في سنة ١٥١٩ . وهي السنة التي وصل فيها كورتيس الى البلاد . ولكن تلاكالل ترك . داخل هذه الامبراطورية . المدينة– الدولة تلاكسكالا مستقلة عمدا . ليحصل منها . بسبب الحروب التي كانت تدور رحاها . على الحاجة من الاسرى لتقديم الضحايا البشرية اللازمة .

وقد حافظت امبراطورية الازاتكة على وجودها بان اقامت حاميات عسكرية بين الشعوب التي استولت على بلادها . كما لجأت الى الرعب والخوف بشكل خاص . فقد فرضت على تلك الشعوب ضرائب باهظة بالعنف . وكان الاولاد والبنات . الذين يقدمون ضحايا للآلهة . جزءا من الضريبة . كما فرض على الشعب ضريبة من المواد الغذائية والاقمشة والحجارة والمعادن الثمينة وغيرها من السلع . وكان التجار الازاتكة مخبرين للدولة . كما كان ممثلو الامبراطورية هم جامعو الضرائب .

وبعد تدشين امبراطورية الازاتكة بنحو عشر سنين اخذ الانكا بانشاء امبراطوريتهم في الاندز . وقد امتدت امبراطورية الانكا . حول اواخر القرن الخامس عشر . بحيث شملت اكثر عالم الاندز . ومع انها كانت اوسع من امبراطورية الازاتكة . فانها كانت اقل سكانا من هذه . ولم يكن عند الانكا وسائل نقل على العَجَل . وكل ما كان لديهم هو حيوان اللاما . كما ان الانكا لم يعرفوا الكتابة . وكل ما كان عندهم هو المعروف «بالكويبوس» وهي خيوط تعقد فيها عقد . والخيوط نفسها كانت لها الوان مختلفة . والالوان والعقد كانت الاساس الذي استعمل لادارة البلاد وتنظيم مصادر الثروة في هذه الامبراطورية الواسعة التي كانت في حجم الامبراطورية الفارسية الاولى او في حجم الامبراطورية الرومانية .

وقد كان التنقل في انحاء الامبراطورية منتظما وجيدا . فالطرق كانت تجتاز الاودية على جسور مصنوعة من حبال مجدولة من انسجة نباتية . وكان على الطرق . وخاصة في المناطق الصحراوية او الشبه صحراوية . بيوت للاراحة مشحونة بالمواد الغذائية . وكانت البضائع والرسائل ينقلها رجال مخصصون لذلك . وكان هناك طريقان متوازيان الواحد في الجبال . وكان عملا هندسيا كبيرا . والثاني على الساحل . وكانت طرق عرضية تسير مع الاودية المنحدرة من الجبال الى الساحل .

كانت الطبقة الحاكمة في الانكا يزداد عددها بمنح اعضاء الشعوب الاجنبية «وضع الانكا» . وبذلك كانت الحكومة تحصل على المدبرين اللازمين لها .

وكانت الحكومة تلجأ الى نقل السكان من مكان الى آخر . كي يظلوا تحت سلطانها . ومن الوسائل التي لجأت اليها الحكومة لضبط الامور هي ان تنقل آلهة الشعوب المغلوبة الى العاصمة . على ان يقوم بالطقوس اللازمة لها كهنة من تلك الشعوب نفسها . كما كانت الحكومة تبني هياكل محلية في بلاد الشعوب المغلوبة لاله – الشمس (اله انكا) .

كانت الضرائب في امبراطورية الانكا اخف منها في امبراطورية الازاتكة . لكنهما كانتا تحسبان حساب الاطفال والسلع في الذي تأخذانه . فكان اولاد النبلاء في البلاد المغلوبة يحملون الى العاصمة (كوزكو) ليعلموا الى جانب اولاد نبلاء الانكا. اما البنات فكن يحملن قهرا . كجزء من الضرائب . ليتخذن زوجات للامبراطور وحاشيته . او لادخالهن الى الاديرة . ومع ان هؤلاء الراهبات كن يضحين احيانا . فان الضحايا البشرية لم تكن جماعية عند الانكا كما كانت عند الازاتكة . فهنا كن جميعهن يقدمن ضحايا . وابناء النبلاء من غير الانكا الذين كانوا يحملون الى العاصمة ويعلمون فيها . كانوا يجبرون على الخدمة العسكرية .

وكانت لغة الانكا . كوتشوا . هي اللغة المستعملة في الامبراطورية لهذه الشعوب المنوعة . كما كانت لغة اخرى . ايمارا . اللغة المستعملة في المنطقة الجنوبية الشرقية من الامبراطورية .

وقد كانت اللغتان ونقل السكان والطرق الامبراطورية وسائل فعالة لربط اجزاء الامبراطورية واحدها بالآخر . ومع ذلك فان المحافظة على امبراطورية بتلك السعة كان امرا صعبا . ومن ثم فان حربا اهلية قامت في البلاد . لما توفي هوايان كاباك (١٥٢٥) . بين الشمال والجنوب . وقد انتصر الشماليون . لانهم كانوا قد تمرسوا بالحروب اكثر من الجنوبيين . في ذلك الوقت وصل بيزارو الاسباني . ونزل على شاطىء المحيط الهادي للمرة الثالثة .

٧٥ - اندماج الاويكومين ١٤٠٥ - ١٦٥٢

خلال الفترة الممتدة من حول ١٤٠٠ الى ١٥٥٠ تبدلت الصورة العقلية لموطن الانسان على الارض ومكانته في الكون. فالشعوب التي كانت تتصل بشواطىء الاوقيانوس. رأت ان رقعة الاويكومين اتسعت فجأة. وبالنسبة الى فئة صغيرة. كانت تتسع دوما. وهي التي قبلت الرأي الثوري الذي جاء به الفلكي البولندي كوبر نيكوس. فان رقعة الاويكومين تقلصت فجأة بالنسبة الى مساحة الكون.

منذ ان ظهرت المدنيات الاقليمية الاولى. قبل ٤٥٠٠ سنة من ايام كوبرنيكوس كان الرأي المقبول هو ان الارض هي مركز الكون. وكانت لكل مدنية مكانها المختار ليكون مركز الارض. في نظر شعوب شرق اسية كانت الصين هي «المملكة» المتوسطة «المركزية». وكان الهنود يرون ان وسط الارض يقع حيث توجد ولايتا اثار بادش وبيهار اليوم. وكانت مكة مركز الارض عند المسلمين كما كانت القدس عند المسيحيين واليهود. وكان للمدنيات المندثرة مراكز كذلك - دلفي بالنسبة الى اليونان. ورأس الدلتا بالنسبة الى مصر الفرعونية ومدينة نيبور عند السومريين.

ان المدنيات الاقليمية المتجاورة قامت بينها صلات. سلمية او عدائية. والامبراطورية المغولية الواسعة. ولكن العابرة. اقامت احتكاكا مباشرا بين شرق اسية والمسيحية الغربية موقتا عبر السهوب الاوراسية. وقد دار بحارة بافريقية من الشرق الى الغرب في القرن السابع ق.م. وعند منقلب القرن العاشر الى الحادي عشر وصل النورمان الى ساحل غرب غرينلاند واستوطنوا هناك. دون ان يعرفوا انهم كانوا على عتبة عالم جديد. ولكن من المؤكد انه لم يعبر المحيط الاطلسي بحار قبل كولمبوس ١٤٩٢ على خطوط العرض الدنيا، في اي من الاتجاهين. ولسناندري فيما اذا كان الانسان قد اجتاز المحيط الهادي بتعمد. وكان فاسكو دي غاما اول بحار دار حول افريقية من الغرب (١٤٩٨). وان السفينة فكتوريا (وهي التي سلمت من اسطول مجلان) كانت اول سفينة دارت حول

الارض (١٥١٩ - ٢٢) .

في القرن الثالث ق.م. كان الجغرافي اليوناني - الليبي إيراتوسثينس قاس محيط الارض قياسا قريبا جداً من الصواب . وهذا ما اوضحته سفينة فكتوريا . لكن تقدير كولمبوس كان خاطئا . وهذا ما شجعه على المغامرة في المحيط الاطلسي . وكان الفلكي اليوناني أرسطرخوس (القرن الثالث ق.م.) قد ارتأى ان الارض سيار حول الشمس . وانها بالاضافة الى انها تدور حول الشمس مرة في السنة . فانها تدور حول نفسها مرة كل اربع وعشرين ساعة . لكن خلفاءه في القرن التالي من اليونان رفضوا رأيه ، لكن نيقولا كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) كان قد عرف الحقيقة (١٥١٢) .

اكتشاف كوبر نيكوس ومسيرة السفينة فكتوريا . جعل مسكن الانسان اكبر واصغر . فالاويكومينات التي كانت من قبل تتمركز في بكين وبنارس ومكة والقدس وكوزكو اندمجت في اويكومين واحد .

في سنة ١٤٩٣ قسم البابا اسكندر السادس الارض (خارج المسيحية الغربية) بين اسبانية والبرتغال بحيث كان الحد الفاصل خطا طوليا . وفي السنة التالية اتفقت اسبانية والبرتغال على حد جديد (١٤٩٤) واخيرا عقدت معاهدة بين الدولتين (١٥٢٩) كانت في مصلحة البرتغال في المحيط الهادي. الملقا للبرتغال والفيليبين لاسبانية.

ومع ذلك فان الاويكومين المندمج كان . ولا يزال . هو افضل جزء من المحيط الحيوي . الارض تابعة للشمس . والشمس كوكب ثابت بعيد عن جاره ابعد من الارض عن الشمس. وفي هذا الكون المتسارع اصبحت الارض مجرد ذرة من الغبار !

لقد اندمج الاويكومين فجأة. وجاءت معه تطورات مستحدثة. لقد كان ذلك ضربة قاضية بالنسبة الى الازاتكة والانكا والى سكان غرب افريقية الذين كانوا في متناول تجار الرقيق الاوروبيين. لقد سر الازاتكة والانكا اولا حين تحرروا . لكنهم سرعان ما اكتشفوا ان القضية كانت تبديل سيد بسيد.

وبالنسبة الى المسيحية الغربية كانت السيطرة على المحيط في مصلحة البلاد الواقعة على المحيط الاطلسي وسواحل بحر الشمال . لكنها جاءت ضارة بمصالح سواحل بحر البلطيق والبحر المتوسط . فالاستيلاء على كنوز اباطرة الانكا وصهرها وسكها نقودا كان لها تأثير كبير وارسالها الى اوروبة ادى الى ارتفاع في الاسعار (تضخم). وقد تأثرت بذلك احوال

الطبقات المختلفة في جميع دول اوروبة الغربية. باشكال متعددة. وكان البرتغاليون والاسبان اول من تأثر واشد من تضرر. لكن قبل نهاية القرن السادس عشر كان التضخم الجديد قد تجاوز حدود المسيحية الغربية. واخذ يؤثر في اقتصاد الامبراطورية العثمانية. ومن ثم فليس من الغريب ان تثري فئات وتفقر جماعات وينعدم التوازن الاقتصادي الاجتماعي في المسيحية الغربية وغيرها. وليس ثمة غرابة في ان يقع المرء على حوادث مؤلمة. كانت ترتكب باسم الدين والدولة. وهما عنها بعيدان!

بعث الامبراطور الصيني يونغ-لو اول اسطول صيني غربا في سنة ١٤٠٥. في سنة ١٤١٧ نقلت سمكة الرنكة مكان بيضها وتفقيسه من البلطيق الى البحر الشمالي (١٤١٧). وارسل هنري الملاح بعثته البحرية الاولى جنوبا سنة ١٤٢٠. هذه هي التحركات البحرية الرئيسة في مطلع القرن الخامس عشر.

كان أمير البحر عند يونغ-لي تشنغ هو. وهو خصي مسلم من يونان؛ وقد قام بسبع رحلات بحرية بين ١٤٠٥ و١٤٣٣. وقد وصل هرمز وعدن ومداخل البحر الاحمر. كما وصلت سفن منفردة من اسطوله الى شرق افريقية. وقد كانت احجام السفن الصينية. وعددها في كل اسطول. والقوة التي كانت تمثلها مجموعة السفن اكبر بكثير من مقابلها من اساطيل البرتغاليين. ففي الحملة الصينية الاولى، التي وصلت الهند (١٤٠٥-٧)، كان هناك ٦٢ سفينة تحمل ٢٨.٠٠٠ رجل. وكانت السفن مزودة بالبوصلة البحرية (وهي اختراع صيني) وحجر لا تصل اليها المياه. وكانت اكبر سفينة يبلغ طولها نحو ١٢٢ مترا.

وقد ظلت السفن الصينية اقوى سفن في العالم الى ان بنى البرتغاليون سفنهم الجديدة في وقت متأخر من القرن الخامس عشر. وقد اوقعت الرعب في قلوب سكان الاماكن التي وصلت اليها وقد كان باستطاعة الصينيين، لو انهم ثابروا على سيرهم، ان يصلوا هرمز قبل البرتغاليين، وان يدوروا حول رأس الرجاء الصالح قبلهم.

كان الامبراطور يونغ-لو يعنى بحدود بلاده الشمالية. وقد قاد بنفسه خمس حملات ضد السهوب الاوراسية. لكن الصين الموحدة يومها كان لها من مواردها ما يمكنها من السير برا (الى الشمال) وبحرا (الى الشرق الاوسط) في وقت واحد. لكن يبدو ان ثراء الصين في تلك الازمنة هو الذي حملها على العزوف عن الاستمرار في الحملات البحرية بعد ١٤٣٣. (وقد ذكر احد اباطرة الصين لرسول بريطاني زار بلاده سنة

١٧٩٣ . بعد ان كانت الثورة الصناعية في بلاده قد قطعت شوطا لا يستهان به . ان الصين كانت مكتفية ذاتيا من الناحية الاقتصادية .) اما الدول الاوروبية فقد دفعها فقرها الى تشجيع المحاولات البحرية وتأييدها . وقد كان تجار الصين (في القرن الخامس عشر) على درجة من النشاط والفعالية يعادل معاصريهم من الاوروبيين الغربيين . لكنهم لم يسمح لهم بالقدر المماثل من الحرية في النشاط التجاري . لانهم كانوا يخضعون لدولة تقوم على الموظفين الذين كانوا يرون ان العقلية التجارية هي دون قيمتهم الاجتماعية . فالامبراطورية الصينية الحديثة (يومها) كان لشعبها . مثلما كان لشعب الامبراطورية الرومانية الشرقية في العصور الوسطى . ميل واتجاه طبيعيان للتجارة . لكنهما كانا بحاجة الى دولة لها عطف وتقدير للعبقرية الوطنية .

وقد ثابر البرتغاليون . فقد دار دياز حول رأس الرجاء الصالح (١٤٨٧) والقى فاسكو دي غاما مراسيه على ساحل الهند الغربي (١٤٩٨) . ووضع البوكيرك المحيط الهندي تحت نفوذ البرتغال لما احتل غوا (١٥١٠) وملقا (١٥١١) وهرمز (١٥١٥) . وقد كانت استراتيجية البوكيرك البحرية شبيهة باستراتيجية المغول البرية في القرن الثالث عشر في مداها الجغرافي . وقد وصلت السفن البرتغالية كنتون (١٥١٤) ووصلت احداها اليابان (١٥٤٢) . وقد كان الاحراج الذي وقعت فيه الدول الاسلامية بسبب مواجهة البرتغاليين (بين ١٥٠٣ و١٥٥١) في النفوذ في المحيط الهندي كبيراً .

وقد كان نجاح البرتغاليين الكبير نتيجة شجاعتهم وتفننهم . فقد بنوا (بين حول ١٤٤٠ و١٤٩٠) سفنا قوية استطاعت ان تسيطر على البحار مدة طويلة . وقد حسن الهولانديون الاختراع البرتغالي في القرن السابع عشر . وقد ادخلت المدافع في السفن في القرن السادس عشر . وكانت القوة المحركة للسفن هي الرياح . وهي بذلك كانت اقدر على البقاء في البحر مدة اطول . من السفن الميكانيكية التي حلت محلها في القرن التاسع عشر .

وقد ثابر الاسبان ايضا . فقد القى كولمبس مراسيه في العالم الجديد في ١٤٩٢ . ووصل بلباو الى المحيط الهادي (عبر برزخ بنما) سنة ١٥١٣ . وانشئت مدينة بنما الاسبانية سنة ١٥١٩ . واستولى كورتيز على امبراطورية الازاتكة ١٥١٩ - ٢١ . كما قضى بيزارو على امبراطورية الانكا ١٥٣٢ - ٥ . وكانت الامبراطوريتان اللتان قضى عليهما الاسبان تحكمهما حكومتان حربيتان وفيهما شعبان يثق فيهما الناس بانفسهم . لكنهما كانتا قليلتي الحظ . فقد كان في نبوءة الازاتكة ان حدثا سيقع لهم في الوقت الذي هوجمت فيه بلادهم . فكان

الامر استسلاما اكثر مما كان انكسارا. اما بيزارو فقد دخل البلاد بعد حرب اهلية عنيفة.

وقد افاد الاسبان من الخلافات القائمة في المناطق التي اعتزموا فتحها. فقد كان الازاتكة والانكا مكروهين من رعاياهم. كما كان الانكا يختصمون فيما بينهم. فالقادة في خصومة ونزاع. والعاصمة. كوزكو. كانت تنقم على كيتو. المدينة الجديدة لنجاحها. وقد استغل الاسبان ذلك بسرعة. فجند كورتيس فريقا ضد الآخر في بلاد الازاتكة. وفعل بيزارو الشيء نفسه في بلاد الانكا.

على ان عناصر النجاح عند الاسبان كانت تكمن في استعدادهم وقحتهم وهمجيتهم. فالسكان. بعد ان افاقوا من هول الصدمة. قاوموا ببطولة. لكن بطولة المقاومين في العالم الجديد لم تستطع ان تقف امام البارود والفولاذ والخيل التي لم تكن معروفة لديهم. (مع العلم بان الحصان كان قد تطور في اميركا الشمالية قبل وصول البشر من شمال شرق اسية.) وانشأ الاسبان مدنا مستقلة اداريا في نقاط استراتيجية وزودوها بالمحاربين القدماء واعوانهم. وكان الانتقال على الخيل فيه من السرعة ما يعجز عنه الآخرون.

كان الروس. قبل نهاية القرن السادس عشر. يقومون في شمال اسية بمثل ما قام به الاسبان في الاميركتين. لقد فشل العثمانيون (١٥٦٨-٩) في احتلال استراخان. وحفر قناة بين نهري الدون والفولغا. ولم ينجحوا في اختراق الحاجز الروسي الذي كان يفصلهم عن المسلمين في ما وراء النهر. وقد تقوى هذا الحاجز على يد القوزاق. الذين قامت جماعة منهم (١٥٧١) بالاستقرار حول نهر الدون. كما تركزت مجموعة اخرى. حوالى الوقت ذاته. على نهر اورال. وكان القوزاق من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية.

في سنة ١٥٨١ اجتاز مغامر قوزاقي روسي جبال الاورال شرقا وتغلب. لانه كان يملك الاسلحة النارية (مثل الاسبان). على دولة سيبر. وقد تمكن خلفاء هذا المغامر في ١٦٣٧ (او ١٦٣٨) من الوصول الى أوختسك. على شاطىء المحيط الهادي الشمالي الغربي. متجنبين المغول المقيمين حول بحيرة بيكال. وتغلب الروس عليهم وانشأوا مدينة إركتسك (١٦٥١). وكان الروس. حول الوقت نفسه. كانوا قد هاجموا حوض نهر آمور (١٦٤٣) ووصلوا الى منشوريا. وكان المنشو يملكون الاسلحة النارية. فردوهم على اعقابهم غربا (١٦٥٨). وقد وقعت معاهدة (١٦٨٩) حددت فيها منطقة الروس هناك. وفي هذه الفترة كان المغول الشرقيون قد اخذوا بالبوذية الماهايانية (حول ١٥٧٦- ٧).

ثم تبعهم المغول الغربيون. وكان هؤلاء يقتعدون المنطقة بين جبال التاي وتيان شان.

قبل نهاية القرن السابع عشر اختلف الاسبان والبرتغاليون . في سنة ١٥٧٨ اصابت البرتغاليين نكبة عسكرية في المغرب (معركة وادي المخازن او الملوك الثلاثة). وفي ١٥٨٠ اتحدت اسبانية مع البرتغال تحت حكم فيليب الثاني (١٥٢٧-٩٨). وفي سنة ١٥٨٨ انكسر فيليب في معركة الارمادا . في محاولته احتلال انكلترا . وبعد ذلك عجزت قوى البلدين (اسبانية والبرتغال) عن حماية الامبراطوريتين البحريتين (الاسبانية والبرتغالية) من تدخل قوى شمال غرب اوروبة الفتية - هولاندا وفرنسة وانكلترا .

وقد قام قراصنة هذه الشعوب باحتلال بعض الجزر في البحر الكاريبي . كما ان الانكليز استقروا في فرجينيا (١٦٢٠) . والفرنسيون نزلوا في اكاديا وانشأوا كوبك (١٦٠٨) . واسس الهولانديون نيو امستردام (نيويورك الحالية) . ان اسبانية خسرت . نسبيا قليلا من املاكها في الاميركتين. وكانت خسارة البرتغاليين في امبراطوريتهم اكبر من خسارة الاسبان. فقد انتزع منهم الهولانديون ملقا (١٦٤١) وسيلان الساحلية (١٦٥٨) . وبين ١٦٠٩ و ١٦٢٣ تغلب الهولانديون على الانكليز في المسابقة لانتزاع اندونيسيا من البرتغاليين.

وكان شرما اصيب به البرتغاليون اخراجهم ، من اسية وافريقية على ايدي الدول الاسيوية والافريقية . فالشاه عباس الصفوي (حكم ١٥٨٨ - ١٦٢٩) انتزع هرمز (١٦٢٢) وفي ١٦٣٢ اخرج الاحباش (الاثيوبيون) البرتغاليين ومعهم اليسوعيون (من جميع الجنسيات الاوروبية) بدون مساعدة اجنبية . وفي الوقت ذاته تقريبا فعل اليابانيون الشيء نفسه . فقد امر هيديوشي باخراج جميع المبشرين المسيحيين من البلاد (١٥٨٧) وفي سنة ١٦١٤ منعت ممارسة المسيحية في البلاد . واضطهد المسيحيون بضراوة في اليابان (١٦٢٢ - ٣٨) . وقد قامت ثورة مسيحية يابانية (١٦٣٧ - ٨) فقضي عليها (بمساعدة الهولانديين) . وتلا ذلك اخراج جميع التجار البرتغاليين من اليابان . وكان قد صدر امر قبل ذلك (١٦٣٦) يمنع اليابانيين من السفر الى الخارج . والتجار الهولانديون الذين سمح لهم بالدخول الى اليابان (١٦٠٣) سمح لهم بالبقاء . لكنهم حصروا في جزيرة في ميناء ناغازاكي .

وقد كان موقف الاثيوبيين واليابانيين من البرتغاليين واحدا تقريبا . فالبرتغاليون . الذين كانوا كاثوليكا متعصبين في اخلاصهم للكثلكة . كانوا معنيين بنشر المسيحية الى

جانب اهتمامهم بالكسب من التجارة . وقد ثارت ثائرة الاثيوبيين على البرتغاليين بسبب محاولة هؤلاء فرض الكثلكة والبابوية عليهم . اما في اليابان فقد خشي هيديوشي وخلفاؤه ان يستغل (الاجانب) اليابانيين الذين اعتنقوا المسيحية لمصلحتهم . وكان سبب هذا الخوف احتلال اسبانية للفيليبين (١٥٧١) وتوحيد التاجين الاسباني والبرتغالي (١٥٨٠) . وهكذا تجنب اليابانيون والاثيوبيون الخطر المحتمل بالتصرف المسبق على ما مر بنا . وبذلك عزل الشعبان نفسيهما عن بقية الاويكومين .

اما الهولانديون والانكليز البروتستانت . وحتى الفرنسيون الكاثوليك . تجنبوا القيام باعمال تبشيرية . ولو ان الفرنسيين كانوا يرغبون في استغلال المبشرين كاعوان سياسيين .

ومعنى هذا انه كان ثمة خلاف في الصيغ التي صدرت بها المدنية الغربية في موجات متلاحقة من الغربيين — تجاراً وبناة امبراطوريات . فالموجة الاسبانية — البرتغالية الاولى جربت ان تصدر المدنية الغربية بكاملها . بما في ذلك الدين . وهو . في اية مدنية . مفتاح تلك المدنية بكاملها . وقد قاومت هذه المحاولة جميع الشعوب غير الاوروبية . حيث وجدت القوة للمقاومة . ومن ثم فان الموجة الثانية . الهولاندية — الفرنسية — الانكليزية . صدرت صيغة مهذبة من المدنية الغربية . والتجار الافراد والسلطات العامة عند الهولانديين والانكليز ازورت بالنشاط التبشيري . ولكن العنصر الاول من هذه المدنية الاوروبية المعدّلة الذي انتشر في الاويكومين في القرن السابع عشر لم يكن الدين ، لقد كان التكنولوجيا . وبشكل خاص تكنولوجيا الحرب .

ظلت بقية من المسيحية الكاثوليكية الرومانية تقيم سراً في بعض الجزر اليابانية . الى سنة ١٨٧٣ . حين الغي القانون الذي كان يعاقب بالموت هؤلاء المسيحيين المتخفين . في ذلك الوقت كانت الكثلكة قد امتزجت بعقائد وممارسات يابانية شعبية . وكذلك حدث في الممتلكات الاسبانية فيما وراء البحار حيث كان الشعب المقهور قد فرض عليه قبول الدين الجديد . لذلك فانه قبله اسميا .

وبناة الامبراطوريات من جميع الجنسيات الاوروبية (الغربية) استغلوا اولئك الذين وقعوا تحت ايديهم . او انهم قضوا عليهم . والفاتحون الاسبان جارهم منافسوهم في طمعهم وقسوتهم . وان لم يتغلبوا عليهم . الا ان الاسبان واجهوا مشكلة جدية لأن المغلوبين على امرهم في المناطق الاسبانية وجدوا . منذ سنة ١٥١٤ . في الراهب الدومينيكاني بارتولوميو . مدافعا عنهم ضد الظلم . وقد نجح في حمل الحكومة الاسبانية

على سن قانون يمنع التصرفات البالغة السوء . وقد قاوم الفاتحون تطبيق هذا القانون احيانا بقوة السلاح . والاسبان والبرتغاليون خففوا من حدة الامور لانهم تزوجوا من نساء البلاد المفتوحة . وقد ادى هذا الى نوع من المزج الاجتماعي ، يتجلى في زي عذراء غوادلوب ، التي هي رمز العبادة الاسبانية هناك .

بدأ البرتغاليون يسترقون سود افريقية لما وصلوا الى ساحل افريقية جنوب الصحراء . وقد سار جميع بناة الامبراطوريات الاوروبيون (الغربيون) على منوالهم . ولما استولى الاوروبيون على بلاد فيما وراء البحار . نقلوا الرقيق الافريقي اليها . الذي كان يلقى عليه القبض في افريقية . ليستعمل في السخرة . وقد كانت الوفيات بين هؤلاء كبيرة . وأرباح تجار الرقيق كانت تتناسب مع ذلك . والافارقة السود كانت حيويتهم كبيرة بحيث انهم خلفوا ذرية كبيرة في الاميركتين هي التي تشارك البيض في انتاج العالم الجديد .

والمجال الحيوي لم يكن تأثره باندماج الاويكومين مقصوراً على الانسان . هجرة وتزاوجاً . فقد كان ثمة خيرات من الحيوان والنبات نقلت من نصف الكرة الواحد الى النصف الآخر . وكان هناك انتشار البكتيريا والفيروس . فجراثيم الجدري نقلت غربا الى الاميركتين . وبالعكس من ذلك فقد انتقل السفلس الى اوروبة بعد وصول كولومبوس بثلاث سنوات - فقد عرفت اول حادثة في اوروبة سنة ١٤٩٥ . وكان ارتفاع الاسعار المخيف الذي عرفته اوروبة الغربية بدءا من سنة ١٥١٩ . كان سببه نقل المعادن الثمينة التي نهبها الاسبان من الازاتكة والانكا . والذي استخرجه الاسبان من المناجم مستخدمين العامل الاميركي سخرة . وهكذا فان زوارا ثلاثة - الجدري والسفلس والتضخم المالي - من نتيجة اندماج الاويكومين . كانت لها امبراطورية لا تغيب عنها الشمس .

٧٦ - المدنية الغربية ١٥٦٣ - ١٧٦٣

ان المدنية الغربية مرت بها ، بين ١٥٦٣ و ١٧٦٣ ، ثورة عقلية وروحية اكبر من اي ثورة مر بها هذا المجتمع منذ ان ظهر بين انقاض الامبراطورية الرومانية . ان المفكرين الغربيين الآن (اي في الفترة المذكورة) ابوا ان يتقبلوا ارث الاجداد على انه امر موثوق به . لقد قرروا انهم ، من الآن وصاعدا ، سيضعون عقائدهم الموروثة على المحك . وذلك عن طريق فحص الظاهرة فحصا مستقلا ، وانهم سيتبعون تفكيرهم الخاص . كما انهم تواضعوا على العيش بسلام مع الاقليات اصحاب البدع . ولم يعودوا يشعرون بانهم ملزمون او مرجو منهم ان يفرضوا عقيدة الاكثرية او طقوسها بالقوة . ولم تكن اية من هاتين الثورتين آنيتين . فقد كان في كل منهما وقفات ونكسات . في سنة ١٦٨٦ نشر فونتنل كتابه «تاملات في تعددية العوالم» . وهو فكرة كلفت دفع جوردانو برونو حياته ثمنها سنة ١٦٠٠ . ومع ذلك فقد عاش فونتنل مئة عام ، ومات في فراشه (١٧٥٧) . وقد نشر نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) كتابه الاصول دون ان ترغمه السلطات الدينية على التراجع ، على نحو ما فعلت بغاليليو (١٦٣٣) . ومع ذلك فان مرسوم نانت الذي سمح للاقلية البروتستانتية بان يُتَساهل بشأنها ، الغاه لويس الرابع عشر ١٦٨٥ .

ان استرقاق الغربيين للسلطة ، كائنا ما كان نوعها ، قديم عهدها (وهي التي تحرروا منها الآن) . ان جميع الديانات غير المسيحية قضت عليها حكومة الرومان الامبراطورية بالقوة قبل نهاية القرن الخامس . وقد ارغم لاهوتيو وفلاسفة المسيحية الغربية على قبول مقولات ارسطو منذ القرن الثالث عشر . كما فرض اسلوب الكتاب اللاتين من عصر شيشرون وعصر اغسطوس على الكتاب اللاتين المحدثين منذ القرن الخامس عشر .

ان البروتستانت ، في ثورتهم ضد الحكومة الباباوية ، فرضوا سلطان الكتاب المقدس بدل سلطة البابوية . وقد كان الامراء البروتستانت متعصبين شأن الامراء

الكاثوليك . في فرضهم الصيغة التي اختاروها من المسيحية الغربية على اتباعهم . والانقسام الذي حدث في صميم المسيحية الغربية حمل الفريقين المتنازعين على تصرف اكثر تعصبا مما كانت عليه الحال في زمن اسلافهم الكاثوليك المتفقين .

وقد كان تقليد الكتاب الكلاسيكيين اقرب الى العبث من تحكم ارسطو في المفكرين المسيحيين الغربيين . ومن الجهة الثانية فان طبع الاعمال الرياضية والعلمية اليونانية في الغرب ، اثار التفكير المستقل . ذلك بان هذه التفسيرات القديمة للظواهر الطبيعية قد رفضت ، فيما بعد ، بسبب الاختراعات التكنولوجية والاستكشافات الجغرافية . ففي هذه الحالة كان «احياء» المعارف «القديمة» السبيل الى منطلقات جديدة .

وقد تمثل تحرير الغرب لنفسه من الطغيان الفكري لاسلافه اليونانيين — الرومانيين في عمل فونتنل الذي تناول فيه القدماء والمحدثين (١٦٨٨) وعمل وليام وُطِن تأملات في العلم القديم والحديث (١٦٩٤) . لكن الحملة كان قد بدأها جان بودان (١٥٣٠ – ٩٦) وكان قد تابعها فرنسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) ورينيه ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) ، قبل ان يربح المحدثون معركتهم الفاصلة . ومع ذلك فقد كان على هؤلاء الفائزين ان يعترفوا بان شعراء بلاط لويس الرابع عشر لم يكونوا شعراء افضل من هوميرس ، ولم يوافقوا على (ومن ثم لم يثيروا) الدعوى المسيحية بان المدنية المسيحية كانت خيرا من المدنية السابقة للمسيحية . والمجالات التي تفوق فيها حماة المنجزات الغربية الجديدة كانت في العلم الطبيعي والتكنولوجيا والفلسفة .

ان الحروب الدينية الغربية (١٥٣٤ – ١٦٤٨ مع وقفات) اثرت على منزلة المسيحية . فقد كانت حروبا فيها تعصب وفيها دعوى كاذبة . فقد كانت اهداف الامراء المتقاتلين سياسية ، ولكن ارتداء قناع ديني كان مناسبا لهم ، والعداء بين المتقاتلين زادتها عنفا حماسة رجال الدين التي كانت اصيلة ، ولوانها سامة . انشئت الجمعية الملكية (لتقدم العلوم) أسستها في انكلترا سنة ١٦٦٠ فئة من المهتمين بالعلوم الطبيعية ، الذين لم يكونوا يهتمون بهدم المسيحية ، بل بتأهيلها خلقيا . وكانت سياسة المؤسسين تحويل افكار معاصريهم وشعورهم من المماحكات اللاهوتية التي لم تكن مجدية كما انها لم تؤد الى قول فصل ، ولفت انتباههم الى القضايا المتعلقة بالظواهر الطبيعية التي كان من الممكن ان تبحث بأناة دون عاطفة ، ومن المحتمل ان توجد لهذه القضايا اجوبة صحيحة عن طريق الملاحظة او التجربة .

ونجد ، في الوقت ذاته ، نقادا وضحايا آخرين للحروب الدينية ، الذين جربوا ان يضعفوا سلطة المسيحية في قلوب الغربيين . وقد كان هؤلاء يعملون في الخفاء ، لان اللعبة كانت لا تزال خطرة . فقد ضمن فونتنل كلمات للذكرى عن الموتى ، لم تكن قط متفقة مع المسيحية . ولما نشر تاريخ المواحي (١٦٨٨) كان اكثر جرأة . وفي سنة ١٦٩٥ - ٧ نشر بيل (١٦٤٧ - ١٧٠٦) وهو بروتستانتي فرنسي كان لاجئا في شمال هولاندا . القاموس التاريخي والنقدي (شكل سابق لموسوعة ديديرو الفرنسي التي نشرت في فرنسة ١٧٥١ - ٦٥) . المتن فيه مريح ، لكن هوامشه وملاحظاته هي ، في بعض الاحيان ، تخريبية .

وادوارد غيبون المؤرخ نشر كتابه انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها (١٧٧٦ - ٨٨) . وقد عزا اعتناق الامبراطورية الرومانية للمسيحية الى عوامل بعيدة عن الاعاجيب . فلم يسلم من النقد اللاذع . كانت انكلترا رائدة في قبول التسامح الديني ، ولكنها كانت تسير ببطء نحو قبول ما هو مخالف للمسيحية من عقيدة او شعور . ولما بدأ جون وزلي عمله (١٧٣٩) كان غيبون (١٧٣٧ - ٧٨) لا يزال طفلا . وقد كان معاصرو غيبون من الفرنسيين ، مثل فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) والموسوعيين اكثر صراحة مع شيء من السلطة . ومع ذلك فان فولتير رأى من المناسب ان يسكن في الجهة السويسرية من الحدود الفرنسية - السويسرية .

في القرن السابع عشر ، نجد ان باسكال (١٦٢٣ - ٦٢) الفرنسي يجمع بين العبقرية العلمية والايمان بالمسيحية . كما نجد ان الاسقف بوسو (١٦٢٧ - ١٧٠٤) وضع تاريخا للعالم وقد كتبه كما كتب اوزيبيوس (حول ٢٦٤ - ٣٤٠) التاريخ - انه عمل اله واحد قادر على كل شيء . ورد عليه فولتير بان وضع تاريخا ثقافيا واجتماعيا للعالم أعطى فيه المكان الاول للصينيين الذين قد عرفت مدنيتهم في الغرب عن طريق المبشرين اليسوعيين .

ومعالم تاريخ التسامح الديني في الغرب يدخل في عدادها رسالة في التسامح لجون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ومقاله في الحكومة المدنية (١٦٩٠) .اما في الخطوات العملية فهناك اعمال ليوبولد الاول ملك هنغاريا من آل هابسبورغ ، وهو كاثوليكي . في سنة ١٦٩٠ منح جميع المسيحيين الحرية الدينية . وفي ١٦٩٠ - ٩٥ رحب بجماعة حربية مسيحية ارثوذكسية شرقية لجأت الى بلاده .

ومع ذلك فان التسامح الديني ، مثل الاستقلال الفكري ، تطور بطيئا في

الغرب . ففي الصين مثلا نجح المبشرون اليسوعيون لانهم لم يعارضوا في ان يحتفظ الصينيون بطقوس احترام الموتى ، باعتبار ان هذا امر مدني لا ديني . لكن السلطات الكاثوليكية اعترضت على هذا ، وعلى ترجمة لكلمة الله ، فنشأ عن ذلك خلاف مع الحكومة الصينية انتهى (١٧٢٣) بحظر المسيحية في الصين بالمرة .

وقد شهد القرن السابع عشر في اوروبة نهاية العقيدة التشاؤمية بان ظهور مذنب هو حدث عجائبي يقصد به الله ان ينذر البشرية بانها مقبلة على خطب جسيم . مذنب ١٦٨٠ ازعج الناس . ولما ظهر مذنب (١٦٨٢) قال الفلكي هالي بانه شبيه بالمذنبات التي ظهرت في ١٤٥٦ و ١٥٣١ و ١٦٠٧ وقاس فلكه وسرعته ومواعيد ظهوره (وكان قد فعل الشيء نفسه لمذنب ١٦٨٠) . وكان ثمة ايمان بالسحر والشعوذة في اوروبة . وقد قتل الاف من الناس الابرياء بتهمة الشعوذة والسحر . وكان آخر مقتل لساحرة سنة (١٧٦٢) .

وقد كان رفض السلطة العليا والتعصب (الديني) والطيرة نصرا عقليا وروحيا . لكن ظل هناك فجوات في البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الغربي . وهذه الفجوات سدت تعمدا في اوقات مختلفة وباساليب متباينة .

فالجدل الديني الذي قد اثار المذابح (مثل مذبحة سان برتوليمو في باريس ١٥٧٢) استعيض عنه بالاهتمام بالرياضيات والعلوم الطبيعية ، على امل ان يزيد هذا في افادة العالم اجتماعيا . (هذه الفكرة المبكرة دعا اليها ليوناردو دافنشي ، ورعاها فرنسيس بيكون ، وهي التي انشأ تلاميذ بيكون الجمعية الملكية على اساسها .) وتوالى ظهور العلماء الذين اتجهوا نحو نفع البشرية مثل هارفي الانكليزي في الطب ، وبويل الذي يعتبر مؤسسا لعلم الكيمياء . ونيوتن الذي طور الفيزياء والفلك ثوريا ، ولينوس الذي نظم فصائل النبات وعائلات الحيوان . وبافون الذي وجد ان الطبيعة وصلت الى ما وصلت اليه عبر عملية طويلة الامد . (وقد عاش هؤلاء بين ١٥٧٨ و ١٧٨٨) .

ورفض ارسطو ، فلسفيا ، لم يحل محله قبول اراء افلاطون . فمفكرو اوروبة في القرن السابع عشر رأوا ان يمسحوا اللوح ويبدأوا من جديد . وديكارت ، الذي وضع منهجه (١٦٣٧) ، ظل معلمة في الحياة الفلسفية لمدة طويلة . ولوك نظر الى المسألة الفلسفية نظرة تجريبية . وجرب سبينوزا (١٦٣٢ – ٧٧) وليبنتز (١٦٤٦ – ١٧١٦) ان يقيما اسسا جديدة للميتافيزيقا . وهوبز (١٥٨٨ – ١٦٧٩) اعتمد لنظريته في العقد الاجتماعي اسسا سيكولوجية . وفيكو (١٦٦٨ – ١٧٤٤) شق طريقاً جديدة في البحث التاريخي . وكان

عمله جديدا الى حد ان معاصريه لم يفهموه[1] . ومع ان الايحاء جاء الى فيكو من الحضارة الهلينية ، فقد كان هو يجمع بين حضارتين.اليونانية والمسيحية . وقد كان عمله الخطوة الاولى في الغرب لدراسة مقارنة للمدنيات .

كانت المسيحية الغربية في العصور الوسطى يربط اجزاءها الواحد بالآخر بابوية تترأس على الجمهورية المسيحية . ولغة لاتينية كانت لغة للدبلوماسية وللعلم وحتى للشعر (الى جانب الشعر المكتوب باللغات المحلية) . وقد بدأ ارازمس بالاستعاضة عن الجمهورية المسيحية الدينية بجمهورية الادب والعلم ، وزودها بيل بدورية (١٦٨٤) . وبسبب تنظيم خدمات البريد سهل التراسل بين اهل العلم واهل القلم . والمراسلات الخاصة ادت الى انشاء الصحف . واول نشرة دورية مطبوعة ظهرت في اوروبة سنة ١٦٠٩ . واول صحيفة يومية بدأت بالظهور سنة ١٧٠٢ . وقد كـان معظم الجامعات . في القرن السابع عشر . قد توقفت حيوتها ونشاطاتها التي عرفتها القرون الوسطى باستثناء جامعة بادوا والجامعات الاسكتلاندية . والفراغ الذي نشأ عن ذلك سدته الاكاديميات التي انشأتها . او على الاقل اعانتها . حكومات الدول المحلية . وقد ساعدت صالونات الادب الفرنسية في القرن الثامن عشر على سد الفراغ ايضا .

والاسر المالكة واسر النبلاء وارتباطاتها عوضت عن الجمهورية المسيحية البابوية . فقد ارتبطت هذه الاسر التي كانت في اعلى سلم الطبقات الاجتماعية بمصاهرات كثيراً ما تخطت الامور الدينية . وقد كان تغيير المذهب . من أجل المصلحة العامة . امرا مقبولا . وقد تشابكت الاسر المالكة واسر النبلاء في هذه المصاهرات بشكل عجيب . الا انه كان احيانا نافعا .

كانت اللغات المحكية قد اوجدت لنفسها مكانا في النتاج الادبي . والشعري خاصة . منذ القرن الثاني عشر . وذلك الى جانب اللغة اللاتينية . فلما بلغت اللغات المحكية الذروة في نجاحها . تفجرت عبقريات ادبية كبيرة في النثر (مثل رابليه ١٤٩٤ – ١٥٥٣) وفي الشعر (مثل شكسبير ١٥٦٤ ١٦١٦) . وهكذا فان عصر الحروب الدينية في

---

(١) وهذا ما حدث لابن خلدون عالم القرن الرابع عشر الذي عزف العرب عن قراءة مقدمته بعد وفاته باقل من نصف قرن. (ن.ز.)

الغرب كان ايضا عصر الشعر العظيم . وقد تخلى الناس عن السيطرة والاضطهاد فكان ثمن ذلك الهبوط من الشعر الى النثر – من حيث انه اصناف جديدة تعبر عن نفسها باللغة المحكية .

ان الشعراء الغربيين في شمالي الالب في القرن السادس عشر ، كانوا واقعين تحت سحر النماذج الكلاسيكية ، اليونانية والرومانية . فبين الفرنسيين عندنا دو بلاي ورونسار ويعاصرهم من الانكليز ويات وهوارد ، ويسير في ركابهم لفيف من شعراء عصر اليصابات وخلفائهم حتى اعادة الملكية في انكلترا وسكوتلاندا (١٦٦٠) .

وقد بهت نور عدد كبير من الشعراء والكتاب بسبب النور الساطع الذي انبثق من شكسبير وملتون (١٦٠٨ – ٧٤) . وبعد انبثاق فجر التنور . ضعف اسلوب الشعراء الغربيين ، مثل كورني وموليير وراسين . وتأثروا بالنماذج النثرية التي اصطنعها باسكال .

والنثر الفرنسي الذي طور خلال القرن السابع عشر كان بسيطا رائقا دقيقا . وكان انسب من اي اسلوب كلاسيكي ، يوناني ام لاتيني ، للغات الهندية الاوروبية . وقد تخلص من امور كثيرة لغوية ، نحوية وما الى ذلك ، كما تخلص من اشباه الجمل المتداخلة في الجملة الاصلية . فالكاتب كان حرا ، والقارىء كان يستطيع ان يتابع المنطق عند الكاتب . وهذه الثورة الاسلوبية في اللغة الفرنسية اخذت الكتاب الانكليز على حين غرة . وكان التبديل حادا وشعوريا . ويمثل دريدن هذه الحالة .

وقد صعدت فرنسة ثقافيا في العالم الغربي بسبب تصدير اسلوبها الادبي وارسالها البروتستانت الفرنسيين – الا في الموسيقى . فقد انتزعت المانية القيادة في هذا من ايطالية . واسرة باخ ، التي برزت بعد حرب الثلاثين سنة ، اذهلت الامراء الذين كانوا يرعونها . وقد كان يوهان باخ (١٦٨٥ – ١٧٥٠) وهاندل (١٦٨٥ – ١٧٥٩) ابرز الالمان في عصرهم . وقد بنى فردريك «الكبير» (حكم ١٧٤٠ – ٨٦) داراً للاوبرا في برلين .

بين ١٤٩٤ و ١٦٤٨ مرت على اوروبة الغربية حروب مريرة . بدءا بالقتال بين فرنسة ودولة هابسبورغ ، وهما دولتان كاثوليكيتان . ثم تلتها حروب اهلية عليها طابع ديني . ودارت رحاها على التوالي في المانية وفرنسة وهولاندا وانكلترا .

وقد ادى قيام هذه الحروب الى تدخل اجنبي ، كان اقله في الحروب الانكليزية ، واكبره في حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ – ٤٨) . اذ اشترك في هذه الحروب المانية وفرنسة والسويد . وقد كانت قيادة دفة السفينة السياسية الفرنسية بيد اثنين من الكرادلة –

رتشليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢) ومازاران (١٦٠٤ - ٦٠) . وكان هذا خلفاً مباشرا للاول .

وفي حساب حرب الثلاثين سنة كانت فرنسة الرابح الاول . وجاءت بعدها دولة هابسبورغ . وقد اجهدت السويد في حرب فوق امكانها وبعيدة عن قاعدتها . واسبانية انهارت . فمع انها اتحدت مع البرتغال سنة ١٥٨٨ ، فان ذلك جاء واسبانية قد اصابها الجهد والتعب . وهولاندا افادت في تقوية مركزها المستقل .

ومع ان اسبانية خسرت قوتها البحرية ، فقد ظلت امبراطوريتها على حالها . وجدير بالذكر ان الدول الاوروبية اخذت تقاتل بعض معاركها الآن خارج اوروبة . ففرنسة وانكلترا وهولاندا ، فضلا عن اسبانية والبرتغال ، كانت لها ممتلكات ومصالح تجارية تقتضي الاستيلاء على نقاط استراتيجية والحفاظ على قدر معقول من القوة البحرية . وفي هذه الحروب فيما وراء البحار خسرت فرنسة (بين ١٧٤٠ و ١٧٦٣) في حربها مع بريطانية السيطرة على اميركا الشمالية والهند . ولكن فرنسة ظلت دولة عظمى حتى بعد ذلك بقرن من الزمان .

ومن الطريف ان انتقال الغرب (في اواسط القرن السابع عشر) من حروب دينية الى حروب القصد منها الحصول على سلطة سياسية ومنافع اقتصادية ، رافقه تقليل من وحشية الحرب . ان الحروب اصبحت الآن منافسة معقولة بين دول تستعمل جيوشا منتظمة ومدربة . والنهب والسلب لم يعودا اصول القتال . والسكان اصبحوا يشعرون بانهم بحاجة الى التأمين على انفسهم . وبخاصة السكان الذين كانوا قد اجلوا عن بلادهم .

ولم تراع الحكومات الغربية هذه القاعدة الانسانية دوما . فالحرب اصلا عمل همجي . والحل الوحيد الغاؤها . ففي سنتي ١٦٧٤ و ١٦٨٨ احالت فرنسة امارة الراين قاعا صفصفا ، عامدة متعمدة ، والمدينة التي كانت تفتح عنوة بعد ان ترفض حاميتها الدعوة الى التسليم ، تعتبر وسكانها موضوعا للنهب وهتك الحرمات . وعلى كل فان الحرب خفضت الى ادنى درجات البربرية في الغرب ، بين ١٦٨٨ و ١٧٩٢ .

٧٧-المسيحية الارثوذكسية الشرقية ١٥٥٦-١٧٦٨

منذ اواخر القرن العاشر، لما اعتنقت روسيا المسيحية الارثوذكسية الشرقية، اصبحت المسيحية الارثوذكسية الشرقية، تتكون من كتلتين-الكتلة القديمة في جنوب شرق اوروبة واسية الصغرى والقفقاس، والكتلة الروسية المعزولة عن القديمة. لكن الكتلة الجديدة- روسيا- ترتبط بالاولى دينيا وبانها كانت تتقبل المدنية البزنطية، يونانيًّا وبلغاريًّا. وروسيا كانت مستقلة، وكانت تتوسع باستمرار، دون ان يحول دونها عائق لا من العثمانيين ولا من غيرهم.

اما الجزء الجنوبي (الاصلي) من المسيحية الارثوذكسية الشرقية، فقد كان تابعا اما للعثمانيين او للمسيحيين الغربيين. وقد كانت الامبراطورية العثمانية تتوسع على حساب امبراطوريات الغرب المسيحي القائمة في المشرق. فقد احتلت جزر الارخبيل (١٥٦٦ و١٦٤٥- ٦٩). ومع ان جماعة صغيرة من اليونان العثمانيين سمح لها بحكم ذاتي، فان الباقين كانوا رعايا.

ومع ان روسيا كانت تتسع شرقا عبر الارض الواقعة خلف السهوب، فقد كانت معرضة لهجمات بدوية عبر الطرف الغربي من السهوب. وكانت دولة التتار في القرم موجودة وهؤلاء احرقوا موسكو (١٦٧١). وامارة المسكوب كانت محصورة داخلية. فالساحل الوحيد لها هو شاطىء بحر قزوين، وهو بحر داخلي. وحتى الدخول اليه لم يكن دوما متيسرا بسبب ان العثمانيين كانوا يملكون حصن ازوف. وفي سنة ١٦١٨ كانت الامور بين روسيا وجاراتها كما يلي: خسرت روسيا (ايام ايفان الرهيب ١٥٥٨- ٨٣) ساحل البلطيق. وكانت لتوانيا- بولندا. قد اقتربت حدودها من موسكو.

بين ٩٨٩ و١٥٨٩ كانت روسيا المسيحية الارثوذكسية تابعة لبطريرك القسطنطينية وهي اكبر جزء من بطريركيته ولو انه منذ سنة ١٤٥٣ كان قد اصبح من رعايا الدولة

العثمانية . وفي سنة ١٥٨٩ جعلت اسقفية موسكو دينيا من درجة بطريركية مستقلة. عندها ارغمت دولة بولندا– لثوانيا الارثوذكس المقيمين فيها بالاتحاد مع البابوية . وقد تم لها ما ارادت بالنسبة للاكثرية .

وحافظت الكنيسة الارثوذكسية الشرقية على عدائها للغرب . حتى البروتستانت الغربيون رفضت التقرب منهم . مع انهم كانوا لا يقبلون بسلطة البابا وبطريركية القسطنطينية لم تتعاون مع البروتستانت البولانديين . وقد استمر هذا الى القرن الثامن عشر . فان فولغاريس (١٧١٦ – ١٨٠٦) وهو مرب يوناني . اضطهدته السلطات اليونانية الكنسية لانه تعلم في المانية . ولانه كان عارفا بالفلسفة الغربية .

وقد ظلت البطريركية متفيئا لليونان العثمانيين بعد زوال الامبراطورية الرومانية الشرقية . كانت ادخال العنصر الغربي في روسيا بالذات على يد بطرس الاكبر (حكم بنوع من الصداقة نحو الغرب . فقد كان رجال الاعمال من الاتراك العثمانيين يجنون الارباح من اتجارهم مع الغرب . فالتجارة اليونانية العثمانية البحرية في البحر المتوسط . زادت فعاليتها بالتجارة البرية مع اواسط اوروبة . لما عجزت الدولة العثمانية عن احتلال فينا (الحصار الثاني ١٥٨٣) . وصارت دولة هابسبورغ تتسع شرقا على حساب الدولة العثمانية .

واليونان الذين احتكوا تجاريا او سياسيا مع الغرب . اعجبتهم مدنية الغرب . وقد درس يونان عثمانيون ويونان بنادقة في جامعة بادوا . ووضع الكتاب الكريتيون كتبا باللغة اليونانية العامية متبعين الاسلوب الغربي .

وقد افاد اليونان العثمانيون من اتصالهم بالغرب سياسيا لما بدأ التيار يهب عكس الاتجاه العثماني . بسبب حروب الدولة العثمانية المستمرة مع الدول الغربية المسيحية . واحتاجت الدولة العثمانية الآن الى الدبلوماسيين القادرين على المفاوضة مع الغربيين . وقد انشيء (١٦٦٩) منصب ترجمان الباب العالي (وهو منصب يعادل رتبة وزير الخارجية) وذلك من اجل اليونان الذين درسوا في الغرب . وقد كان حكام الفلاخ وملدافيا من اليونان العثمانيين .

وقد اصبح اليونان العثمانيون الدارسون في الغرب «المؤسسة» الصغرى بالنسبة الى المؤسسة العثمانية الكبرى .

والحادثة الكبرى في القرنين السابع عشر والثامن التي المت بالمسيحية الارثوذكسية

قانونا ١٦٨٢ - ١٧٢٥ ، وفي الواقع ١٦٩٤ - ١٧٢٥) . بطرس لم يبدأ ذلك لأن التأثير الغربي كان يدخل عن طريق ميناء اركنجل (على البحر الابيض) وعن طريق الاوكرانيين. وقد بدل بطرس بطريركية موسكو من بزنطية تقليدية الى النموذج الغربي المعاصر، ذلك بانه استبدل الاسقف (لما خلت الاسقفية من صاحبها ، ولم يختر بطرس بديلا له) بمجلس كان ، في الواقع ، ادارة من ادارات الدولة . لم يتدخل بطرس في موقف الشعب الديني من الكنيسة الارثوذكسية الشرقية .

الدولة الروسية في ايام بطرس الاكبر كانت واسعة ، لكنها لم تكن لها شواطىء. وقد حصل بطرس على ساحل في البلطيق. وكان بطرس يعتقد ان الانتصار على اي دولة غربية ، حتى السويد على صغرها ، كان بحاجة الى تبديل تام في الاستراتجية والتكتيك ، اساسه تقبل ما عند الغرب من تنظيم عسكري وبحري وما عندهم من تكنولوجيا. وهذا كله لا يتم إلا بالتبديل الاداري الشامل ، وبالتغيير في القطاع الصناعي من الاقتصاد الروسي .

كان بطرس مغرما بالتكنولوجيا ، وكان يفهمها. في الجيل السابق للفترة التي هي موضوع حديثنا ، كان مؤسسو الجمعية الملكية يدركون تماما مدى ما يمكن ان يتعلمه التقنيون ورجال العلم من بعضهم البعض. وقد كان بطرس تقنيا متمرسا. وكان يعمل بيديه ، كان هذا يشبه السلطان العثماني الذي كان يدرب على العمل وهو صغير. لكن من كان يحسب ان سلطان روسيا المطلق القوي يعمل شيئا من ذلك.

وجاء بطرس في الوقت المناسب. فقد ولد في الجيل الاول الذي اصبح فيه من الممكن لغير غربي ان ينقل الخبرة التكنولوجيا الغربية . دون ان يرغم على بلع المدنية الغربية بكاملها- بما في ذلك الدين ! القرن السابق كان ممكناً ان يؤدي الى شيء شبيه بما تم في اليابان والحبشة- كره شديد للغرب . ورد فعل ضد الغرب. لذلك فان ظهور شخصية بطرس في الوقت والمكان اللذين برزت فيهما ، كان له اثر ضخم على مسيرة تاريخ البشرية .

٧٨ - العالم الاسلامي ١٥٥٥ - ١٧٦٨

بين سنتي ١٥٥٥ و ١٧٠٧ كان ثمة ثلاث امبراطوريات اسلامية متعاصرة وكانت تشمل القسم الاكبر من العالم الاسلامي وهي : العثمانية والصفوية والمغولية (في الهند). كانت الامبراطورية العثمانية اقدم من الصفوية بنحو مئتي سنة ، ونحومئتين وخمسين سنة اقدم من المغولية ، اذا اعتبرنا ان قيام هذه تم سنة ١٥٥٥ (لما دخل هومايون ثانية الى دلهي) . في سنة ١٥٥٥ كانت الامبراطورية العثمانية قد بلغت الذروة وقد بدأت دور الانحطاط . والامبراطورية المغولية بلغت الذروة ايام اكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) وجاهَنْغير (١٦٠٥ - ٢٧) . وكان حكم الشاه عباس (١٥٨٨ - ١٦٢٩) الذروة في حياة الامبراطورية الصفوية .

انحطاط الامبراطورية العثمانية كان سببه امرين متلازمين زمنا - التضخم النقدي والتضخم في العاملين في خدمة السلطان . فالتضخم المالي احدث ازمة اقتصادية ، وترتب على ذلك انتشار الفوضى بين الموظفين العامين الذين وجدوا ان قوة الشبراء لمرتباتهم كانت تتناقص . وهذا التشويش الاقتصادي والاجتماعي كان ناتجا عن وصول كميات من الفضة الى اويكومين العالم القديم من مناجم الامبراطورية الاسبانية في الاميركتين ، ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية ان تتحكم في دخول الفضة . وعلى كل فلعله كان من الممكن تجنب الفوضى لو ان رجال القصر - العبيد لم يتلفهم التسامح التدريجي معهم . من حيث تطبيق القوانين الاصلية عليهم . فالاصل ان ابناء هؤلاء الجنود الانكشارية لم يكن يجوز لهم ان يدخلوا الجيش الى جانب اولئك الذين يؤتى بهم من البلاد المسيحية .

كان يستثنى من هذا القانون ابناء الفرسان ، لكن سليمان القانوني (حكم ١٥٢٠ - ٦٦) بدأ بالسماح لأبناء الانكشارية بدخول الجيش . وأكّد سليم الثاني الامر سنة ١٥٦٦ . ثم سمح مراد الثالث (حكم ١٥٧٤ - ٩٥) لجميع المسلمين ان يدخلوا الجيش .

وكان من جراء ذلك ان عدد الانكشارية الذين كانوا مسجلين في القيود ارتفع من ١٢,٠٠٠ الى ١٠١,٦٠٠ بين سنتي ١٥٦٦ و١٥٩٨. هذا مع العلم بانه كان هناك نحو ١٥٠,٠٠٠ طالب لذلك ولم يكونوا يتقاضون مرتبات. ولم يعد الانكشارية قوة محاربة فعالة واصبحت فئة مدنية مشاغبة. اما المسيحيون فلم يعد السلاطين يستعبدونهم او يحملونهم حتى على اعتناق الاسلام، بل كانوا يوظفونهم في المناصب الكبيرة مستفيدين من كفاءاتهم، تاركين لهم حرية المعتقد.

ومع ذلك فان القوة العسكرية العثمانية لم تنهر حالا. لقد استعاد مراد الرابع (١٦٢٣ – ٤٠) بغداد من الصفويين (١٦٣٨). وحاصر العثمانيون فينا للمرة الثانية (١٦٨٢ – ٣). وقد ادى فشلهم في اخذ المدينة الى مـهاجمة آل هابسبورغ للأمبراطورية (١٦٨٩) وانتهى الامر بالعثمانيين الى التنازل عن هنغاريا وكرواتيا لمملكة هابسبورغ، وعن البلوبونيز للبندقية (١٦٩٩) وعن آزوف لروسيا (١٧٠٠). ومع ذلك فان الامبراطورية العثمانية استعادت المنطقتين الاخيرتين في اوائل القرن الثامن عشر. وفي واقع الامر فان الامبراطورية العثمانية كانت وكأنها تجاري سابقتها الامبراطورية الرومانية الشرقية في تخطي الكوارث.

وظـل للامبراطورية العثمانية نشاطها المعماري الخلاق، الذي لم يطمسه انحطاطها العسكري والاداري. فجامع السلطان احمد الاول في استانبول (بني ١٦٠٩ – ١٨) يتمتع بعظمة خاصة به، ولا يقلل منها مقارنته بايا صوفيا. ومع ذلك، فاذا استثنينا الجامع الاخضر في بورصه (جامع محمد الأول) فليس ثمة بناء عام عثماني تمكن مقارنته بمسجد شاه الذي بناه الشاه عباس في اصفهان (بني ١٦١٢ – ٣٧) او بتاج محل في اغرا الذي بناه شاه جهان بين ١٦٣٢ – ٥٣. وليس مسجد شاه جميلا في ذاته فحسب، ولكنه يتسق اتساقا فريدا مع الابنية الجميلة والاقدم منه. وثمة ابنية جميلة في مدينة اكبر الجديدة سكري، لكنها ابنية جميلة منفردة، دون ان تتسق بعضها مع البعض الآخر.

وقد تفوقت الامبراطوريتان الصفوية والمغولية على العثمانية لا في العمارة فحسب، بل بشخصية الشاه عباس الاول وشخصية اكبر اللتين كان لهما من الرؤية ما لم تتح لامبراطور عثماني معاصر.

فقد ادرك اكبر ان الحكم الاسلامي في الهند لا يمكن ان يستمر إلا اذا كسب موافقة الرعايا الهندوكيين. لذلك فقد الغى الزكاة (١٥٦٤) عن غير المسلمين، واظهر قوته

في ألتغلب على الراجبوتيين (١٥٦٧– ٨) فانتظم الامر له في امبراطوريته. على ان اكبر سار الى ابعد من ذلك ؛ فقد كان في نيته ان يزيل الحواجز بين الديانات التاريخية المتميزة. لذلك فانه نظم مناقشات ومناظرات دينية بين ممثلين عن الاسلام والزرادشتية والهندوكية والمسيحية الكاثوليكية. وفي سنة ١٥٨٢ اعلن عن عقيدة جديدة سماها «دين الهي» الذي أمّل ان يؤدي الى توحيد العباد جميعهم.

وقد ورث اكبر ادارة منتظمة عن السلطان البنغالي لا حكم شاه سور ١٥٤٠ – ٥ وافاد منها في ادارة امبراطوريته.

اما الشاه عباس فكان عليه ان يعيد بناء الامبراطورية الصفوية من الاساس. وكان في امبراطوريته سكان مدنيون وريفيون من اصل فارسي لكنهم ارغموا على التشيع ؛ كما كان ثمة جند تركماني. كان قد لجأ الى الصفويين من العثمانيين والمماليك بسبب تشيعه. فطوع بعض هؤلاء وانشأ جيشا من العبيد على غرار الجيش العثماني فيه جند مدربون على الاسلحة النارية والفروسية. ومع ان هذا الجيش كان دون الجيش العثماني مقدرة اصلا، فان ضعف الامبراطورية العثمانية يسر للشاه عباس ان يسترد ما اخذه العثمانيون من اسلافه. كما انه انتزع هرمز (١٦٢٢) من البرتغاليين واستعاض عنها بميناء جديد– بندر عباس.

واتخذ الشاه عباس لدولته عاصمة جديدة هي اصفهان. التي كانت قريبة من الافغان الجبليين المحاربين. وقد احتلت جماعة من العصاة الافغان اصفهان سنة ١٧٢٢. وانحلت الامبراطورية الصفوية واعتزمت جارتاها. الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الروسية. اقتسام ولايتها الغربية (١٧٢٤). لكن نادر قولي. التركماني الخراساني طرد الافغانيين واسترجع جميع الاراضي التي كانت تحت حكم الصفويين والتي كان العثمانيون والروس قد استولوا عليها. وفي سنة ١٧٣٩ نهب نادر دلهي. وفي ١٧٤٠ استولى على بعض ازبكستان. وقد توج نفسه شاها (١٧٣٦) وحاول العودة بايران الى السنة. لكن لا العثمانيين السنة قبلوا شروطه للاتحاد. ولا رعيته الشيعية رضيت ان تتخلى عن الامامية. وقد اغتيل (١٧٤٧). واصبحت ايران يتيمة وغرقت في فوضى سياسية.

وكانت دولة المغول الهندية قد اخذت باسباب الانحطاط ايضا. فقد تخلى شاه جهان (حكم ١٦٢٨ – ٥٨) عن سياسة اكبر في كسب ثقة الهندوكيين. كما هاجم دول الدكن الاسلامية. وخطا خليفته اورانغزيب (حكم ١٦٥٩ – ١٧٠٧) وزاد في استثارته للراجبوتيين. الذين حملوا السلاح ضده ١٦٨٠ – ٨١.

وفي النزاع الذي دار بين اورانغزيب وزعيم الغات شيفاجي (١٦٢٧ – ٨٠)، الذي توج نفسه ملكا مستقلا (١٦٧٤). كانت الحرب سجالا. لكن بعد وفاة اورانغزيب (١٧٠٧) تدهورت الامبراطورية المغولية بسرعة – دلهي نهبت ثلاث مرات (١٧٣٧ و ١٧٣٩ و ١٧٥٧).

كان البريطانيون في طريقهم الى ان يخلفوا الامبراطورية المغولية، وبين ١٧٥٧ و ١٧٦٣ خرج الفرنسيون من الهند. واصبحت شركة الهند الشرقية التجارية (الانكليزية) السيدة الفعلية في البنغال وبيهار واوريسا (كانت الشركة تقوم بخدمة امبراطور المغول !). وخلفت الحكومة البريطانية الشركة التجارية فيما بعد.

وفي الجهة المقابلة من العالم الاسلامي نجح المغرب في المحافظة على استقلاله من هجمات العثمانيين والاسبان. وقد قضى المغاربة (١٥٧٨) على جيش برتغالي ضخم. وفي سنة ١٥٩١ اجتازت حملة مغربية الصحراء الكبرى واستولت على السودان الغربي. وقد كانت هذه الحملة ادعى للاهتمام من اجتياز القوزاق لجبال اورال في الوقت ذاته.

كان استعمال الاسلحة النارية سببا في نجاح المغاربة، اذ ان خصومهم لم يعرفوها. واستعمال الاسلحة النارية – الصغير منها والكبير مثل المدافع – هو سبب تفوق العثمانيين على الصفويين. ومهارة المغاربة العسكرية (في السودان) والحكام القلة الذين كانوا يديرون شؤون الجزائر وتونس وطرابلس كان سببها ان هؤلاء كانوا دوما يزوّدون بالخبراء والجنود الماهرين والفنيين الذين كانوا يردون الى البلاد من الغرب المسيحي: المسلمون الذين خرجوا واخرجوا من اسبانية، والاسرى المسيحيون، سواء في ذلك الذين اسلموا ام الذين احتفظوا بدينهم، والمغامرون الاوروبيون الذين «تتركوا» لان مثل هذه الخطوة كانت تفتح امامهم مجالات من النجاح لا مثيل لها في بلادهم.

ومع ان التكنولوجيا الغربية كانت قد قطعت شوطاً بعيدا في التقدم، الا انها لم تكن تستطيع التغلب على الاعداء الذين تحميهم ارضهم. فالمدافع المغولية، التي كان يدير امرها مرتزقة اوروبيون، لم تستطع التغلب على بلاد الغات. والعثمانيون الذين قاوموا الجيوش الغربية والروسية والايرانية، لم يتمكنوا من منع الدولة السعودية الاولى في نجد، وذلك بعد عودة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ – ٩٢) واتفاقه، على العمل في سبيل الدعوة الاصلاحية، مع محمد بن سعود (١٧٤٥).

٧٩ - شرق اسية ١٦٤٤ - ١٨٣٩

كانت مدنيات شرقي آسية آخر المدنيات التي تعرضت لزخم المدنية الغربية الحديثة. بحيث نحدث ذلك نتيجة ثورية على مسيرة تاريخ المدنية المهاجمة. ان اليابان عزلت نفسها (بين ١٦٢٢ و ١٦٤١) عزلا تاما. فلم يسمح لليابانيين بالخروج من البلاد. والاجانب من التجار كانوا يدخلون ميناء واحدا فقط. ومع ان الصين استمرت بالسماح للتجار بالتعامل والاقامة في مكاو. فانها هي ايضا منعتهم (١٧٦٠) من الدخول إلا الى مكان واحد. وقد منعت اليابان (١٦١٢) والصين (١٧٢٣) رعاياها من اعتناق المسيحية او التمرس بشعائرها. وكان المنع في اليابان ادق.

كانت تجارة الصين مع الغرب خلال السنوات ١٦٤٤ - ١٨٣٩ اكبر من تجارة اليابان. اطلاقا ونسبيا. الا ان الصين كانت حاجتها الى هذه التجارة اقل من حاجة اليابان. لان الصين كانت لا تزال مكتفية ذاتيا اقتصاديا. ولم تزد التسهيلات التجارية للغربيين في الصين الا بعد الحرب الانكليزية - الصينية ١٨٣٩ - ٤٢. وقد ازداد الدخل القومي لليابان خلال فترة العزلة الاقتصادية (١٦٤١ - ١٨٥٣).

والصين في عصر اسرة تشنغ (المانشوية) استمرت نظرتها الى الامور داخلية وخلفية. كما كانت ايام اسرة منغ. ولكن الذي حدث ايام اسرة منغ كان رد فعل على الاحتلال المغولي. اما المانشو فقد تقبلوا المدنية الصينية بكاملها. وقد استمر نوعا الادب غير التقليدين في عصر تشنغ وهما القصة والتمثيلية.

وقد اوصل العلماء الكونفوشيون في عصر تشنغ المحافظة الى الغاية. فقد رفضوا صيغ الكونفوشية الجديدة. فقد كانت غايتهم العودة بالكونفوشية الى النوع الذي كانت عليه في عصر هان وو-تي. وقد كان علماء عصر تشنغ ماهرين في معالجتهم النقدية للنصوص والوثائق التي بين ايديهم.

اما في اليابان فان ايازو وخلفاءه كانوا يروجون لصيغة من صيغتي الكونفوشية الجديدة. لكن البوذية لم يضيق عليها. بل ان ييمتسو (١٦٢٣ - ٥١) فرض على كل مواطن ياباني ان يسجل في واحد من الهياكل البوذية، بوصفه علمانيا، وذلك كي يتأكد من انه ليس مسيحيا. وكان ثمة احياء للعناية بالشنتو، باعتبارها دينا وطنيا لم يأت من الخارج - من الصين او الهند الصينية.

وقد جمع الامبراطوران (من اسرة تشنغ) كانغ - هسي (حكم ١٦٧٢ - ١٧٢٢) وتشين - لنغ (حكم ١٧٣٦ -- ٩٦) الادب الصيني الموجود من العصور باجمعها. وقد طبعت مجموعة الاول في ٥٠٠٠ مجلد في سنة ١٧٢٨، اما ما جمعه الثاني فقد بلغ ٣٦,٠٠٠ مجلد. وقد اكتفي بنسخ سبع نسخ منها ولم تطبع! وقد منع تشين - لونغ الكتب التي لم تعجبه. اما كانغ - هسي فقد صنف قاموسا. كما وضع تشين - لونغ سلسلة كتب توضح 'راءه السياسية.

من الناحية العسكرية انجزت اسرة تشنغ ثلاثة اشياء: الاول القضاء على حركات المقاومة ضد المنشو في الجنوب والثاني وقف التقدم الروسي في حوض امور والثالث القضاء على المغول الغربيين.

فالمغول الغربيون كانوا قد اعتنقوا البوذية الماهانية التيبتية (الربع الثالث من القرن السادس عشر). وقد اقامت احدى قبائلهم (١٦٤١ - ٢) الدالاي لاما حاكما في لاسا. وقد هاجم غلدان من قبيلة من المغول الغربيين، منغوليا الشرقية التي كانت تحت سلطان اسرة منشو. وقد ايد المغول الغربيون غلدان في اعتدائه. فاثار هذا الامر المنافسة للسيطرة على الدالاي لاما. وقد ربح المنشوريون السباق (١٧٥٠).

في القرن الثامن عشر طرأ على المغول ما ازالهم من المجال القتالي الذي شغلوه نحو اربعة الاف سنة. فقد هاجم تشين لونغ (حكم ١٧٣٦ - ٩٦) بقية من المغول الغربيين (دزونكار) في عقر دارهم، فتغلب عليهم واستولى على منطقة ولاية سيكيانغ الحالية حيث كانت توجد جالية اسلامية كانت تتبع الدزونكار. وتغلب تشين - لونغ عليهم كان فيه القضاء على آخر امبراطورية سهوبية اوراسية متفجرة (١٧٥٨ - ٩) والواقع هو ان البداوة الاوراسية جاء اجلها سنة ١٦٥٢ لما تصادمت قوتان مستقرتان في حوض نهر آمورهما اسرة تشنغ والامبراطورية الروسية. وكانت كل منهما تستعمل الاسلحة

النارية .

في سنة ١٧٧٤ عقدت معاهدة كوجك كنارجة (كوتشوك كنارتشة) بين العثمانيين والروس . وبموجبها نقلت دولة القرم (وهي آخر واحدة من الدول التي خلفت القبيلة الذهبية) من العثمانيين الى الروس . وفي ١٧٨٣ ضمت الامبراطورية الروسية القرم اليها . وفي الوقت ذاته كان انتشار البوذية بين المغول سببا في التقليل من شأن القتال والحرب بينهم . كما ان ضغط السكان اخذ يتناقص بسبب الاقبال على الرهبنة (البوذية) .وهذان التبدلان في اوضاع البدو الرعاة الاوراسيين قاداهم الى الحياة الهادئة . وهكذا فان عنصرا ديناميكيا خرج من حياة اويكومين العالم القديم . بعد ان عاش ديناميكيته نحو اربعة الاف سنة .

ومنذ ١٧٥٧ تخلصت الصين من خطر البدو البرابرة الاوراسيين الذي كان يحيق بها لمدة تقرب من الفي سنة . فاندفع تشين - لونغ في هجوم نحو الجنوب ضد بورما (١٧٦٦ - ٧٠) وضد فيتنام (١٧٨٨ - ٩) وضد نيبال (١٧٩٠ - ٢) . الا ان هذه الحملات التي قادها تشين - لونغ كانت . مثل حروب اورانغزيب . تخفي وراءها ضعفا داخليا اجتماعيا واقتصاديا في الامبراطورية .

وكان الاكثر جدية في نواحي الضعف هو الازدياد المذهل في عدد السكان خلال المئة سنة المنتهية في ١٨٣٩ . وقد لا تكون الارقام المدونة كلها صحيحة . لكن الواقع هو ان عدد السكان ازداد اكبر بكثير من قدرة البلاد على انتاج المواد الغذائية . الامر الذي تم انجازه في القرن السابق . والنباتات التي استوردت من العالم الجديد لتزرع في مناطق غير الصالحة لزراعة الارز . ادت الى تعرية التربة بعد اجتثاث الغابات . وقد بدأ دخل الفرد من الفلاحين الصينيين بالهبوط قبل نهاية حكم تشين - لونغ .

في اليابان ازداد عدد السكان . فقد بلغ في سنة ١٧٢١ نحو ثلاثين مليونا . وظل العدد على حاله الى العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر . مع ان الانتاج الزراعي استمر في نموه . واستمر القطاعان الصناعي والتجاري في الاقتصاد الياباني في التوسع . ولكن بسبب التوزيع غير المتكافىء للثروة . من حيث الحصول عليها ومن حيث انفاقها . لم يزد عدد السكان . فالفلاح الفقير الذي هجر الارض ليعمل اجيرا في المدينة او الريف لم يكن بامكانه الزواج وانجاب الاسرة بسهولة . والاغنياء من الملاكين كانوا يحملون على قضاء بعض السنة في العاصمة بحيث ينفقون فوق طاقتهم . ليكونوا تحت نظر

الامبراطور . والاغنياء الحقيقيون كانوا اصحاب الاعمال ، الذين كانوا يزوغون من دفع الضرائب ، وكانوا مكروهين ، لكنهم كانوا اصحاب الثراء .. ومثل على ذلك شركة متزوبي (لا تزال الى اليوم احدى اكبر المؤسسات المالية في العالم) التي وصلت سنة ١٦٩١ (وكان عمرها نحو سبعين سنة) ان تكون الممول لدولة الوقت ثم للبلاط الامبراطوري بعد ذلك .

في سنة ١٧٩٣ سلم ممثل جورج الثالث ، ملك بريطانية ، رسالة الى تشين- لونغ ، صيغ رد الامبراطور عليه بطريقة تظهر ان الصين لا تزال البلد الكافي لذاته ، والذي لا يغلب ، والمملكة المتوسطة (للارض) السيدة . ولم يكن الامبراطور يعرف ان التوازن في القوى الحربية قد تبدل لمصلحة الغرب منذ خمسة قرون . لكن كان في اليابان شخص واحد هو هياشي شيهاي (١٧٣٨ - ٩٣) الذي كان عنده نوع من الحس بهذا التبدل . فقد نشر (١٧٨٦) كتابا بعنوان «بحث في المشكلات الحربية لبلد بحري» . فقد ازعجته نشاطات الروس البحرية في شمال المحيط الهادي . ان الروس كانوا قد اصبحوا غربيين بالتبني . والبريطانيون والفرنسيون والاميركان القريبون من الهولانديين ، لم يكونوا ظهروا على افق اليابان الجنوبي .

٨٠ - المجال الحيوي ١٧٦٣ - ١٨٧١

ان القرن المليء بعظائم الامور . من ١٧٦٣ الى ١٨٧١ . شهد اهم حدث وهو التوسع المفاجىء في سلطة الانسان على الكائنات البشرية بالذات وعلى الطبيعة غير البشرية . وهذه الزيادة في السلطة البشرية تمت عن طريق ضم التجديد الاجتماعي مع التكنولوجي . ففعالية الجنود والعمال الصناعيين زيدت عن طريق اخضاعهم لنظام صارم . وتدريبهم على العمل بآلات واسلحة لم يسبق لقوتها مثيل . وعن طريق تنظيم عملهم بفعالية . فقد بدأ انشاء الجيوش المحترفة النظامية في الغرب اواخر القرن السابع عشر . وفي العقود المتأخرة من القرن الثامن عشر . كان التنظيم الذي كان يطبق في ساحات العرض العسكري اصبح يراعى في المصانع المدنية . والتقنية التي كانت قد استعملت لثقب انبوبة المدفع استخدمت في تركيب مكابس الالات البخارية . واذا نظرنا الى القضية خارج المجال العسكري . فان المفاجأة في ازدياد السلطة البشرية يبرر تسميتها ثورة . مع العلم بان تعيين نقطة ابتداء ثورة تكنولوجية واقتصادية بالدقة المطلوبة . اكثر صعوبة من تعيين وقت انطلاق ثورة سياسية او حرب .

ان الثورة التكنولوجية والاقتصادية التي بدأت في بريطانية خلال الربع الثالث من القرن الثامن عشر . بدّلت الزراعة وتربية المواشي والصناعة تبديلا تاما . وفي سنة ١٨٧١ كانت هذه الثورة قد انتشرت خارج بريطانية الى القارة الاوروبية . وكانت تبدأ في اميركا الشمالية واليابان . ولا تزال هذه السيرة تقوى في العقد الثامن من هذا القرن . وليس ثمة ما يدل على ان نهايتها قريبة ؛ الا انه قد اصبح واضحا الآن ان الثورة الصناعية عكست اتجاه العلاقة بين الانسان والمجال الحيوي .

وقد مهر الانسان . بطبيعة الحال . المجال الحيوي بطابعه . ولكن . حتى الساعة . كان الانسان . مثل بقية العناصر الحية في المجال الحيوي . مضطرا ان يقبع في

حجر كان المجال الحيوي قد سمح له بالاقامة فيه . وكل نوع تعدى الحدود المقبولة عرض نفسه ، في الماضي ، لخطر الفناء . وفي الحقيقة فان الانواع جمعاء ، بما فيها الانسان ، كانت تعيش الى يومها تحت رحمة المجال الحيوي . وقد عرَّضت الثورة الصناعية المجالَ الحيويَ لاحتمال القضاء عليه على يد الانسان . ولما كانت جذور الانسان عميقة في المجال الحيوي ، وما كان لها ان تعيش بدونه ، فان حصول الانسان على القوة التي تجعل المجال الحيوي غير صالح للعيش فيه هو وعيد يطلقه الانسان على الانسان منذرا اياه بان استمراره مهدد .

ان ازدياد السيطرة البشرية في العقود الاخيرة من القرن الثامن عشر كان اصلا انجازا بريطانيا محليا ، لكن هذا الانجاز البريطاني كان قد قلد في اقطار غربية اخرى الى سنة ١٨٧١ ، وهذا يسر للغرب كلياً ان يتفوق ، موقتا ، على بقية الاويكومين . وهذه السيطرة الغربية على العالم كانت الحدث الثاني البالغ الاهمية في القرن (١٧٦٣ – ١٨٧١) . والحدث الثالث في هذا القرن كان ردة الفعل في اقطار غربية ضد الضغوط الغربية . والمكانة الرابعة ، اذا عددنا الاحداث بالنسبة الى اهميتها ، تحتلها مشكلات الغرب الداخلية . والثورة الصناعية لا يمكن اعتبارها واحدة من هذه المشكلات . ذلك بان هذه مع انها بدأت في قطر غربي ، فانها من حيث المدى تخص «المجال الحيوي» .

كانت غاية الذين صنعوا الثورتين الزراعية والصناعية من البريطان ان يصلوا الى الحد الاقصى في انتاج الثروة المادية . وقد جاء هذا في وقته : اذ ان سكان بريطانية والبعض الآخر من الاقطار الغربية كانوا قد بدأوا ، في الجيل السابق مباشرة ، يزدادون بشكل متسارع . وعلى كل فان المجددين لوسائل الانتاج لم يبغوا نفع الجماعة . انهم كانوا يقصدون الافادة الفردية . انهم رفعوا الانتاج الاجمالي الوطني الى درجة دراماتيكية ، لكنهم ، في الوقت ذاته ، زادوا في عدم المساواة في توزيع حصص هذا الانتاج وعدم المساواة في ملكية الارض والمصانع التي كانت اداة الانتاج .

ان بعض طرق الانتاج التقليدية والتي كانت نسبيا ضعيفة – مثل الزراعة على مقياس صغير ، وقيام هذه الى جانب صناعات ايضا على مقياس صغير مثل الغزل والنسيج – قضي عليها . واصبح الانتاج ، في شكليه الزراعي والصناعي ، اصبح الآن ينظم تنظيما دقيقا ومكلفا من حيث وحداته الكبيرة . وهذه التغيرات المتلازمة ادت الى انتقال السكان باعداد كبيرة من الريف الى المدن الصناعية الجديدة . ومعظم هؤلاء

المهاجرين جردوا حتى من ظل لاستقلال اقتصادي لعلهم كانوا يتمتعون به قبلا. وبين السكان المتزايدين بسرعة كانت النسبة المئوية للمستخدمين (بفتح الدال) الذين كانوا يتعيشون من بيع خدماتهم مرتفعة جدًا بالمقارنة مع النسبة المئوية للمستخدمين (بكسر الدال) او الذين يعملون لحسابهم الخاص.

والتغيرات في احوال المعيشة والعمل وفي توزيع الدخل والملكية زادت الدخل العام وكان الثمن الظلم والالم. وليس من الممكن معرفة مساحات الارض التي نقلت الى الملكيات الخاصة (بقوانين صدرت عن البرلمان). والحصص المقبولة بالنسبة الى الموردين والمستثمرين والمستخدمين (بفتح الدال) في ارباح الصناعة هي موضع خلاف. ولكن المهم هو ان نقل الاراضي الى الملكيات الكبيرة حال دون الفلاح والعمل الزراعي الصغير الكافي لمعيشته. وان هذا الفلاح لما انتقل الى المدينة صانعا كان الاجر الذي يحصل عليه ضئيلا. يكاد لا يكفيه.

هذه كانت نتائج فيها تناقض وتعاسة بشرية جاءت في اعقاب الزيادة في انتاج الثروة المادية. وكان الباعث على ذلك الطمع. وقد خرج هذا الطمع الآن عن طوق القانون والعادة والضمير. في سنة ١٧٧٦ نشر آدم سميث كتابة «بحث في طبيعة ثروة الامم واسبابها». وقد جاهر فيه برأي خلاصته انه لو ان كل فرُد سمح له ان يتبع رغبته الاقتصادية الشخصية. لكان في ذلك خير نتيجة للمجتمع بكامله. وقد تجاهل الناس المحاذير التي ابداها سميث نفسه. والفكرة بالذات لم تكن مقنعة. والحرية التي تمتع بها الانتاج والتي شجعت الطمع اضيف اليها فوضى المنافسة وخسارتها. وقد كان للمنافسة الاقتصادية غير المقيدة ضحايا اكثر مما كان فيها منتصرون.

اصبح العمال الصناعيون طبقة اجتماعية جديدة غريبة عن المجتمع الذي كان السبب في قيامها. وكان السلاح الوحيد في ايدي العمال الصناعيين هو المساومة الجماعية مع المستخدمين. وكان من الضروري ان يقوم تضامن وثيق بين العمال كي ينجحوا في المساومة. ومن ثم فقد اخضع العمال انفسهم الى طغيان من صنعهم. كي يقاوموا طغيان ارباب العمل الذي فرض عليهم. وقد منعت هذه التضامنات قانونا (١٧٩٩) لكنها اعتبرت قانونية فيما بعد (١٨٢٤ — ٥). وهكذا فحرب الطبقات قد بدأت. وانتشرت. مع الثورة الصناعية من بريطانية الى اقطار اخرى.

ان المستخدمين وخصوم العمال كانوا ، على العموم ، قساة ، ولكنهم كانوا اذكياء جريئين لا يُقْـهرون . فهناك نموذج اركرايت (١٧٣٢ – ٩٢) الذي سجل باسمه عددا كبيراً من الاختراعات لم تكن من صنعه . وهناك جيمز وَط (١٧٣٦ – ١٨١٩) الذي ساعده الحظ في ان عثر على من يدعمه ويسمح له بان يفيد من اختراعه . واكثر المخترعين وقعوا فريسة المستثمرين . وهناك من المخترعين من وصلوا الى اختراعاتهم بطريق التجربة . وط كان شيئا مستثنى . فقد كـان العلم والتكنولوجيا توأمين مفيدين عنده . والوحي الذي جاءه في جامعة غلاسغو اثمر في مصنع بولطن في برمنغهام . ان وط لم يتلق تعلما جامعيا ، لكنه كان صديقا لبلاك (١٧٢٨ – ٩٩) الذي كان استاذا للكيمياء . وفي القرن التاسع عشر اخذ الكيميائيون الاكاديميون ، وخاصة في الجامعات الالمانية ، اخذوا بالاستفادة من علمهم في الامور الصناعية مباشرة وبانتظام .

والتحسينات التي ادخلها وط على الآلة البخارية جعلتها صالحة للانتاج الصناعي وللجر ، وللضخ كذلك . واول سفينة بخارية سارت سنة ١٨٠٧ واول قاطرة بخارية سارت على سكة حديد سنة ١٨٢٩ . والآلة البخارية هي ماكنة ، واستعمال الآلات هو الصفة التكنولوجية المميزة للثورة الصناعية . إن الادوات قديمة قدم الانسان ، وتحسينها يزيد في القوة العضلية للانسان لكنها لا تحل محل هذه القوة . اما الآلة فانها تريح الانسان من القيام باي عمل عضلي قطعا ، وتقوم بالعمل على مستوى ونطاق وسرعة تفوق مقدرة الانسان الطبيعية . وهذا ينطبق على جميع اصناف الآلات – القارب والسفينة الشراعية والمدفع .

كان استعمال الآلات ، بالمقابلة مع استعمال الادوات ، نادرا حتى الثورة الصناعية . اما عند قيام الثورة الصناعية فقد اصبح استعمال الآلة امرا عاديا . ولم تظل الطاقة الطبيعية المستعملة في الآلات مقصورة على الريح والماء الجاري والمفرقعات والبخار . ففي سنة ١٨٤٤ استعملت الكهرباء بنجاح لنقل رسالة تلغرافيا . ان اختراع الادوات المعدنية خلق الحداد . واختراع الالات التي يدفعها البخار خلق المهندس . قوة الريح وقوة الماء نظيفة ، لكن البخار يحتاج الى حرق وقود ، ومن ثم فان ذلك يلوّث الجو . على ان هذا الخطر لم تدركه البشرية الا بعد مرور قرنين على الثورة الصناعية . عندها اتضح ان المجال الحيوي اصبح ملوثا ، فضلا عن ان الانسان اخذ يستهلك المواد التي لا تتولد ثانية . والتي لا بد منها لتأمين معيشته .

قبل الثورة الصناعية اتلف الانسان اجزاء محدودة من المجال الحيوي، فتعرت التربة، بسبب اجتثاث الاشجار، واستهلكت المعادن بسبب التعدين في منجم. لكن كان البر والبحر لا يزالان واسعين وغنيين.

وكانت الشعوب الغربية قد سيطرت على بقية البشرية قبل الثورة الصناعية، منذ القرن السادس عشر. وهذه العملية استمرت حتى ١٨٥٣. ومع انه كان ثمة بعض صدمات لقيتها المحاولات الغربية (ومعها روسيا) في محاولتها السيطرة على العالم، فانه في سنة ١٨٧١ (او بعد ذلك بقليل) كانت الدول الغربية وروسيا تسيطر على العالم.

وقد كانت ثمة محاولات، في بعض الاقطار، لتقليد اوروبة عسكرياً اي تقليد المدنية الغربية، على اعتبار ان انتصار الغرب على بقية العالم كان عسكريا اصلا. فهناك محاولة العثمانيين ايام محمود الثاني (حكم ١٨٠٨ - ٣٩) ومحمد علي باشا في مصر (١٨٠٥ - ٤٩) وباي تونس (١٨٤٠ وما بعدها) وملك تايلاند واليابان.

ومع ان المحاولات التي ذكرت لتقليد المدنية الغربية كانت ناجحة، فان في اليابان كان نجاحها باهرا. اما في الدولة العثمانية (محمود الثاني) وفي مصر (محمد علي باشا) فقد كان المسار اصعب، وكان لا بد من التخلص من المماليك المصريين (تم ذلك لمحمد علي سنة ١٨١١) والانكشارية في الدولة العثمانية (فعل ذلك محمود الثاني ١٨٢٦). والجيشان النظاميان اللذان حلا محلها، وخاصة الجيش المصري اثبت عن جدارة في اعماله العسكرية ان لحساب الدولة (في نجد وفي اليونان) او ضدها (في سورية). وكذلك اثبت الجيش العثماني مقدرته في الحرب التركية - الروسية (١٨٢٨ - ٩).

ولم يكن يكفي الحاكم (غير الغربي) ان يستأجر عددا من المستشارين والمدربين الغربيين للقيام بالعمل، كان لا بد له ان ينشيء الفرقاء المدربين من اهل البلاد كي يقوموا بالعمل. وقد وجدت الدولة العثمانية، في وقت مبكر، جماعة من اليونان العثمانيين الذين كانوا حلقة الوصل المناسبة. اما بطرس الاكبر ومحمد علي باشا وغيرهما كان لا بد لهم من ان يوجدوا هذه الفئة. وقد فعل الكثيرون من هؤلاء الحكام ما فعله محمد علي باشا - ارسلوا من ابناء البلاد طلابا الى الغرب ليتعلموا.

وهؤلاء الذين تعلموا في الغرب كانوا يعيشون في عالمين. والعيش في عالمين تصحبه محنة. والمحنة الروحية التي بلي بها الروس في القرن التاسع عشر، اثارت في بعض النفوس

ادبا رائعا يعبر عن هذه المحنة. وقد تجلى ذلك بشكل خاص في قصص تورجنيف (١٨١٨– ٨٣) ودوستويفسكي (١٨٢١– ٨١) وتولستوي (١٨٢٨– ١٩١٠) هذا الادب الذي اصبح كنزا عالميا مشتركا.

وفي الغرب، في القرن التاسع عشر، كان للالمان دور كبير: كانْتْ (١٧٢٤– ١٨٠٤) كان اكبر فلاسفة الغرب وغوته ١٧٤٩ – ١٨٣٢ كان اكبر شعراء العصر. وهذا النجم الالماني الساطع بز الشهابين الانكليزيين شلّي (١٧٩٢ – ١٨٢٢) وكيتس (١٧٩٥ – ١٨٢١). وقد بلغت الموسيقى الغربية الذروة على ايدي موزارت (١٧٥٦ – ٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠ – ١٨٢٧). وهذا النجاح المنقطع النظير للثقافة الالمانية كان بعكس حالتها الاقتصادية والسياسية.

كان في عالم العلم رجلان لهما علاقة بالمرض. فادوارد جنر (١٧٤٩– ١٨٢٣) اهتدى (١٧٩٨) انه يمكن اكتساب المناعة ضد الجدري بالتطعيم، وفي سنة ١٨٥٧ اكتشف باستور (١٨٢٢– ٩٥) وجود البكتريا. وقد كانت خسارة الحياة عند الانسان وعند الحيوانات الاليفة، بسبب جهل هذين العنصرين القتالين، اكبر من الخسارة على ايدي الحيوانات المفترسة. ولما اكتشفت البكتريا، اصبح من الممكن مقاومتها بنجاح. ولم يبق عدو فتاك في المجال الحيوي بالنسبة للانسان سوى الانسان نفسه. وقد كان تطبيق العلوم على التكنولوجيا يقوي الانسان وتطبيق العلوم في مجال الطب الوقائي كان يؤدي الى ازدياد متسارع في عدد سكان المجال الحيوي، بسبب تخفيض نسبة الوفيات اكثر مما كان ضبط النسل ينقص السكان. وقد نشر الاقتصادي ت.ر. مالتوس كتابه «مقالة في السكان» (١٧٩٨). وهو الكتاب الذي اوحى الى تشارلز داروين (١٨٠٩ – ٨٢) فكرة «بقاء الانسب». وهي الكلمات التي تظهر عنوانا ثانيا في كتابه «اصل الانواع» الذي نشره (١٨٥٩).

بين اواسط القرن الثامن عشر ونشر كتاب اصل الانواع ظهرت بعض الافكار الجديدة حول الخليقة. فبافون خرج على التقليد التوراتي القائل بان الخليقة كلها تمت مرة واحدة، وارتأى بان هذه التنوعات الخَلْقِية كانت نتيجة تبدلات خلال العصور الطويلة. وقد جاء بعده لَيَل (١٧٩٧– ١٨٧٥) الذي وضع «مبادىء الجيولوجيا» (١٨٣٠– ٣)، والذي قراءه داروين ايضا. وقد اقضت نظرية داروين مضاجع المسيحيين المؤمنين. إذ انه احل الطبيعة المتخيرة محل الاله المختار للوصول الى بقاء الانسان الاقوى والانسب.

واهم من نظرية داروين عن ميكانيكية التبدل الحياتي، كانت نظرته الى ان الحياة في المجال الحيوي هي ديناميكية وليست ستاتيكية (قارّة). وثمة شبه بين ما فعله داروين في حقل علم الاحياء وما فعله هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) للفلسفة من حيث جعلها فرضية ومقابلها وتركيبها. وجاء مندل (١٨٢٢ - ٨٤) الذي وضع قواعد الوراثة. والذي نشر تحقيقاته. في ١٨٦٤ - ٦. لكن هذه ظلت مجهولة الى سنة ١٩٠٠.

وقد شهد هذا القرن. بالنسبة للاحداث الحربية والسياسية. ثورة الولايات المتحدة واستقلالها (١٧٧٦ - ٨٣)؛ واستعادة وحدتها بعد الحرب الاهلية (١٨٦١ - ٥). وتوسعها عبر اميركا الشمالية من الساحل الواحد الى الساحل الآخر (١٧٨٣ - ١٨٥٣). وقد شهد القرن نفسه محاولة فرنسة الثانية (١٧٩٧ - ١٨١٥) لتوحيد العالم الغربي سياسيا تحت سيطرتها. وذلك في محاولة نابليون. الذي اعاد تجربة لويس الرابع عشر في حروبه (١٦٦٧ - ١٧١٣). وقد قامت. في اعقاب فشل نابليون. دولة وطنية في ايطالية (١٨٥٩ - ٧٠) ودولة وطنية المانية (١٨٦٦ - ٧١). وهكذا فان الترتيب السياسي للجزء الغربي من العالم نجح. خلال هذا القرن. في قيام مجموعة من الدول الوطنية المستقلة ذات السيادة. واصاب محاولة توحيد الغرب سياسيا نكسة اخرى.

على ان العالم الغربي الذي عرفه نابليون كان اوسع من العالم الغربي في ايام لويس الرابع عشر. ذلك بانه في الفترة التي مرت بين الرجلين كانت روسيا والهند وشمال اميركا قد دخلت منطقة النفوذ الغربي. فروسيا كانت امكاناتها العسكرية غير محدودة؛ واملاك الغرب فيما وراء البحار كانت تحت النفوذ البريطاني بسبب تفرد الاسطول البريطاني بالسيادة البحرية. وكانت قيمتها الاقتصادية ذات قيمة كبيرة في اي نزاع.

وقد وجدت الممتلكات البريطانية السابقة في اميركا الشمالية انها. بعد استقلالها السياسي. بحاجة الى الاتجار مع بريطانية. وكذلك اميركا اللاتينية التي كانت تابعة لاسبانية (والتي كانت تابعة للبرتغال وهي البرازيل). والتي كانت قد استقلت في سنة ١٨٢١. إلا ان الولايات المتحدة وهذه الدول الجديدة كانت على العموم. اسواقا للمنتوجات البريطانية. وهذه الموارد المادية الآتية من وراء البحار كانت العصب الحيوي في الخصومة البريطانية الفرنسية كما جاءت نتيجة الانتصار البريطاني.

في سنة ١٨٢٣ اعلن رئيس الولايات المتحدة يومها. مونرو. مذهبه السياسي

القاضي بان لا تتدخل الدول الاوروبية في اميركا اللاتينية سياسيا، وان تحمي الولايات المتحدة استقلال هذه البلاد. وقد افادت بريطانية من هذا الاعلان، لانها كانت تهتم باقتصاديات البلاد لا بالتدخل السياسي فيها.

وقد مرت بالعالم الغربي خلال القرن المذكور (١٧٦٣ - ١٨٧١) ثورات متعددة، لكنها كانت مختلفة، من حيث النوع، واحدتها عن الاخرى. فالثورة الصناعية في بريطانية كانت تكنولوجية اقتصادية واجتماعية، ولم تكن سياسية. ولو انه كانت لها نتائج سياسية لما سن البرلمان قانونا سنة ١٨٣٢ كان نقطة ابتداء لنقل السلطة السياسية من ملاكي الريف الى الطبقة المتوسطة في المدن. والثورة التي قامت في اميركا الشمالية وانتهت باستقلال الولايات المتحدة لم تكن تكنولوجية ولا اقتصادية ولا اجتماعية، بل سياسية محضة. والثورة الفرنسية (١٧٨٩) كانت سياسية واقتصادية واجتماعية: فقد نقلت السلطة من التاج الى الطبقة المتوسطة المدنية، ونقلت ملكية الاراضي الريفية من الارستقراطية الى الفلاحين. في بريطانية كان صغار الملاكين في الريف اصبحوا يعملون فلاحين بالاجرة او انهم كانوا يدفع بهم نحو المدينة ليكونوا عمالا مأجورين. على العكس من ذلك فان الملاكين الاحرار في الريف صمدوا، بل وزاد عددهم لانهم رحلوا الى اراض بكر في الغرب، حيث لحق بهم المهاجرون من اوروبة. والولايات المتحدة ظلت امة من المواطنين الذين يملكون مصدر رزقهم، وكذلك اصبحت فرنسة. هذا باستثناء الافارقة السود الذين حملوا رقيقا الى الولايات المتحدة واستوطن اكثرهم الجنوب.

وقد كان استرقاق الافارقة ونقلهم الى اميركة لا يقل وحشية عن القضاء على سكان البلاد الذين كانوا فيها قبل كولمبوس. وقد الغي الرق قانونا في اكثر البلاد الاميركية في القرن المذكور، بدءا من سنة ١٧٦٣. وسواء أتم الالغاء اما بالثورة (هايتي عشر سنوات ١٧٩٣ - ١٨٠٣) او بالحرب الاهلية (الولايات المتحدة ١٨٦١ - ٥) او سلما. فقد خلف وراءه عاهات اقتصادية واجتماعية. فالعمال الصناعيون في الولايات المتحدة وفرنسة وبريطانية ظلوا يشعرون بالبعد بالنسبة الى «مؤسسة» الطبقة المتوسطة. فقد ظلوا قلة في المجتمع في كل من هذه الدول الثلاث، سواء منهم الذين اقاموا في المراكز الاقتصادية الجديدة ام الذين هاجروا الى المدن الصناعية (بريطانية).

إن صانعي الثورة الفرنسية من الطبقة المتوسطة (١٧٨٩) استغلوا تذمر العمال المدنيين، لكنهم لم يفعلوا شيئا لتحسين اوضاع هؤلاء. بل انهم تصرفوا مثل نظرائهم في

بريطانية. وقد ازالت الطبقة المتوسطة في فرنسة القيود التقليدية على الحرية الاقتصادية الفردية، ولكن لم يكن ثمة بديل لذلك. ومحاولات البوليتاريا الباريسية ان تحول الثورة السياسية الى ثورة اجتماعية في ١٧٩٥ و١٨٤٨ و١٨٧١ قضي عليها بالقوة. وفي بريطانية امل العمال (الصناعيون) بالاتحادات العمالية. وقد نالت بريطانية دفعة ثانية في الميدان السياسي بالنسبة لهؤلاء المواطنين بين ١٨٦٧ و١٨٧٢ (كانت الدفعة الاولى سنة ١٨٣٢). لكن هذا كله لم يحسن اوضاع العمال الصناعيين لا هنا ولا هناك.

وقد اثارت مصائب العمال الصناعيين وموافقة الطبقة المتوسطة عليها موجة كارل ماركس (١٨١٨ – ٨٣). فاعلن عن ديانته الجديدة. واساسها «الحتمية التاريخية» التي تحل محل الاله الخالق. وقد اراد ماركس ان يعزي البروليتاريا عن مصيبتها القائمة باعلانه انه من المحتم ان تقوم في النهاية «ثورة خير» فتزول الخصومة بين البروليتاريا والطبقة المتوسطة ويقوم مجتمع «لا طبقات فيه».

ولم يعمر ماركس بحيث يرى ان الظلم الاجتماعي زال ضرره. لكن هنري دونان (١٨٢٨ – ١٩١٠) نجح في سنة ١٨٦٤ على التوقيع على «اتفاق جنيف» الاول القاضي بانشاء «اللجنة الدولية للصليب الاحمر» لتخفيف ويلات المصابين في الحروب من الجنود.

وقد كان دور بريطانية خلال القرن المذكور قياديا – في خيره وشره. لا في الغرب فحسب ولكن في العالم باجمعه. فقد انتصرت على فرنسة (قبيل هذا مباشرة) في الهند والاميركتين ووحدت الهند لاول مرة في تاريخها، وهذا يسّر للمستعمرات البريطانية في اميركا الشمالية ان تستقل عنها. وظلت شركة الهند الشرقية التجارية (الانكليزية) تتحكم في شؤون الهند حتى سنة ١٨٥٧. (وبعدها انتقلت السلطة الى الحكومة البريطانية بالذات). وبريطانية ساهمت مع روسيا واسبانية في هزيمة نابليون، ومن ثم فقد ظل الغرب مقسما بين دول محلية مستقلة ذات سيادة. في عصر اخذت الثورة الصناعية تزود كلا من تلك الدول بسلاح لم يسبق لفتكه مثيل. وقد اصابت بريطانية مقتلا من الصين لما هاجمتها وانتصرت عليها (١٨٣٩ – ٤٢).

كانت هذه اعمالا ضخمة. لكن اضخم عمل قامت به بريطانية كان دفع الثورة الصناعية. ففي عملها هذا رجحت كفة توازن القوى بين المجال الحيوي والانسان الى جهة

الانسان. وهذا ما انتهى الى ان الانسان اصبح في قدرته ان يفسد المجال الحيوي بحيث لا يصلح للعيش فيه لجميع المخلوقات. بما فيها البشرية بالذات.

٨١ - المجال الحيوي ١٨٧١ - ١٩٧٣

لقد بدا . في سبعينات القرن الحالي . ان المجال الحيوي يحيق به الخطر الكبير بسبب التلوّث . بحيث انه قد لا يعود صالحا قط للعيش لاي شكل من اشكال الحياة . وذلك بفعل واحد من خليقة هذا المجال الحيوي وزبانيته . وهو الانسان . وكانت تتضح للناظر نظرة تاريخية بان سيطرة الانسان على المجال الحيوي كانت تتزايد باستمرار . واذ بلغ الانسان مبلغ البشرية كان قد تجرد من جميع الادوات والأسلحة الطبيعية التي حُبي بها . الا انه كان قد زُوِّد بعقل واع كان قادرا على التفكير والتخطيط . كما انه كان له عضوان طبيعيان - دماغه ويداه - اللذان كانا الاداتين الماديتين لتفكيره وتخطيطه ومحاولاته لتحقيق اهدافه بالفعل .

ان الادوات كانت ملازمة للوعي البشري . ومقدرة الانسان على استعمال الادوات مكن له من الحفاظ على كيانه في حقل التنافس في المجال الحيوي خلال العصر الحجري القديم المتأخر . وهو الفترة التي تشغل . اطلاقا . اطول مدة من التاريخ البشري حتى اليوم . فمنذ بدء العصر الحجري القديم المبكر والانسان - قبل ٧٠ - ٤٠ الف سنة . يقف موقف الهجوم من بقية المجال الحيوي . ولكن سيطرة الانسان النهائية لم تتم فصولا الا منذ بدء الثورة الصناعية . وهي مدة لا تزيد عن قرنين من الزمان . فقد زاد الانسان في قوته المادية بحيث انه اصبح خطرا حتى على مجرد بقاء المجال الحيوي . لكنه لم يزد امكاناته الروحية . والفجوة بين هذه وبين قوته المادية كانت . نتيجة لذلك . تتسع تدريجا . وهذا النمو في الفرق هو مزعج حقا . والتغيير الوحيد المعقول في تركيب المجال الحيوي الذي يمكن ان ينقذ هذا المجال هو زيادة القدرة الروحية للانسان . بذلك يمكن ان يحال دون تدمير المجال الحيوي - ومعه تدمير الانسان نفسه . والتدمير هذا - اذا تم - سيكون سببه الطمع المسلح بقدرة تؤدي الى القضاء على الاهداف المبتغاة اصلا .

وثمة اعراض عديدة تدلنا على الأثار المخربة المترتبة على ضغط الانسان على المجال الحيوي ، كما تبدو في سبعينات القرن الحالي . فسكان المجال الحيوي يتزايدون بسرعة متناهية ، وهذا العدد الضخم من السكان يتمركز في مدن جبارة . ولما كانت اغلبية سكان الارض لا يزالون معوزين ، فان هذه المدن لا تخرج عن كونها امتدادا لبلدان أكواخ ، طفيلية ملحقة بالاصل ، يقطنها العاطلون عن العمل او غير الصالحين للعمل والمهاجرون من الريف حيث كانت اكثرية البشرية تعيش وتعمل منذ ان اخترعت الزراعة في العصر الحجري الحديث . والمدن تدور حول الارض خطافات على شكل طرق – السرعة للسيارات او مدارج للطائرات . والاقلية من السكان المنتجة للسلع الصناعية والمواد الغذائية والمواد الخام العضوية – وهذه الاقلية تلجأ ، في هذا الانتاج الى عمليات والات معقدة وميكانيكية بالات ضخمة – هي (اي الاقلية المنتجة) التي تلوّث الغلاف المائي والغلاف الهوائي في المجال الحيوي بما تفرزه لهذه العمليات السلمية . انها تلوث المجال الحيوي حتى عندما لا تسقط اوراق النبات ولا تقتل الحيوان (البشري وغير البشري على السواء) عمدا عن طريق العمليات الحربية المدمرة .

في سنة ١٨٧١ ، وحتى الى سنة ١٩٤٤ ، اي قبل ان تحطم الذرة ، كان يبدو من غير المعقول ان المحيط والجو في المجال الحيوي يمكن ان يلوثا بكاملهما الى درجة السم بصنع شيء ضعيف هو الانسان ، الذي هو بالذات منتوج من منتوجات المجال الحيوي . وتبدو مقدرة الانسان في جعل المجال الحيوي بكامله غير صالح للعيش في افناء بعض اصناف الحيوانات البرية – ولكن الانسان نفسه وحيواناته الاليفة لا تتمتع بالمناعة ضد الفناء . وبعض هذه – اي الحيوانات الاليفة – تصاب بالتسمم دون ان تكون النشاطات البشرية موجهة نحوها عمدا .

ان النمو الطبيعي للمدن كان عظيما في حدود عمر اولئك الذين ولدوا سنة ١٨٨٩ (مثل مؤلف هذا الكتاب) . فقد شهدوا انقرة واثينا تنتقلان من مدينتين صغيرتين الى مدينتين عملاقتين منذ سنة ١٩٢٢ .

ومنذ ١٩٢٩ اختفى الريف الياباني قرب مضيق شيمونوذيكي تحت عبء الشوارع والمنازل . والحي الذي ولدت فيه ونشأت فيه في لندن ، قد تبدل منذ الحرب العالمية الثانية ، مثل بعض الاحياء اليابانية ، الى حد لا يمكن معه التعرف عليه . فبعد ان

هدمت القنابل الالمانية البيوت في هذا الحي . اقامت فيه الايادي الانكليزية طريقا مرتفعا تمر فيه السيارات وغيرها .

ان ابن لندن المولود سنة ١٨٨٩ . في اسرة من الطبقة المتوسطة . احس بان ١٤ آب (اغسطوس) سنة ١٩١٤ كان وقفة مذهلة في القرن ١٨٧١ - ١٩٧٣ . فبالمقارنة مع السنوات ١٨٧١ - ١٩١٣ . تبدو السنوات ١٩١٤ - ١٩٧٣ كأنها زمن محن اوقعت البشرية بكاملها نفسها فيها . فقدكانت هناك حربان عالميتان كانت الحرب في كل منهما (والحرب في حد ذاتها جريمة) سفاكة ومدمرة على شكل لم يعرف من قبل . لقد كان ثمة سفك دماء في تركيا وفي المانية وفي الهند . ووقع عرب فلسطين ضحايا . واصاب التبتيين والاكثرية الافريقية الوطنية في جنوب افريقية المحن . ولا تزال واحدة من «الحروب الدينية» قائمة في ايرلندا بوحشية . والطبقة المتوسطة في الغرب انخفض مستوى معيشتها انخفاضا واضحا نسبيا كما اصاب المهاجرين . من غير الغربيين . من الريف الى البلدان الاكواخ (الملحقة بالمدن الضخمة) . وبالمقارنة مع السنوات الاليمة ١٩١٤ - ٧٣ . فان سنوات ١٨٧١ - ١٩١٣ تبدو وكأنها عصر ذهبي في ذكريات الغربيين من الطبقة المتوسطة الذين كانوا قد بلغوا اشدهم سنة ١٩١٤ . والذين امتد بهم العمر الى السبعينات الحالية . ومع ذلك فعندما يلقى الى القرن ١٨٧١ - ١٩٧٣ بكامله بنظرة الى ماضيه . يتضح ان الامل الذي كان الحال السائد بين ١٨٧١ و ١٩١٣ . لم يكن له ما يبرره .

فالانكليزي من الطبقة المتوسطة الذي ولد سنة ١٨٨٩ كان يظن (من السن التي اصبح يعي فيها العالم المحيط به حتى سنة ١٩١٤) ان الجنة الارضية في متناول يده . فالعمال الصناعيون سيعطون حصتهم الحقيقية من انتاج البشرية العام . واقامة حكومة برلمانية مسؤولة سيتم في المانية وسيتحقق في روسيا . وسينعم المسيحيون الذين هم تحت الحكم العثماني بحريتهم . وعندها يصل الناس الى تحقيق الآمال النهائية للحياة على الارض .

لم ينتظر الغربيون ان يروا الغاء للحروب . وبعض الغربيين - مثل البعض في المانية والبعض الآخر في دول البلقان - لم يكونوا ينتظرون عودة الحروب فحسب . بل كانوا ينتظرونها حتما . لكن حتى اكثر الميالين الى الحروب من الالمان مثلا كانوا يتصورون حروبا

قصيرة مثل حروب بسمارك ولم يتصوروا حروباً تقابل حروب نابليون او حروب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ٤٨) في المانية او الحرب الاهلية في اميركا الشمالية (١٨٦١ - ٥) .

والحروب التي قامت بين ١٨٩٤ و ١٩٠٥ كانت حروبا قصيرة او اقليمية . ولم تمسّ العالم (الحرب الصينية - اليابانية . ١٨٩٤ - ٥ . والحرب الاسبانية - الاميركية ١٨٩٩ - ١٩٠٢ . وحروب البلقان ١٩١٢ - ١٣ والحرب الروسية - التركية ١٨٧٧ - ٨٠ . والحرب الروسية - اليابانية ١٩٠٤ - ٥) .

وبالنسبة الى طفل انكليزي من جيل مؤلف هذا الكتاب كانت الامور تبدو سنة ١٨٩٧ (وهي السنة التي احتفل فيها البريطانيون باليوبيل الماسي للملكة فكتوريا التي تولت العرش سنة ١٨٣٧) وكأن العالم الذي ولد فيه قد تخطى التاريخ . اذ ان التاريخ كان معناه . بمنتهى السذاجة . صفحة سابقة من الظلم والقسوة والالم التي تركتها الامم «المتمدنة» خلفها . الى لا عودة . كانت المدنية الغربية مدنية . وكانت فريدة . وكان قيامها وسيطرتها على العالم بمثابة مكافأتين حتميتين لخصائصها . و «المدنية» جاءت لتبقى . ولذلك اصبح التاريخ الآن امرا عقيما .

ان الانجازات التي قام عليها هذا الامل كانت عظيمة . ولكن كلا من هذه الانجازات كان ناقصا . وكان يحمل في طياته بذور الازعاج المستقبلي . وفي السبعينات بدت النقائص واضحة للعيان . لكن بين ١٨٧١ و ١٩١٤ لم يكن من اليسير تبينها .

على سبيل المثال . تحرير الاقنان في روسيا (١٨٦١) والغاء الرق في الولايات المتحدة (١٨٦٣) والبدء بالغاء الرق في البرازيل (بدءاً من ١٨٧١) ظهرت كأنها معالم ساطعة على طريق الجنة الارضية . لكن الاقنان الروس لم يحصلوا على الارض . والسود في الولايات المتحدة لم يتخصلوا من العنجهية والحقد والتفرقة . وبالنسبة الى العمال الصناعيين في البلاد الغربية فان وضعهم الاقتصادي تحسن . لكنهم . بسبب التقدم التكنولوجي في تنظيم الصناعات - مثل الزناد الناقل وخط التجميع - اصبح العمال رجالا ونساء مرتبين علميا للقيام باعمالهم . وبذلك ظلوا غرباء روحيا عن المجتمع الذي اوجد هذه

الطبقة الاجتماعية .

وقيام الوحدة الايطالية والوحدة الالمانية (١٨٧٠ - ٧١) اعتبر عامل استقرار في تركيب الاويكومين السياسي . اذ ان الدولة الوطنية المستقلة ذات السيادة اصبحت هي الوحدة السياسية القياسية .

ومنذ سنة ١٨٧١ لم تقم حرب (سوى الحرب الروسية - اليابانية ١٩٠٤ - ١٩٠٥) اشتركت فيها دولة او اكثر من الدول الكبرى . (وبريطانية . مثلا . لم تشترك في حرب روسيا مع تركية او مع اليابان) . واحتلال روسيا للمناطق الوسطى في اسية لم يؤد الى حرب بينها وبين بريطانية . وبين ١٨٨١ و ١٩١٢ اقتسمت الدول الغربية (بريطانية وفرنسة والمانية وبلجيكا والبرتغال وايطالية وروسيا) افريقية وشرق اسية والصين خاصة . دون ان تقع بينهن حرب قط .

وقد كان ثمة ما يدل على ان السلم ستحافظ عليه الدول الكبرى . وستحافظ على النظام ايضا حتى بعد ان عزل وليام الثاني امبراطور المانية بسمارك (١٨٩٠) . وقد كان يومها ثمان دول - وثلاث منها فقط . روسيا والولايات المتحدة واليابان . كانت خارج اوروبة . ومع ان الدول الاوروبية كانت ذات سيادة . فقد وجد المؤلف الحالي انه في سنة ١٩١١ لم يحتج الى جواز سفر الا في تركية ورومانيا . وانه كان يبدل الجينه الانكليزي او الليرة الفرنسية الذهب في قرية يونانية بنقد فضي قد يكون فرنسيا او ايطاليا او بلجيكياً كما يمكن ان يكون يونانيا . فالحدود السياسية لم تكن قد اصبحت حواجز نقدية او عوائق في طريق الافراد .

ومع ذلك فقد كان ثمة ما ينذر بالشر . ففرنسا لم تقبل بخسارة الالزاس واللورين لالمانية (١٨٧١) . ولم يقبل المواطنون هناك بان يكونوا رعايا الرايخ الالماني الثاني . كان بسمارك يحول دون عقد تحالفات . وبعد سقوطه قامت هذه التحالفات : اتفاق فرنسي روسي (مع ملحق عسكري) ١٨٩٢ - ٣ . فرنسة وبريطانية الاتفاق الودي ١٩٠٤ .

واتفاق بين بريطانية وروسيا ١٩٠٧ . وبدأت المانية تنافس بريطانية كدولة

بحرية (١٨٩٨) . هذه الدول كانت تخطط للتعبئة وللعمليات العسكرية .

ومع ان الدولة الوطنية اصبحت . منذ توحيد ايطالية والمانية (١٨٧٠ – ٧١) هي الوحدة الطبيعية العادية والحقة سياسياً . فان مناطق شرق اوروبا لم تحصل على هذا الحق .

فبولاندا كانت مقسمة بين روسيا وبروسيا والنمسا . واليونان والبلغار والعرب ورومانيا كانت لا تزال تنتظر اليوم الذي تحصل فيه على «اراضٍ تابعة لها» لا تزال تحت حكم العثمانيين او اسرة هابسبورغ . ومثل ذلك يقال عن ايطالية .

وهكذا فان البنية السياسية للاويكومين كانت . قبيل الحرب العالمية الاولى . متوترة بسبب فشلها في ان توجد في شرق اوروبة ما تم عليه الترتيب في غرب اوروبة واصبح الامر العادي . ولكن حتى لو ان الاراضي «المغتصبة» المذكورة جميعها . ولو ان الاراضي المحتلة جميعها . حولت الى دول وطنية . لظل التوتر قائما . وذلك بسبب النزاع الذي لم يحل بين المطالب السياسية والحاجات الاقتصادية للبشرية .

كانت الدولة الوطنية المحلية المثال السياسي للشعوب الاوروبية ولعدد متزايد باستمرار من الشعوب الاخرى . التي اخذت بالمؤسسات الغربية . وقد ظهر تعلق الشعوب الاوروبية بالوطنية في مقاومتهم الناجحة للمحاولات التي قام شارل الخامس وفيليب الثاني ولويس الرابع عشر ونابليون على التوالي لاعادة المسيحية الغربية الى الوحدة السياسية ايام تيودوسيوس وشارلمان . ومع ذلك فان الوحدة السياسية كانت تتنافى زمنيا مع الحياة الاقتصادية . منذ ان اندمج الاويكومين بسبب سيطرة الصينيين والبرتغاليين والاسبان على تقنية الملاحة في المحيط في القرن الخامس عشر . والدمج الاقتصادي للاويكومين الذي بدأه البرتغاليون والاسبان كان قد قطع شوطا ابعد بسبب الثورة الصناعية في بريطانية .

فالى وقت الثورة كانت اكثر السلع التي تبادلتها التجارة العالمية من الكماليات . ولكن بسبب الثورة الصناعية صارت السلع المتبادلة تزيد فيها كميات الاشياء الضرورية للحياة . والمستثمرون البريطانيون الذين بدأوا الثورة الصناعية ربحوا ربحا طائلا على الاموال الطائلة التي انفقوها في الآلات . اذ صارت بريطانية مصنع العالم . ومنذ ذلك الوقت اصبحت بريطانية تصدر المصنوعات وتستورد المواد الخام والمواد الغذائية . على مقياس عالمي . وقد حافظت التجارة العالمية على هذه الابعاد التي تحيط بالكرة الارضية لما . بعد سنة ١٨٧١ . انتزعت المانية والولايات المتحدة وغيرهما من البلاد من بريطانية احتكارها

لهذه التجارة ، اذ سارت سيرتها .

كانت نقطة البدء في دمج الاويكومين اقتصاديا اختراع البرتغاليين للسفينة الشراعية التي تمخر عباب المحيط . وتتمة هذا الدمج كانت في تدشين الاتحاد العالمي للتلغراف (١٨٦٤) وتدشين الاتحاد العالمي للخدمات البريدية (١٨٧٥) . كانت البشرية يومها قد اخذت بالاعتماد على التوحيد العالمي على المستوى الاقتصادي . لكنها ظلت ترفض التخلي عن العزلة الوطنية . على المستوى السياسي . وهذا الانحراف لا يزال مستمراً بالرغم من الدمار الذي سببه منذ سنة ١٩١٤ . والتفكك الذي نتج عن ذلك في القضايا البشرية قد بلغ الى حد انه يهدد بشلّ المجتمع البشري بكامله باستثناء اقلية من الفلاحين والصيادين وجامعي الطعام التي لا تزال تعيش على ما تنتج او تجمع لنفسها . دون ان تأسرها السوق العالمية .

بلغت السفينة الشراعية الغربية الحديثة الذروة في تطورها خلال الفترة بينْ ١٨٤٠ و ١٨٩٠ . اذ كانت تقاتل معركة خاسرة مع السفينة البخارية المنافسة لها . والتي انتجتها الثورة الصناعية . وقد كان هذا ايضا العصر الاخير للموسيقى الغربية الكلاسيكية الاسلوب . التي وصلت الذروة عند منقلب القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر في اعمال بيتهوفن (بيتوفن) . والاسلوب الغربي الحديث في الرسم كان قد تجاوز قمته لما انتقلت الاولوية من الايطاليين والفلاندريين الى الاسبان والهولانديين . حول السنة ١٦٠٠ . والسفينة الشراعية الكلاسيكية حلت محلها السفينة البخارية لما اضاف اليها و ط التحسين المهم. وقد جمد الاسلوب الطبيعي في الرسم لما اخترع فن التصوير (الفوتوغرافيا) . وخلال السنوات التي مرت بين ١٨٧١ و ١٩١٣ . وهي فترة سلم ورخاء في الظاهر . كان الرسامون ومؤلفو الموسيقى يتخلون عمدا عن تقليد طويل الامد . وكانوا يبحثون عن صيغ للتعبير مختلفة اختلافا جذريا . من المؤكد انهم احسوا ان الاسلوب «الكلاسيكي» لفنونهم قد استُنْفِد . كما لو كان منجما للفحم استخرج كل ما فيه . وقد بدا في السبعينات . في نظرة خلفية . كأن الفنانين الغربيين. ادركوا بالحس المسبق . وهم يتمتعون بفترة من الـجو الهادىء . بالعاصفة التي ضربت المجتمع الاوروبي في الجيل اللاحق . ان الفنانين لهم هوائيات بسيكية التي تحس . مسبقا . بالاحداث الغريبة المقبلة .

واذا نحن اردنا ان نضع لائحة موازنة لتجارب البشرية واعمالها بين ١٨٧١ و ١٩٧٣ . لوجدنا ان اول ما يطالعنا هو هذا العدد الضخم من الاكتشافات

والاختراعات . كان الانسان الغربي قد توصل الى اكتشافات واختراعات ذات بال خلال القرون الثلاثة التي سبقت ذلك ، لكنه في القرن الذي ينتهي في ١٩٧٣ تخطى الانسان انجازاته السابقة في هذه الميادين . فرويد (١٨٥٦ – ١٩٣٩) نقل التصرف في المستويات غير الواعية من البسيكية البشرية الى المستوى الواعي . واينشتين اعطى الفيزياء مجالا اوسع اذ اعتبر ان الملاحظة هي تفاعل . فالناظر (الملاحظ) هو نفسه جزء من العالم الطبيعي الذي يقوم بملاحظته خلال الزمان والمكان . واكتشاف وجود الالكترونات وطبيعتها (كشف ج ج . طومسون ١٨٩٧) برهن على ان كلمة الجوهر الفرد ، (اثوم) هو تسمية خاطئة . لقد ثبت ان «الجوهر الفرد» ليس وحدة لا تقبل الكسر – لقد كانت عالما شمسيا قائما بذاته . وقد تنبّأ بذلك رذرفرد (١٨٧١ – ١٩٣٧) في سنة ١٩٠٤ ؛ فقد تعرف الى ماهية النواة . ونجح في تحطيمها (١٩١٩) . وقد تم اكتشاف تركيب النواة لما تعرف تشادوك الى وجود النويترون وطبيعته (١٩٣٢) . وهذه الاكتشافات في مجال الفيزياء قادت العلماء الفيزيائيين ، بدءا بما قام به نيلزبور (١٨٨٥ – ١٩٦٢) ، الى الاعتراف بحقيقة اسلوبية المعرفة واسسها وهي : ان حادثة معينة معروفة يمكن التعرف اليها بطريقتين لا تختلفان فحسب ، ولكنهما لا يمكن ان تلتقيا ولا يمكن ان تمر التجربة بهما في الوقت ذاته . ومع ذلك فان الطريقتين صحيحتان ولا يستغنى عنهما .

ومع ان المطاط (الكوتشوك) كان قدامى ميزو – اميركا يستعملونه لصنع الطابات ، وكان النفط يستعمل في النار اليونانية في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فان هاتين المادتين شهدتهما الفترة بين ١٨٧١ و ١٩٧٣ . تستعملان للدواليب ووقودا للاحراق الداخلي في الآلات . ومن هنا امكن صنع السيارات والطائرات . وهذا منح الانسان عن طريق الطيران ، مكانا في الجو كان خاصا بالحشرات والطيور والخفافيش .

وقد كانت ثمة احداث دراماتيكية في مجال الاكتشاف الجغرافي والتاريخي – فاكتشف الانسان القطبين ووصل الى القمر . ونقب عن اثار المدنيات السابقة من السند الى كريت .

وابرز الاكتشافات والاختراعات التي توصل اليها الانسان خلال السنوات المئة الاخيرة ، هي التي جاءت في ميدان الطب والجراحة . فاكتشاف المخدر (البنج) يسر للجراحين القيام بعمليات جراحية قد لا تُتَخيَّل . ومعرفتنا ان البعوضة تنقل حمى الملاريا والحمى الصفراء ، يسر محاربتها ومحاربة المرضين معها .

لكن اختراعات الانسان واكتشافاته كان لها اثارها السيئة في المجتمع . فالطيران والبارود مكنا الانسان من القاء القنابل من الجو . بحيث كانت تصيب المقاتلين والآمنين على السواء . وفي غضون اقل من نصف قرن من اكتشاف وجود الالكترون (١٨٩٧) القيت القنبلتان على هيروشيا ونغازاكي . وفي سنة ١٩٧٣ كان الغاز الذي تنفثه السيارات قمينا بان يجعل هواء المجال الحيوي غير صالح للتنفس .

وتقليل نسبة الوفيات له نواحيه المختلفة . فهناك زيادة في عدد السكان . وهناك اطالة الحياة لاشخاص مشكوك في امر افادتهم هم من اطالة حياتهم .

كانت وظيفة الحكومه . قبل الثورة الصناعية . تتكون في حفظ القانون والنظام . وشن الحروب عند الحاجة . ولكن بعد قيام طبقة العمال الصناعيين . بسبب الثورة الصناعية . حتم على الحكومة ان تعني بالمجتمع صحيا واجتماعيا وتعليميا وما الى ذلك .

في البلاد التي لا يزال للقطاع الخاص في اقتصادها الغلبة والتي لها حكومة ديمقراطية (اي بريطانية) . فان التشريع الاجتماعي البرلماني وعمل اتحادات العمال مكّن للاغلبية من العمال الصناعيين من منتجي الحرارة والضوء الى منظمي احواض الموانىء والشوارع . ان يحصلوا على مزيد من النفع مقابل ما تحصل عليه الطبقة المتوسطة . وبخاصة اصحاب المهن الحرة كالمعلمين ومن اليهم . واصحاب المهن التي تتحمل المساومة لا يحبون ان تتدخل الحكومة في امور المهنة او التجارة او الصناعة . لأن ذلك يعطيهم المجال لنيل اكثر ما يمكن من الربح الخاص لا النفع الجماعي فقط .

واتحادات العمال تنجح في مساوماتها وفي الحصول على المنافع لافرادها في الدول الديمقراطية البرلمانية . اما في الاتحاد السوفيتي والدول التي تشبهه فان العمال . صناعيين كانوا ام زراعيين . مسيرون بحكم قوانين صارمة تصدر عن حكومة تسلطية . والحكومة السوفيتية تعتنق ايديولوجية ماركسية . لكنها تدير البلاد على الطريقة التي كان يتبعها القيصر الروسي من قبل . وقد ايد الفلاحون الروس ثورة اكتوبر (١٩١٧) املا في ان تتحسن احوالهم ويمتلكون بعض الارضين على نحو ما اصاب فلاحي فرنسة بسبب الثورة الفرنسية (١٧٨٩) . لكن كل شيء في روسيا أمم – الارض ومصادر الثروة والمصانع . والعامل هو الآخر يعمل تحت تنظيم بيروقراطي دقيق .

الا ان الاتحاد السوفيتي هو . مثل المملكة المتحدة . حكومة رعاية اجتماعية . على

طريقته الخاصة ، وذلك اذا قورن بروسيا القيصرية . فقد نشر التعليم ووزعت الثروة توزيعا افضل من ذي قبل . لكن الدول جميعها . بقطع النظر عن ايديولوجيتها . ظلت دولا مستعدة لشن الحروب . والحروب هي همجية دوما . والحربان اللتان عرفها القرن العشرون اشتهرتا . بالاضافة الى همجية الحرب بالذات . بما قتل فيهما من المدنيين .

ولعلّ الحادثين اللذين يمكن ان ينظر اليهما بشيء من العطف في حربي القرن العشرين هما : مقاومة الشعب التركي (١٩١٩ – ٢٢) للدول الخارجة منتصرة من الحرب العالمية الاولى . ومقاومة الشعب البريطاني (١٩٤٠ – ١) لالمانية التي كانت تحسب نفسها منتصرة . وكان ذلك موقتا . وقد كان من حسن حظ الشعب التركي ان وجد مصطفى كمال (اتاتورك) يومها . كما ان الحظ خدم الشعب البريطاني اذ يسر له تشرشل .

وفي الهند شهد القرن الحالي قيام غاندي (١٨٩٦ – ١٩٤٨) الذي كان يختلف عن لينين ومصطفى كمال . في انه لجأ الى سياسة اللاعنف واللاتعاون (مع السلطة) . وكان غاندي يحب ان يقطع الصلات الاقتصادية بين الهند والغرب . كي يجنب الهند الدخول في مجال العالم المُمَكْنَن .

وقد انتهى الاستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية سنة ١٩٤٧ . وذلك بقسمة البلاد الى الهند وباكستان . لا على قواعد غاندي (قتل غاندي سنة ١٩٤٨) . وقد رافق هذا الاستقلال والتقسيم عذاب وهجرات وقتل وتشريد .

ومثل هذا الذي حدث في الهند حدث في آماكن كثيرة . وهذا اتحاد جنوب افريقية المستقل . ان اقلية اوروبية الاصل تحكم اغلبية حكما فيه غلبة وقهر لان الاغلبية الافريقية هذه سوداء . وهذه فلسطين – شرد اهلها العرب واستولى اليهود المهاجرون على بيوتهم واملاكهم .

لقد اشرنا من قبل الى التناقض بين التقسيم السياسي للاويكومين الى دول وطنية ذات سيادة والوحدة التي يتمتع بها الاويكومين على المستويين التكنولوجي والاقتصادي . فالحاجة ماسة الآن الى قيام تنظيم سياسي حكومي يشمل الكرة الارضية بكاملها . ليحفظ هذه الدول من اعتداءاتها المتكررة . ولاعادة التوازن بين الانسان والمجال الحيوي . اذ ان هذا التوازن قد اضطرب بسبب ما جمع الانسان من قوة مادية ناشئة عن الثورة الصناعية .

ان البشرية تأخذ بخناقها ازمة خانقة . وهي لا تقل في شرها عن الحربين العالميتين . والمستقبل مزعج . ان البشرية تستطيع ان تستمر في العيش في هذا المجال الحيوي مئتي مليون سنة اخرى . هذا اذا لم يؤد عمل الانسان الى جعل المجال الحيوي هذا غير صالح للعيش في وقت قبل ذاك . لكن الانسان الآن يستطيع ان يجعل المجال الحيوي غير صالح للعيش في المستقبل القريب . ومن ثم فانه من المحتمل ان الناس الاحياء قد تقصف اعمارهم فجأة عن طريق نكبة من صنع الانسان . يمكنها ان تدمر المجال الحيوي وتقضي على البشرية جمعاء . مع ما هناك من اشكال اخرى للحياة . هاتان هما احتمالان – لكنهما ليسا الخيارين الوحيدين .

ان المستقبل لا يمكن تقريه . لانه لم يصلنا بعد . وامكانات المستقبل غير محدودة . ومن ثم فليس من الممكن ان نتنبأ عنه من اعتبارات الماضي . كل ما حدث في الماضي . قد يحدث ثانية . ولا شك . اذا ظلت الاحوال على ما هي عليه . لكن حادثة سابقة ليس من الضروري ان تحدث ثانية ، انها واحدة من عدد من الاحتمالات . وبعض هذه الاحتمالات لا يمكن تنظيرها . لانها ليس لها سوابق معروفة . وليس ثمة من سابقة لهذه القوة التي تسلط بها الانسان على المجال الحيوي على النحو الذي تم خلال القرنين من ١٧٦٣ الى ١٩٧٣ . وفي هذه الاحوال المذهلة ثمة نبوءة واحدة يمكن ان يقدمها الواحد وهو متأكد منها ان الانسان . وهو ابن الام الارض . لن يعيش بعد جريمة قتل الام ان هو اقترفها . فالعقاب هو القضاء على النفس !

٨٢ - نظرة الى الماضي - ١٩٧٣

إن المستقبل ليس موجودا بعد، والماضي انتهى امره، ومن ثم فان احداث الماضي لا يمكن تبديلها. وعلى كل فان هذا الماضي الذي لا يمكن تبديله لا يُعطينا المظهر نفسه دوما وفي كل مكان. فنظرتنا الى علاقة احداث الماضي الواحدة بالاخرى، والى الاهمية النسبية لكل منها، واثرها - كل هذا يتغير بتغير المكان والزمان اللذين تنظر منهما الى حادثة معينة - فالشخص نفسه الذي يعود بنظره سنة ١٨٩٧ الى حادثة قديمة يراها بشكل آخر اذا نظر اليها سنة ١٩٧٣. اما اذا كان الناظر يتفحص القضية الماضية نفسها في الصين سنة ٢٠٧٣ او في نيجريا سنة ٢١٧٣، فان الرؤى تختلف.

منذ ان اصبح آباؤنا بشرا عاشت البشرية حياتها (باستثناء القسم الاخير منها وهو جزء من ستة عشر جزءاً منها) في العصر الحجري القديم المبكر. وفي هذه الحالة فان الجماعة التي تعيش على جمع الغذاء كانت صغيرة عدداً وكانت تسكن رقعة واسعة. فالتجمع كان معناه الانتحار.

كانت التكنولوجيا في ذلك العصر ثابتة، لكن قبل ٤٠,٠٠٠ سنة (او على اي حالٍ ليس قبل اكثر من ٧٠,٠٠٠ سنة) كان ثمة تقدم سريع مفاجيء في التكنولوجيا. فقد استبدلت الادوات القديمة بادوات افضل. ومنذ ذلك الوقت والتكنولوجيا تتقدم، لكن تقدمها لم يكن مستمرا. كانت تمر بالبشرية فورات اختراعات تكنولوجية، وهناك وقفات تعترضها. والثورات الرئيسة الى اليوم هي: العصر الحجري القديم المتأخر (تحسن في الادوات وتدجين الكلب). والعصر الحجري الحديث (تحسن في الادوات وتدجين حيوانات اخرى ونباتات واختراع الغزل والنسيج وصنع الفخار). وثورة الالف الخامس ق.م. (اختراع الشراع والدولاب والتعدين والكتابة). والثورة الصناعية (توسع كبير في المكننة). وتقدم التكنولوجيا لم يكن مستمرا، لكنه كان تراكميا.

والتكنولوجيا هي المجال الوحيد الذي تقدم فيه الانسان. اما «الاجتماعية» البشرية فلم تتقدم على النحو ذاته.

وكان اهم ما نجح فيه الانسان تكنولوجيا هو تدجين الحيوانات واختراع الزراعة (في العصر الحجري الحديث). فقد ظل هذان اساس ما تبقى من تقدمه التكنولوجي حتى في عصر الثورة الصناعية. كما كان اساس المدنيات التي قامت ثم انقرضت.

إن جماعة القرية في العصر الحجري الحديث كانت كبيرة بالنسبة الى ما سبقها. لكنها لم تبلغ من الحجم ما يمنع افرادها من الاتصال والتعارف، ولم تكن تتطلب بعد اختصاصات معينة، إلا انها كانت بمعزل عن غيرها من القرى الاخرى. لكن «الاجتماعية» البشرية (في القرية هنا) كانت اساس العلاقة بين الناس وبين الجماعات.

وقد يبدو غـريبا ان الفلاحين الذين كانوا يعيشون (سنة ١٩٧٣) جماعات قروية من اسلوب العصر الحجري الحديث كانوا اكثرية البشرية، لكنهم كانوا يساقون بسرعة من الريف الى المدن – الاكواخ المحيطة بالمدن، فيما كانت المكننة التي وجدت اصلاً لتنظم امور الاشياء غير الحية صناعيا، اصبحت تستخدم في الزراعة وتربية المواشي. يضاف الى هذا ان فلاحي الاويكومين قد مرت عليهم، الى الآن، خمسة الاف سنة وهم يتحملون اعباء مدنية مركبة معقدة. وقد حدث هذا لانه في الالف الرابع ق.م. انتج التقدم التكنولوجي فائضا اقتصاديا: استخدم بعضه في الحروب، ووزع بعضه توزيعا غير عادل، بحيث استولت اقليته على اكثره. والتقدم التكنولوجي في الالف الرابع اقتضى قيام اختصاصيين (معدنين وحدادين ومخططين ومنظمين للاعمال العامة مثل الري وتصريف المياه الخ). وكان ثمة تـوزيع للثروة الناشئة عن الحياه الاقتصادية الجديدة، ولكنه توزيع غير عادل، فضلا عن انه اصبح ارثيا. والظلم الاجتماعي والحرب هما ثمن هذا الثراء الجماعي. وهما العلتان الاجتماعيتان اللتان جاءتا من المدنية ولا تزالان تعصفان بالبشرية اليوم.

وقد كان الانسان، منذ فجر المدنية، يبدو عليه تناقض في سيره التكنولوجي وتصرفه الاجتماعي. والتقدم التكنولوجي الذي مر على الانسان، وبخاصة بين ١٧٧٣ و١٩٧٣، زاد في قوته وثروته. والفجوة الخلقية بين قوة الانسان الطبيعية على صنع الشر ومقدرته الروحية لتصريف هذه القوة قد اتسعت اشداقها. وهذا هو الذي فرض على البشرية ان توقع نفسها في مصائب كبيرة خلال الخمسة الاف سنة الماضية.

وتقدم الانسان الاجتماعي حدده عجز الانسان روحيا. وهذا الامر انعكس على التقدم التكنولوجي. فقد تعقدت التكنولوجيا بحيث انها اقتضت تعاونا كبيرا بين المنتجين. لكن المكننة الحديثة التي زادت الثروة والانتاج. جعلت العمل نجد ذاته اقل ارضاء (للعامل) نفسيا. ومن ثم خلق عاملا قلقا. فانحط مستوى الانتاج.

في فجر المدنية زيد الانتاج في مجاري دجلة والفرات الدنيا عن طريق تصريف المياه من المستنقعات وحفر الاقنية للري. واذ ان الجماعات القروية الفائتة هناك لم تكن كافية للامور التكنولوجية اللازمة. فكان لا بد من حشد جماعات جديدة. لا رابطة «اجتماعية» بينها. وهذه الجماعات الجديدة انشئت لها مؤسسات خاصة لاستيعابها. لكن هذه المؤسسات كانت مصطنعة. وكانت سريعة العطب. لذلك كان بين مؤسسيها رغبة في ان يلجأوا الى القسر لضمان استمرارها طمعا في الحصول على التعاون اللازم من السكان.

وقد كانت المؤسسة «الرئيسة» التي صنعها الانسان من فجر المدنية هي الدولة. فمنذ ذلك الحين والدول تتجاور وتتعاون وتتقاتل – وهذه الحروب بينها هي من عاهات المدنية. وقد كان النموذج العادي للدولة هو دولة محلية ذات سيادة تحيط بها او تجاورها دول اخرى من نوعها. يوجد اليوم في الاويكومين نحو ١٧٠ دولة. وخطوط الاويكومين السياسي اليوم هي الخطوط نفسها التي كانت في ايام السومريين في الالف الثالث ق.م.

والدول ذات السيادة المحلية مؤسسة غريبة. فحتى المدينة – الدولة. ولندع اية صيغة اخرى جانبا. هي وحدة اكبر مما يمكن ان تكون العلاقات الاجتماعية فيها شخصية. وفي الجبهة الاخرى فان اكبر الدول المحلية لا تزيد عن كونها واحدة من عدد من الدول. انها تستطيع ان تقوم بحرب. لكنها لا تستطيع ان تزود الناس بالسلام.

ومجموعة الدول المحلية ذات السياسية التي تعمر الارض لا تقدر على الحفاظ على السلام. ولا هي قادرة على انقاذ المجال الحيوي من التلوّث الذي صنعه الانسان او الحفاظ على المواد الطبيعية التي لا يمكن تعويضها. وهذه الفوضى المسكونية على المستوى السياسي لا يمكن ان تستمر لمدة اطول كثيراً في اويكومين اصبح وحدة على المستويين التكنولوجي والاقتصادي. فالذي يحتاج اليه العالم هو جسم سياسي على سعة الكرة. مكون من خلايا صغيرة (نسبيا) بحيث يحس الواحد الدفء في العلاقات الشخصية والمواطنية العالمية في دولة – العالم. وعلى كل فان الاويكومين الآن لا يمكن توحيده بالاساليب التقليدية البربرية المخربة القائمة على الفتح العسكري. فالاسلوب هذا اذا اعتمد

في توحيد الاويكومين انتهى الامر به الى القضاء عليه.

ويبدو. من استقصاء تاريخ الدول السومرية والهلينية والصينية •الايطالية. ان العالم اليوم لا يمكن ان يوحد إلا تطوعا. وانه لن يُقْبِلَ على هذا التطوع إلا شبه مكره على ذلك. ولذلك يبدو من الممكن ان مثل هذه الخطوة ستتأخر الى ان توقع البشرية نفسها في كوارث ترغمها في النهاية على قبول الوحدة السياسية.

وقد يبدو لنا. في هذه المرحلة من تاريخنا. نحن الكائنات البشرية. ان نغبط الحشرات الاجتماعية. ومع ذلك فيظل الانسان. بالاضافة الى انه طبيعة وجسم. يتمتع بروح. وهذه الروح تملك الوعي. ومن ثم فان الانسان يمكنه ان يختار– اما الخير او الشر.

والذي يتوجب على الانسان ان يتجه نحوه. في علاقاته وخياراته. هو المحبة. ففي الاويكومين. في عصر الثورة الصناعية يجب ان يوسع نطاق المحبة البشرية بحيث تشمل جميع العناصر التي يتكون منها المجال الحيوي. الحي منها والذي لا حياة فيه.

هذا ما كان يفكر به (سنة ١٩٧٣) بريطاني مولود سنة ١٨٨٩. فما الذي كان يفكر به الآخرون؟

لعلّ قلة من الناس يدركون ان مؤسسة الدولة قد فشلت. المرة بعد الاخرى. خلال ٥.٠٠٠ سنة. في ان تحقق حاجات البشرية السياسية. وان مثل هذه المؤسسة لا ...امن ان تكون. في مجتمع يشمل الكرة الارضية. عابرة اليوم ايضا. وهذه المرة اكثر من اي زمن مضى. ان عدد دول الاويكومين المستقلة قد تضاعف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فان هذه البشرية المجزأة سياسيا يزداد اعتمادها على بعضها تكنولوجيا واقتصاديا يوما بعد يوم.

إن الشعب الصيني. الذي كان يحسب يوما ان الصين هي كل ما تحت السماء. قبل اليوم ان يكون عضوا في مجموعة من الدول المقاتلة في حلبة تشمل الكرة الارضية. والصينيون يتجاهلون ضمنا فصلا من تاريخ بلادهم كانت فيه حلبة للصراع والقتال. إلا انهم يتذكرون ايضا ان الصين كانت. منذ ٢٢١ ق.م.. موحدة وان الشعب الصيني يحاول جاهدا ان لا يشعر الشعب بان الموظفين المدنيين غرباء عنه.

إن تجربة الصينيين. بالنسبة الى الموظفين وامتحاناتهم. التي تحدثنا عنها من قبل. فيها درس لهم. فاذا نجح الشعب الصيني في تجنب العودة الى المشاكل التي مرت به.

فانه يكون قد ادى خدمة لا لنفسه وبلده فحسب. بل للبشرية جمعاء.

إن الانسان هو واحد من سكان هذا المجال الحيوي الذي يغلف الارض. وهو بذلك واحد من هذه المخلوقات الحية التي هي ابناء الام-الارض. لكنه يتميز عنها بان له روحا. وهو بذلك على اتصال مع حقيقة روحية التي هي ليست من هذا العالم.

والانسان. بوصفه روحا. يملك وعيا. ويستطيع ان يفرق بين الخير والشر. وهو في اعماله يستطيع ان يختار. وفي ميدان الاخلاق. حيث يكون خيار الانسان اما للشر واما للخير. فان اختياره يضع امامنا خلاصة الحساب الجاري-له وعليه. ولسنا ندري فيما اذا كان هذا الحساب يقفل عندما تنتهي الحياة القصيرة لكل ابن انثى او انها (كما يعتقد الهندوكيون والبوذيون) تستمر عبر عدد لا نهاية له من التقمصات. اذ انه بالنسبة الى شبكة العلاقات بين الكائنات البشرية المتقمصة التي يتألف منها المجتمع البشري. نجد ان هذا الحساب مفتوح بعد. وسيظل مفتوحا ما دامت البشرية تسمح للمجال الجوي بان يظل صالحا للعيش.

فهل تغتال البشرية الارض-الام او ان الانسان ينقذها. انه يستطيع ان يغتالها باساءة استعمال قوته التكنولوجية المتزايدة. والخيار الآخر هو ان الانسان يستطيع انقاذها بالتغلب على الطمع العدواني الانتحاري الذي كان الثمن الذي حصلت عليه الارض-الام لقاء هبتها الحياة للكائنات الحية بما فيها الانسان. هذا هو السؤال المحير الذي يجابه الانسان الآن!